جامعة الأزهر

كلية اللغة العربية بالزقازيق

قسم الأدب والنقد



في
الأدب الجاهلى وقضاياه

المؤلف

الأستاذ الدكتور

السيد عبدالقادر عويضة

أستاذ الأدب والنقد بالكلية

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى العربى الكريم عيه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين. وبعد:

فهذه دراسة فى الأدب العربى فى العصر الجاهلى. وقفت فيهـا على مجموعة من القضايا الأدبية التى شغلت النقاد والدارسين قـديما وحديثا وأدلى كل منهم برأيه فيها ، ولكنها ما زالت تحتاج إلى دراسة وتأمل وإضافة لكثير من الآراء٠

وقد وقفنا فى هذه الدراسة على معنى كلمة (الجاهلية) فى اللغـة وفى آراء الدارسين والنقاد، وعرفنا أن الجاهلية من الجهل الذى هـو بمعنى السفه والطيش ، وليس الذى هو نقيض العلم إذ إن المعـروف عنهم أنهم أهل فصاحة وبلاغة وبيان، وتحدى القرآن الكريم لهم على أن يأتوا بمثله أو بمثل أقصر سورة منه دليل على ذلك. كمـا عـرف عنهم أيضا أنهم كانوا يعرفون علوما منها: الطـب والقيافـة والأثـر والاهتداء بالنجوم . كما قال القرآن الكريم : ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ ٠

كما تناولنا بالدراسة أيضا آراء الدارسين فـــى تحديـــد العصـــر الجاهلى زمنيا، وأن الرأى الغالب فى هذه القضية أن العصر الجاهلى يمتد قبل الإسلام بما يقرب من مائة وخمسين إلى مائتى سنة، وهذا هو الواضح من الاستقراء والتتبع والتقصى للعلماء الـــذين أولـــوا هـــذه القضية اهتماما ٠

ووقفت أيضا على كلمة أدب متتبعا نشأتها وتطور معناهـــا مـــن المعنى الحسى وهو أنها بمعنى الدعوة إلـــى الطعـــام، إلـــى المعنـــى المعنوى وهو التهذيب وحسن الخلق ، ووقفنا على معناهـــا التهـــذيبى ومعناها التعليمى. ثم على المعنى العام لها وهو الدلالة علـــى الشـــعر والنثر الفنى بأنواعه، وآراء النقاد والدارسين فى هذا التطور ٠

وتناولت كذلك: قضية الأولية بين الشعر والنثر ووقفـــت علـــى آراء النقاد فى هذه القضية. ومنهم من يجعل الأولية للشعر، ومنهم من يجعلها للنثر الفنى وكل له أدلته التى يعضد بها رأيه، واخترت الرأى الذى يقول بأولية النثر الفنى على الشعر وسقت الأدلة القويـــة علـــى ذلك ٠

وتناولت كذلك قضية كبيرة من قضايا الأدب الجاهلى وهى التى جاءت تحت عنوان : (ضمير الجماعة وضمير الـــذات فـــى الشـــعر الجاهلى) ووقفت فيها على آراء النقاد من قـــال مـــنهم بـــأن الشـــعر

الجاهلى جماعى النزعة يتسم كله بالوجدان الجماعى لأن الشاعر لسان حال قبيلته ولا يخرج عن مرادها فى تعبيراته، ومن قال بأن الشاعر الجاهلى كما عبر عن وجدان القبيلة عبر عن نفسه هو وظهر فى شعره الوجدان الذاتى، وقد تجسد ضمير الذات فى مقدمات القصائد وفى الوصف والحكم والفخر بالذات وفى كثير من شعرهم .

ورجحت أن القصيدة الجاهلية وضح فيها ضمير الجماعة كما وضح فيها ضمير الذات أيضا .

ثم عرضت لقضية الانتحال فى الشعر الجاهلى ولآراء القدامى والمحدثين وكذا رأى د/ طه حسين . ووصلت إلى أن الشعر الجاهلى ليس كله منتحلا، ولكن منه ما ليس منتحلا بدليل أن نحله لابد أن يكون له أصل سابق يقلده ويسير على غراره. وذكرت نماذج من الشعر الجاهلى الذى قيل عنه بأنه منتحل .

ثم ختمت الحديث عن الشعر بالوقوف على الأغراض الشعرية فتناولت منها بالدراسة:

الوصف والمدح والفخر والرثاء والهجاء والغزل .

ثم وقفت بعد ذلك على النثر الفنى فى العصر الجاهلى فتحدثنا عنه وعن دواعيه فى العصر الجاهلى والغرض منه،وقسمنا النثر الفنى إلى قسمين:أولا الكتابة والتدوين فى العصر الجاهلى،وثانيا:المخاطبة الشفهية، ووقفنا فيها على الخطابة وعلى دواعيها وأغراضها. وعلى عادات العرب

فى الخطابة ثم على الخصائص الفنية للنثر الجاهلى بعامة ثم تحدثنا عـــن الوصايا ثم عن الحكم والأمثال. وانتهينا إلى الحديث عن سجع الكهان.

هذه هى موضوعات الكتاب، نسأل الله تعالى أن ينفع بها طلاب العلم والأدب .. آمين .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل، إنه ــ سبحانه ــ نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

الأستاذ الدكتور

السيد عبد القادر عويضة

الزقازيق فى ٢٠/ ٩/ ١٤٢٧هـ
١٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م

الجاهلية

معنى الجاهلية :

الجاهلية من حيث الاشتقاق اللغوى : مصدر صناعى . مـأخوذ من "الجاهلى" نسبة إلى " الجاهل" المشتق من الجهل، والمعـروف أن الجهل فى اللغة نقيض العلم . يقول الألوسى فى ذلك عن الجهل "هـو عدم العلم ، أو عدم اتباع العلم ، فمن قال خلاف الحق عالما أو غيـر عالم فهو جاهل" ويقول: " قال أصحاب محمد ﷺ : كل من عمل سوءا فهو جاهل، وإن علم أنه مخالف للحق" .

وسبب ذلك: أن العلم الحقيقى الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلابد مـن غفلـة القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم.

فتصير جهلا بهذا الاعتبار . وعلى ذلك "فالناس قبل مبعث النبى ﷺ كانوا فى حال جاهلية " ويستدل الألوسى على كلامه هذا بما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قـال : " إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فـى سـورة الأنعام : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [1].

(١) بلوغ الأرب ١/ ١٦، ١٧ .

وعلى هذا فالمعنى الذى ذكره الألوسى هنا للجهل والجهال إنما هو للفترة الزمنية التى كانت قبل مبعث النبى محمد ﷺ .

ولم تطلق هذه الكلمة أى "الجاهلية" على هـذه الفتـرة الزمنيـة وتسمى بها إلا فى الإسلام. يقول ابن خالويه: إن هذا الاسم حدث فـى الإسلام للزمن الذى كان قبل بعثة الرسول ﷺ "[1].

وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم فى مواضع عدة وهى:

١ - قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [2] .

٢ - وقوله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [3] .

٣ - وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [4] .

٤ - وقوله تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [5] .

---

(١) بلوغ الأرب ١/ ١٦ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .
(٣) سورة المائدة الآية ٥٠ .
(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .
(٥) سورة الفتح الآية ٢٦ .

وقد وقف المفسرون على هذه الآيات الكريمات بالتفسير وذكر المعنى، ومن ذلك ما قاله الطبرى فى تفسير الآية الأولى : "ظن الجاهلية" من أهل الشرك بالله ، شكا فى أمر الله، وتكذيبا لنبيه ﷺ ، ويقول فى تفسير الآية الثانية : " يعنى أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك، وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذى حكمت به فيهم ، وأنه الحق الذى لا يجوز خلافه . وفى الآية الثالثة يتعرض الطبرى لبيان المقصود بالجاهلية الأولى ، ويذكر فيها أقوالا كثيرة، منها: أنها الزمن بين آدم ونوح ومنها : أنها ما بين نوح وإدريس .

ومنها : أنها ما بين نوح وإبراهيم ، ومنها: أنها ما بين موسى وعيسى . ومنها : أنها ما بين عيسى ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، مبينا ما كان فى كل فترة من هذه الفترات من المنهيات المقصودة فى الآية الكريمة .

وفى الآية الرابعة يقول: " حمية الجاهلية حين جعل سهيل بن عمرو فى قلبه الحمية فامتنع أن يكتب فى كتاب المقاضاة الذى كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين، بسم الله الرحمن الرحيم .

وأن يكتب : محمد رسول الله ، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ مكة ذلك العام . وقال : حمية الجاهلية، لأن الذى فعلوه

من ذلك كان جميعه من أخلاق أهل الكفر، ولم يكن شئ منه مما أذن الله لهم به ولا أحد من رسله" .

وقد ورد لفظ الجاهلية أيضا فى السنة النبوية كثيرا ، ومن ذلك قول النبى ﷺ لأبى ذر حين عير رجلا بأمه السوداء : "إنك امرؤ فيك جاهلية" ومن ذلك أيضا قول النبى ﷺ :" أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن. الفخر بالأحساب، والطعين فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة" ووردت الكلمة أيضا فى الأقوال المأثورة ، ومن ذلك قول عمر بن الخطاب ﷺ : " إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة"، وقول عائشة رضى الله عنها : " كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء، وقولهم : "يا رسول الله كنا فى جاهلية وشر" فالمقصود فى هذا كله : حال جاهلية، أو طريقة جاهلية، أو عادة جاهلية ونحو ذلك .

ولنا أن نطرح هنا سؤالا : هل الجاهلية وهى الحقبة الزمنية التى مضت قبل مجئ الإسلام يعنى بها الجهل الذى هو ضد العلم، أو الذى ينافى العلم بكل شئ فى أمورهم العامة والخاصة؟

فى الواضع أننا حينما نتأمل حياتهم ومعيشتهم واجتماعياتهم وأفكارهم لا نجد الجهل هنا ينافى العلم على الإطلاق، "فقد ثبت أنهم

كانوا أهل ذكاء ودراية وخبرة، وكان فيهم أذهان صافية ونظرات صادقة فى الطبيعة وأحوال الإنسان بما لا يقل عن بعض نظرات الفلاسفة والباحثين والمفكرين، ويحكى لنا التاريخ كثيرا عما كان فى جزيرة العرب فى ذلك الوقت مما يدل على أنهم حينئذ لم يكونوا فى جهل تام ، بل كانوا على شئ من العلم والتفكير"[١] .

وهذا واضح فيما أثر عنهم من معرفتهم بالطب وعلم القيافة واقتفاء الأثر والاهتداء بالنجوم .. وغيرها من المعارف ، فضلا عما اشتهروا به من الفصاحة والبلاغة والبيان، وهذا هو المحل فى الإعجاز الإلهى فى القرآن الكريم إذ تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله أو بمثل أقصر سورة منه فعجزوا، والمعروف أن معجزة كل رسول من الرسل هى من جنس ما يعرفه قومه ويفقهونه، وهذا ما كان للقرآن الكريم ، حيث كان أسلوبه من أرقى درجات الفصاحة والبلاغة وأعلى مراتب البيان إلى درجة أنهم وقفوا مشدوهين أمام أسلوبه الرائع وبيانه الأثر وتراكيبه العذبة ومقاصده الجميلة وتوجيهاته الإلهية التى لا يعلوها توجيهات ، لدرجة أن شهد له أفصحهم لسانا وأكملهم بيانا وأكثرهم نضوجا عقليا وهو الوليد بن المغيرة حينما أسمعه رسول

---

(١) فى تاريخ الأدب الجاهلى صـ١٠ د/ على الجندى دار المعارف ١٩٨٤م.

الله ﷺ شيئا من أول سورة "فصلت" فرجع إلى قومه وقال لهم : "والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه".

فهذه الشهادة تدل على ما كان لهم من تقدم ورسوخ فى ميادين البلاغة وروعة التعبير، لدرجة أنهم أكثروا من الجدل والمناقشة حوله، وهذا لا يتأتى لجاهل ليس لديه شئ من العلم والمعرفة أو الخبرة والدراية .

وما وصلنا من أدبهم شعرا ونثرا، وما تضمنه هذا الأدب من معان سامية وأفكار ناضجة، ودلالات واضحة، وإشارات عديدة إلى شئ من العلوم والمعارف الفطرية والمكتسبة يدل على عقلية ناضجة ميالة إلى التفكير قوية الملاحظة ، واضحة المعالم، كما يدل على يقظتهم ووعيهم وتنبههم إلى ما حولهم ، وقدرتهم على استكشاف ما فى الكائنات من أسرار ، وذلك كله لا يصدر عن جاهل ، ولا يكون إلا عن طريق العقل الكامل والتفكير السليم . ثم " إن آثارهم العظيمة التى يتحدث عنها التاريخ من مدن فخمة ، ومبان شاهقة ، وأعمال هندسية وفنية ونظم فى المعيشة والسياسة والتجارة والحروب وأدوات

القتال وغيرها ، وما قيل عن معارفهم وتجاربهم وخبراتهم فى نـواح متعددة تدل على تفكير عقلى سليم ، وإدراك قوى صحيح ، كل هـذا ينفى عن العرب قبل الإسلام الجهل الذى ينافى العلم على الإطلاق"[١]

إذن ، فماذا يراد بالجهل فى هذه القضية ؟

الواضح أن الجهل هنا يراد به : السفه والطيش والحمق والتهور وعدم ضبط النفس ، وفقدان سيطرة العقل عند الغضب والإثارة.

وهذا واضح فى قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلـن أحـد علينـا ∴ فنجهل فـوق جهـل الجاهلينـا

وقول غيره :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ∴ طاروا إليه زرافـات ووحـدانا

لا يسألون أخاهم حين ينـدبهم ∴ فى النائبات على ما قال برهانـا

وقد وردت هذه الكلمة "الجهل" بهذا المعنى وهو السفه والطيش كثيرا فى القرآن الكريم والسنة النبويه المطهرة فضلا عن ورودها فى الأدب الجاهلى شعرا ونثرا . ومـن ذلـك قـول الله تعـالى : ﴿قالوا

(١) فى تاريخ الأدب الجاهلى صـ١٠ .

أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ وقوله تعالى :
﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ .

وسبقت الإشارة إلى ما قاله الرسول ﷺ لأبى ذر "إنك امرؤ فيك جاهلية" .

ويتضح من هذه الإشارات جميعها أن الربط بين كلمة جاهل وجاهلية وبين السفه والطيش والحمق لم يكن واضح الدلالة فى الحقبة الزمنية التى سبقت الإسلام، ولكنها أضحت واضحة بهذا المعنى وهذا الربط بعد الإسلام أى أن دلالة الطيش والحمق عليها فى الجاهلية لم تتضح إلا فى الإسلام وإشارات القرآن الكريم والسنة النبوية إلى ذلك . إشارة إلى ما كان فى الجاهلية من ضلال ووثنية وعصبية بغيضة، وأخلاق مذمومة قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف والشرع الشريف من موبقات .

ولكن هل كان الناس جميعا فى الجاهلية موصوفة بالحمية والسفاحة وعدم سيطرة العقل، فى كل أحوالهم ؟

فى الواقع أنه ليس كل واحد منهم كان موصوفا بهذه الصــفات الذميمة ، ولكن هناك كثير منهم قد اتصفوا بالنضج العقلى ، والتأنى ، والتفكير السليم ، والتأمل فى الكون والحياة ، والنظــرات الصــائبة ، والآراء السديدة ، والحكمة الرشــيدة، والسـيرة الحســنة، والكلمــة المسموعة، ونتيجة لهذا كلــه قــد اتخــذهم العــرب حكامــا لهــم ، يستشيرونهم فى شئونهم ويحكمــونهم فــى أمــورهم ، وينصــاعون لأحكامهم ، ومن هؤلاء : قس ابن ساعدة الإيادى حكيم إياد ، وأكــثم بن صيفى حكيم تميم وعالمها بالأنساب، وحاجب بن زرارة حكيم تميم أيضا، والأفعى بن الأفعى الجرهمى ، وهو الذى حكم بين بنى مــرار فى تراثهم، وكذلك الأقرع بن حابس التميمى، وهاشم بن عبد منــاف القرشى ، وورقة بن نوفل ، وعمرو بن زيد بن نفيل، وعبدالمطلب بن هاشم ، وضمرة بن ضمرة النهشلى ، وكان ذكيا فطنا قــوى العقــل والتفكير، خبيرا بأحوال العرب وأنســابهم، وذو الإصــبع العــدوانى، وعامر بن الظرب العدوانى، وعيلان بن سلمة الثقفى ، وهرم بن قطبة الفزارى، وسنان بن أبى حارثة المرى، وربيعة بن حذار الأســدى ، ويعمر بن الشداخ الكنانى ، ومالك بن جبير العامرى، وعمــرو بــن حممة الدوسى ، والحارث بن عباد البكرى ... وغيرهم كثيرون .

ولم يتوقف أمر الحكمة ، وسداد الرأى ، وقوة العقل، وصواب المشورة ، وفصاحة اللسان وقوة البيان على الرجال فقط فى الجاهلية بل كان هناك من نساء الجاهلية من اشتهرن بكل هذه النعوت الحميدة، ومنهن: ابنة الخس الإيادية، وأختها جمعة، وصحر بنت لقمان، وخصيلة بنت عامر بن الظرب العدوانى، وحذام بنت الريان، وهى التى قيل فيها :

إذا قالت حذام فصدقوها ∴ فإن القول ما قالت حذام

وكان هؤلاء وأمثالهم يعرفون بين العرب بأنهم الحكام أو الحكماء.

وبهذا يكون الجهل الذى وصم به الجاهليون على وجه العموم . هو الجهل الدينى، أو ما يتنافى مع صفات العالم الرشيد، أو ما ليس من سلوك الحليم ذى الرأى السديد ، والنظر البعيد، والعقل الرشيد[١].

تحديد العصر الجاهلى زمنيا :

يرتبط الأدب الجاهلى باللغة ونضوجها فكرا ومادة ، ولذلك كان بين مؤرخى الأدب شبه اتفاق على أن العصر الجاهلى حدوده

---

(١) انظر: فى تاريخ الأدب الجاهلى صـ ١١ ، ١٢ د/ على الجندى .

الزمنية بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ سنة قبل الإسلام ، وهي المدة التي تكاملت فيها للغة العربية خصائصها وسماتها الفنية ،وتميزت بها هذه اللغة عن سائر اللغات السامية وغيرها ، وتميز العرب بها فصاحة وبلاغة وبيانا.

وقد لاحظ الجاحظ الرابطة القوية بين نضوج اللغة وبين قوة الشعر وفصاحته ، وأن الشعر العربى فى الجاهلية لم يظهر ولم تعرف العرب به إلا فى هذه الحقب المتأخرة قبل الإسلام ، والتى ترتبط بظهرور شاعرية امرئ القيس والمهلهل بن ربيعة وغيرهما من شعراء الجاهلية القدامى. يقول الجاحظ : " أما الشعر العربى فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله ،وسهل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام " [1] .

هذه الحقبة التى تحدث عنها الجاحظ وجعلها حدا زمنيا للعصر الجاهلى إنما هى تطلق على ما أطلق عليه مؤرخو الأدب الجاهلية الثانية ، وهى التى وضحت فيها سمات اللغة العربية ، كفكر وأداة ،

---

(١) الحيوان للجاحظ ٧٤/١ طبعة الحلبى.

واستوى الشعر والنثر على سوقهما ، كما وضحت فيه حدود الإمارات والقبائل العربية ، والعلاقات المتنوعة والمتبادلة بينها من جهة ،وبينها وبين القبائل والإمارات المجاورة لها من جهة أخرى.

أما الحقب التى كانت قبل مائتى سنة على الأكثر من البعثة النبوية أطلق عليها المؤرخون : الجاهلية الأولى ،وهى التى يشوبها الغموض شيئا ما تاريخيا وجغرافيا ، ولغة ، ومعاملات إنسانية.

كلمة أدب

نشأتها وتطور معناها

كلمة أدب : من الكلمات التى تطور معناها بتطور حيـــاة الأمـــة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضـــارة، وقــد اختلفت عليها معان متقاربة عبر العصور الأدبية حتى أخذت معناهـــا الذى يتبادر إلى أذهاننا اليوم ، وهو الكلام الإنشائى البليغ الذى يقصد به إلى التأثير فى عواطف القراء والسامعين، سواء أكـــان شـــعرا أم نثرا[١] أو هو: فن الإبانة عما فى النفس ، والتعبير الجميل عن مكنون الحس ، والتصوير الناطق للطبيعة، والتسجيل الصادق لصور الحيـــاة ومظاهر الكون ، ومشاهد الوجود.

وإذن فما هو هذا الأدب الذى تطور مفهومه واتسعت معانيـــه، بتطور العصور وانتقالها من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة، ثـــم من مرحلة حضارية إلى مرحلة حضارية أرقى وأعظم حتى وصـــل **إلى أن يكون فنا جميلا معبرا عن خوالج النفس ومكنون الحس بالكلام البليغ المؤثر ؟**

---

(١) راجع العصر الجاهلى صـــ٧، ٩١ د/شوقى ضيف ـــ دار المعارف ١٩٦٠

حينما نعود إلى العصر الجاهلى ننقب عن الكلمة ومعناها فيه لا نجدها تجرى على ألسنتهم فى الشعر ولا فى النثر كثيرا، ولا بالمعنى المراد لهذا الفن بعد تطوره ، إنما نجد لفظة آدب بمعنى الداعى إلى الطعام ، ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى ∴ لا ترى الآدب فينا ينتقر[١]

ومن ذلك المأدبة بمعنى الطعام الذى يدعى إليه الناس، واشتقوا من هذا المعنى أدب يأدب بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها.

ويرى د/ شوقى ضيف : أن كلمة أدب لم تستخدم فى العصر الجاهلى للدلالة على المعنى الخلقى مثلما استخدمت فى حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه : " أدبنى ربى فأحسن تأديبى"، وفى قول الشاعر المخضرم سهم بن حنظلة الغنوى :

لا يمنع الناس منى ما أردت ولا ∴ أعطيهم ما أرادوا حسن ذا أدبا[٢]

وقد "ذهب "نالينو" إلى أنها استخدمت فى الجاهلية بمعنى السنة وسيرة الآباء مفترضا أنها مقلوب دأب، فقد جمع العرب دأبا على

(١) المشتاة : الشتاء، الدعوة الجفلى : الدعوة العامة. الآدب : الداعى إلى الطعام. لا ينتقر: لا يدعو دعوة خاصة .

(٢) انظر: العصر الجاهلى صـ٧٠ .

آداب كما جمعوا بئرا على آبار، ورأيا على آراء، ثم عادوا فتوهموا أن آدابا جمع أدب، فدارت فى لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة، ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشيم" .

يقول د/ شوقى ضيف فى تعليقه على رأى "نالينو" هذا : " وهو فرض بعيد ، وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسى وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهنى وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم، شأنها فى ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التى تستخدم أولا فى معنى حسي حقيقي، ثم تخرج منه إلى معنى ذهنى مجازى"(١) .

ويرى البعض أن كلمة "أدب" وإن كانت لم ترد فى القرآن الكريم على الرغم من خفتها، وشدة اتصالها بأغراضه وموضوعاته، وورود كثير من الآيات فى معناها، إلا أنها ترددت بنصها أو بمادتها فى بعض ما نقل إلينا من آثار الجاهلية ، كما فى حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند، وكانت قد اشترطت عليه ألا يزوجها من أحد حتى يصفه من غير أن يسميه، فكان مما وصف به أبا سفيان بن حرب حين خطبها قوله : " يؤدب أهله ولا يؤدبونه"، وكان مما ردت به قولها: "وسآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتى وقلة تلفتى"(٢).

---

(١) انظر العصر الجاهلى صـ ٨ .
(٢) الأمالى لأبى على القالى ١٠٤/ ٢ .

وكما فى كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى مع وفد العـــرب، والذى يقول فيه : " وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم" وأيضا وردت فى كلام علقمة بن علاثة أمام كسرى حيث يقول : "فليس من حضر منا بأفضل ممن عزب عنك، بل لو قسمت كل رجل منهم، وعلمت مـــنهم مـــا علمنـــا لوجدت له فى آبائه أندادا وأكفاء، كلهم إلى الفضل منسوب وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب معروف" .

وقال الأعشى :

جروا على أدب منى بلا نـــزق .:. ولا إذا شمرت حرب بأغمـــار[1]

وهذه الكلمة أعنى "أدب" فى هذه النصوص الواردة قد استعملت فى المعنى الخلقى من تهذيب النفس، وترقيق الطبع، واتباع الطريقـــة المحمودة، والسيرة الحسنة. وكل ذلك كان فى العصر الجاهلى بالرغم من القول بأن مادة (أدب) لم تستعمل فى الجاهليـــة إلا فـــى المعنـــى الحسى كما مثّل د/ شوقى ضيف بيت طرفة وذكر أن هذه الكلمة لـــم توجد إلا فى هذا البيت وبهذا المعنى دون سواه مـــن المعـــانى التـــى تطورت إليها الكلمة فيما بعد.

---

(١) العقد الفريد ٦٠ / ١ .

ولما جاء الإسلام كثر استعمال الكلمة ، واضطردت فى مجراها ومعناها وترددت كثيرا فى بعض النصوص الواردة على لسان النبى ﷺ : "الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم" وورد أنه ﷺ كان يخاطب وفود العرب على اختلاف لهجاتهم التى لا يهتدى إلى معرفتها بعض العرب، فيفهم عنهم ويفهمهم، حتى قال له على ﷺ : يا رسول الله. نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم الوفود بما لا نفهم أكثره، فقال الرسول ﷺ : "أدبنى ربى فأحسن تأديبى، وربيت فى بنى سعد" والتأديب هنا معناه التعليم.

وهكذا دارت الكلمة فى أول أمرها فى العصر الجاهلى حول المعنى الحسى وهو الدعوة العامة إلى الطعام ، ثم حول رياضة النفس وتمرينها على ما يستحسن من السيرة الحميدة والأخلاق الكريمة ، فلما كان صدر الإسلام أضيف إلى مدلولها تعليم المرء ما أثر من المحامد والمعارف، وصارت تدور حول المعنى التعليمى كما جاء فى حديث الرسول ﷺ ، إلى جانب دورانها حول المعنى الخلقى والنفسى.

فلما كان العصر الأموى شاع استعمال كلمة "أدب" وتعددت مشتقاتها ، واتسعت معانيها، وأصبحت عنوانا جديدا على التعليم الفذ والتربية الممتازة ، ونشأت مهنة جديدة لجماعة من الأساتذة الذين ينشئون أبناء الطبقة العليا، ويقومون بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء

والوزراء وتأديبهم بالعلم وروايته ، وكانوا يسمون " المؤدبين"، وكـــان هؤلاء يدرسون لتلاميذهم الشعر وما يتصل به من نسب وأيام وأخبار ورواية، ونحو ذلك من المعارف المختلفة التى كانت تكـــون الثقافـــة الأدبية، ويضاف إليها ما يكون الثقافة الدينيـــة مـــن القـــرآن الكـــريم وعلومه والسنة النبوية وما يتصل بهما أى القرآن والسنة من التفســـير والفقه والفتاوى وغيرها ، وعلى هذا فقد دخل فى مدلول كلمة أدب ما يلقيه المعلم ــ الذى كان يطلق عليه المؤدب ــ إلى تلاميذه من كل ما يمنحه حظا من المعرفة والثقافة الأدبية ٠

إذا فقد صارت كلمة "أدب" فى العصر الأموى بعد أن تعـــددت مشتقاتها وتنوعت معانيها واتسعت مدلولاتها تؤدى معنيين هما :

أ - **المعنى الخلقى التهذيبى،** وهو أخذ النفس بالمرانة على الفضائل وكريم الشمائل ، وعظيم المحامد ، حتى إذا تأثر التلميذ بهذه المكـــارم من خلال دراسته، اكتسب أخلاقا كريمة ، وسيرة حميدة بـــين أقرانـــه والناس جميعا . ومن هنا كانت تسمية ابـــن المقفـــع كتابيـــه : "الأدب الصغير ، والأدب الكبير لاشتمالهما على فضائل وأصول من تمســـك بها صار أديبا أى فاضلا مؤدبا مهذبا ٠

ومن المعنى الخلقى التهذيبى للأدب أيضا قول زياد بن أبيه فـــى خطبته البتراء : " أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن لـــى قناتكم، وقول بعض الفزاريين من شعراء الحماسة:

أكنيه حـــين أناديـــه لأكرمـــه ∴ ولا ألقبـــه ، والســـوأة اللقـــب

كذاك أدبت حتى صار من خلقى ∴ أنى وجدت ملاك الشـــيمة الأدب

وما أنشده الجاحظ :

وإنى على ما كان من عنجهيتى ∴ ولوثـــــة أعرابيتـــــى لأديـــــب

وقول سالم بن وايصة :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرما ∴ أديبا ظريفا عاقلا ماجـــدا حـــرا

إذا ما أتت من صاحب لك زلة ∴ فكن أنت محتالا لزلتـــه عـــذرا

ب - المعنى التعليمى : حيث يقوم المؤدبون بتلقين تلاميذهم الشعر والنثر وما يتصل بهما من أيام العرب وأخبارهم وأنسابهم وأمثالهم ... وما إلى ذلك مما يسهم إسهاما كبيرا فى تعليم التلميذ المعارف المختلفة التى يصير بها أديبا فى مجتمعه . وكما كان الأستاذ يختار مـــن بـــين

المؤدبين لتعليم التلميذ وتثقيفه وتهذيب خلقه، فكانت نوعيه الثقافة والمعرفة تختار أيضا، ومن ذلك قول عبدالملك بن مروان لمؤدب ولده: أدبهم برواية شعر الأعشى .

وأحيانا كان يعنى بكلمة الأدب الطاعة والانصياع فى الأمور كلها ، ومن هذا قول عمر بن عبدالعزيز لمؤدبه: كيف كانت طاعتى لك وأنت تؤدبنى؟ قال: أحسن طاعة . قال: فأطعنى الآن كما كنت أطيعك[١].

وهكذا ظلت المادة تدل على المعنيين معا طوال العصر الأموى، أى على المعنى الخلقى التهذيبى، والمعنى التعليمى، حتى أثر عن بعضهم قوله : الأدب أدبان، أدب النفس وأدب الدرس[٢].

وما أن جاء العصر العباسى حتى اتسع مدلول كلمة "أدب" أكثر مما كانت عليه الحال فى العصر الأموى، فدخلت أصول العلوم التى نشأت آنئذ كاللغة والنحو والصرف .. وغيرها من العلوم فى مدلول الكلمة. وظلت هكذا فى مفهوم العلماء وأهل العصر جميعا إلى أن ازدهرت الحضارة العباسية، وصحبتها النهضة العلمية وقويت حركة

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٠١ / ١ .
(٢) لسان العرب مادة أدب .

التأليف فى العلوم العربية والدينية على اختلاف مادتهـا ومسـميانها ومناهجها ٠

كما قويت حركة الترجمة للعلوم الوافـدة وبخاصـة الفارسـية واليونانية ، ولكن فيما بعد استقلت هذه العلـوم بأسـمائها ، بعـد أن استوفت عناصرها، وقواعدها ، واتسعت حركة التأليف فيها٠

ولما جاء القرن الثالث الهجرى رأينا كلمة "أدب" يعنـى بهـا: المعنى الخاص، وهو الشعر والنثر وما يتصل بها من أخبار وأنسـاب وأيام العرب، وأيضا أحكام نقدية طارئة وسريعة وليست منهجية، وكذا النثر الفنى الذى أنشأه الكتاب فى صورة رسائل وأجادوا التعبير عمـا فى نفوسهم فى هذه الرسائل . وظهرت كتب كثيرة بهذا المعنـى فـى هذا القرن منها: البيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٦هـ ، والكامل للمبرد ٢٨٥هـ ، وطبقـات الشعراء لمحمد ابن سلام ٢٣١هـ ، وغيرها مما نجد فيه أدبا خالصا مع مسائل لغوية ونحوية وآراء فى النقد الأدبى ومعارف قصصـية، والكتاب يجمع كل هذه المعارف على أنها من الأدب٠

والمعنى العام الذى يتناول المعارف الإنسانية ، وأنواع الفنـون الجميلة ، والرياضات العقلية، ونحو ذلك من كل مـا يوسـع الثقافـة

ويكسب المتعلم ظرفا وأناقة، فأطلق الأدب على الغناء، قال ابن خلدون : " وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء هذا الفن (أى الأدب) لما هو تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه".

وكان من أثر تقلب العرب فى أعطاف النعيم ، لما ورفت ظلال العيش فى مدن العراق والجزيرة، أن أولعوا بالمنادمة والتأنق ، فأطلقوا الأدب على الأناقة فى اللباس والطعام ، واللباقة فى الحديث والكلام، وحسن التناول والمنادمة، وخدمة الملوك والأمراء، والبراعة فى الصيد أو اللعب ، وكل ما من شأنه تكوين الرجل المستنير ، وبهذا صار لفظ الأديب يرادف لفظ الظريف، أو المثقف ، أو المستنير، ولهذا يقول التبريزى فى شرح الحماسة : " وكان الأدب اسما لما يفعله الإنسان فيتزين به فى الناس" ويقول ابن منظور : "الأدب الظرف وحسن التناول".

ومما يدل على أن الأدب كان يطلق على جميع ما ترجم من العلوم ونقل من الألعاب والفنون، قول الحسن بن سهل الوزير العباسى المتوفى ٣٠٦ :

"الأدب عشرة: فثلاثة شهر جانية ، وثلاثة أنو شروانية، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما العود والشطرنج ولعب الصوالج

فشهرجانية.وأما الأنوشروانية:فالطب والهندسة والفروسية،وأما العربية: فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحـدة: التـى أربـت علـيهن فمقطعات الحديث والسحر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس"(١).

وظل هذا المعنى قائما ، وزاد اتساعا فى القرن الرابع الهجرى.

ويعنى بها كذلك : اللغة والنحو والنسب والأخبار والنقد وغيرها من العلوم اللازمة لاستكمال ثقافة الأديب، والاستعانة بها على إنشـاء الأدب وفهمه وتذوقه ونقده .

ويعنى بها أيضا : أدب النفس . وقد اتسع هذا المعنى فتناول كل أسلوب جميل فى علم أو عمل، وما ينتج عـن ذلـك مـن الأخـلاق الكريمة، والسيرة الحسنة ، والسلوك المحمود ، وقد أنـتج فـى هـذا المعنى كتب كثيرة منها : "أدب القراءة" لابن قتيبة ، "وباب الأدب فى صحيح البخارى" ، و"أدب النفس" لأبى العبـاس السرخسـى ، "وأدب النديم" لكشاجم المتوفى سنة ٣٥٩هـ و"أدب الدنيا والدين" للمـاوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ و"آداب الصوفية" للنيسابورى ٤٤٥هـ ، وآداب البحث والمناظرة وتوالى التأليف فى الأدب ، فألفت كتب كثيرة فـى : أدب القاضى، وأدب الوزير، وأدب الحديث، وآداب الطعـام ، وآداب

(١) زهر الآداب للحصرى ١/ ١٤٠ .

المعاشرة وآداب السفر .. وغيرها من الكتب التى كانت تتضمن فــى اسمها أو فى معناها كلمة أدب، وكان أكثر مــا فــى محتواهــا هــو مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار .

هذا وقد أصبحت بعض العلوم مستقلة فى القرن الرابع الهجرى فى منهجها ومنها الأدب، وبقى النقد يخطو نحو الاســتقلال خطــوات واسعة حتى تم له ذلك فى القرن الخامس الهجرى، وقد تقــدم بعــض النقاد بإسهامات كبيرة فى سبيل استقلالية النقد، ومن هؤلاء: أبو هلال العسكرى فى كتابه "الصناعتين"، والآمــدى فــى كتابــه "الموازنــة" والقاضى عبدالعزيز الجرجانى فى كتابه "الوساطة" ... إلى غير ذلــك من الكتب والرسائل، والجهود المبذولة فى سبيل استقلال النقد عن بقية العلوم فى التأليف وفى المنهج .

وأصبح الأدب فى القرن الرابع يؤدى :

ـــ المعنى الخاص لكلمة "أدب" من الدلالة على الشــعر والنثــر **بأنواعه ، بعد انفصال النقد والبلاغة عنه .**

ـــ والمعنى العام ، حيث بقى الأدب على سعته يتنــاول جميــع الآثار العقلية عدا الشرعية ، فقد جاء فى الرسالة السابعة من رســائل إخوان الصفا ، وهى من آثار القرن الرابع: "اعلم يا أخى بأن العلــوم

التى يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس . منها الرياضية، ومنها الشرعية الوضعية، ومنها الفلسفية الحقيقية ، فالرياضة هى علم الآداب، وهى تسعة أنواع ، أولها علم الكتابة والقراءة، ومنها علم النحو واللغة ، ومنها علم الحساب والمعاملات ، ومنها علم الشعر والعروض، ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها ، ومنها علم الحرف والصنائع، ومنها علم البيع والشراء والتجارات ، ومنها السير والأخبار..."٠

وما أن انتهى القرن الخامس الهجرى حتى وقف الأدب عند الشعر والنثر وتحدد معناه الخاص بما يجرى عليه الاستعمال اليوم، وضاق مدلوله العام بعد إخوان الصفا، وأصبح قاصرا على علوم اللغة العربية . ولما أنشئت المدرسة النظامية ببغداد، وجعل لدراسة الأدب فيها مكان جعلوا علوم العربية ثمانية: النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم٠

ثم جاء الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ فعرف علوم الأدب بأنها: علوم يحترز بها عن الخلل فى كلام العرب لفظا وكتابة، وجعلها اثنى عشر علما بإضافة المعانى والبيان والإملاء والإنشاء إلى علوم المدرسة النظامية . ثم تتابع العلماء والأدباء وهم يختلفون فى حصرها حتى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ ، وما زالوا يختلفون حتى عصرنا الحاضر[1].

---

(١) انظر فى أصول الأدب للزيات صـ١١ ، ١٢ ٠

قضية الأولية بين الشعر والنثر

هذه القضية حظيت بعناية كثير من المهتمـين بدراسـة الأدب الجاهلى شعرا ونثرا، وحدث تباين بينهم فى الـرأى واخـتلاف فـى وجهات النظر، بل لم يقف الأمر عند مجرد الاختلاف والتعبير عـن وجهة النظر فى هدوء ، بل كان الأمر أحيانا يصل إلى التعصب إلـى الرأى وأن ما يراه الدارس هو القول الفصل ــ من وجهة نظره ــ فى هذه القضية . وهذا خطأ ولكنه وجد . وكل من القائلين بهذا الرأى أو ذاك ليس عنده من الأدلة الدامغة ما يقدمها، ولكنه يجتهـد ، ويحـاول إيجاد المبررات التى تقوى رأيه وتجعله فى نظر النقـاد والدارسـين مقبولا.

فذهب كثير من الدارسين القدامى والمحدثين إلى أن النثر الفنى فى العصر الجاهلى أسبق من الشعر . وحينما نقول النثر الفنى فـذلك لأن الحديث العادى فى حياتهم اليومية كـان نثـرا ، ولغـتهم التـى يتحدثون بها فى حياتهم اليومية وفـى خطـابتهم وحكمهـم وأمثـالهم وسجعهم وكتابتهم هى اللغة العربية الفصيحة إلا أن الفارق بين الكلام العادى وبين عبارة النثر الفنى أن الخطابة مثلا تكون فى مناسبة ولها موضوعها ، والخطيب يأتى بالعبارات التى تناسـب المقـام ويجيـد

صياغتها حتى يكون لها الأثر الكبير فى نفوس الحاضرين، والحكمة تعبر عن تجربة، والمثل له مورد ومضرب، يستفاد منه فى الحالات المشابهة .. وهكذا .

والمنطق يحكى أن العرب قالت النثر أولا، ثم تطور النثر إلى سجع وبخاصة فى خطابتهم وكتابتهم، وهناك سجع خالص مع غموض فى المعنى وهو سجع الكهان، ثم تطور السجع إلى رجز فى حداء الإبل وفى التغنى به فى الحياة اليومية . ثم تطور الرجز إلى الشعر ، وهذا منطق طبعى تحدث عنه ابن رشيق (ت٤٥٦هـ) فى كتابه العمدة فقال: " وكان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعرا ، لأنهم شعروا به"[١].

فابن رشيق هنا يرى أن النثر أسهل وأخف فى الكلام وفى التعبير عن المعنى المراد ، ولذلك جاء متقدما على الشعر الذى جاء فى مرحلة تالية للنثر نظرا لقيوده بالوزن والقافية، وأنهم حينما

---
(١) العمدة ١/ ٢٠ .

احتاجوا لأن يتغنوا بأمجادهم ومكارم أخلاقهم لجأوا إليه وسموه شعرا لشعورهم به وتأثيره فى نفوسهم .

وهناك من المحدثين من يرى أن النثر الفنى هو الأسبق وهو البداية الحقيقية للأدب العربى فى العصر الجاهلى، رغم قلة ما وصلنا منه، وقلة الناطقين به، ورغم ارتياب المشككين فيه . ومن هؤلاء د/محمد عبدالقادر أحمد الذى يقول : "وعلى الرغم من أن النثر كان أسبق وجودا من الشعر، وإليه تعزى البداية الحقيقية، وعلى الرغم من أن رجاله كانوا أكثر عددا من رجال الشعر، إلا أن ما وصل إلينا منه يعد قليلا جدا بالقياس إلى ما وصل إلينا من شعر ، ويرجع ذلك لبعض العوامل منها: أن الأمة العربية فى ذلك الوقت كانت تغمرها الأمية وتلفها الجهالة، فهى لم تدون نثرها، ولم تقيد شعرها، ولم تسجل وقائع أيامها لقلة القارئين والكاتبين ، يضاف إلى ذلك أن حفظ النثر أصعب من حفظ الشعر، فالشعر يساعد على حفظه وزنه وقافيته، وما يتولد عنهما من جرس ونغم، وحلاوة إيقاع، ولا يزال المنظوم من كل شئ أمتع للنفس ، وأحلى على القلوب من المنثور، والنظام سر الجمال فى مظاهر الوجود ، وحتى فى الجماد والحجر ، أما النثر فمثله كالطيف لم يكد يسلم حتى يودع"[١].

فالدكتور / محمد عبدالقادر أحمد يرى أن النثر أسبق فى الشعر العربى فى الوجود وإن كان ما وصلنا منه يعد قليلا بالنسبة للشعر،

---

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الجاهلى صـ١٣٩ ، ١٤٠ .

ويعزو ذلك لأمية العرب وجهالتهم للقراءة والكتابة فلم يدون النثر ولم يقيد الشعر إلا أن الشعر صحبه الوزن والقافية وما نـتج عنهـا مـن جرس موسيقى جميل جعل حفظ الشعر وتناقله فيما بينهم أسـهل مـن حفظ النثر، وكان ذلك سببا فى أن ما وصلنا من الشعر كان أكثر مـن النثر وأبقى فى النفوس .

وهناك من المستشرقين من يرى أن النثر الفنـى أسـبق مـن الشعر، وهم بهذا يسلمون بأولية النثر الفنى العربـى ووجـوده فـى العصر الجاهلى، ومن هؤلاء : كارل بروكلمان الذى يرجع أولية النثر الفنى العربى إلى العصر الجاهلى، وفى رأيه أن هذا النثر يتمثل فـى الأقاصيص والمسامرات وكذلك الأمثال، وكل ذلك مما عنى به القوم، واحتفلوا به بدافع من طبيعة حياتهم ، وأوضاعهم الاجتماعية والفكرية ونحوها ، فهفت نفوسهم إلى القاص ، كما هفت إلى الشاعر، لما يقوم به من حكاية الأقاصيص والأخبار المستمدة من الحوادث التاريخيـة، أو من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمـم للنـاس فـى مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة،وفى مجالس أهل القرى والحضر، وفى ذلك من الترويح عن النفوس وإمتاعها وإدخال السرور عليها، ما يجعل القوم يقبلون عليها ، ويهتمون بها[1].

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربى ١/ ١٢٨ ، النثـر الجـاهلى بـين الأصـالة والانتحال صـ٢٧ د/ عبدالرحمن الهليل .

وكثير من آراء المحدثين العرب والمستشرقين القائلين بأولية النثر العربى فى العصر الجاهلى، وأنه أسبق من الشعر، ولعلهم يستندون إلى أسباب ضرورية – فيما أرى – قد دعت إلى القول بأسبقية النثر على الشعر فى العصر الجاهلى، ومنها:

أولا : أن النثر الفنى قد وجد عند كثير من الأمم القديمة، كالفرس والهنود وقدماء المصريين قبل الميلاد بقرون كثيرة، فلا يكون غريبا أن يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون، وقد عاشوا ظروفا مماثلة أو مشابهة لتلك الظروف التى عاشتها أمم الأرض الأخرى[1].

ثانيا : أن الحاجة داعية إلى النثر "فإن المقصود الأعظم منه الخطب والترسل، وكلاهما شريف الموضوع حسن التعليق ، والترسل مبنى على مصالح الأمة ، وقوام الرعية ، لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك، وسراة الناس فى مهمات الدين ، وصلاح الحال، وبيعات الخلفاء وعهودهم، وما يصدر عنهم من عهود الملوك وما يلتحق بذلك من ولايات أرباب السيوف والأقلام

---

(١) انظر: قصة الأدب فى الحجاز صـ٢٤٦ ، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام صـ٩٨ .

الذين هم أركان الدولة وقواعدها إلى غير ذلك من المصالح التى لا تكاد تدخل تحت الإحصاء، ولا يأخذها الحصر "[١].

ثالثا : حاجة الناس فى اجتماعاتهم الخاصة والعامة إلى ما يقطعون به أوقاتهم من حديث مشتمل على الأخبار ، والحكايات، والنوادر والقصص، بغرض الترويح عن النفس ، بعد عناء يوم كامل ، هذا بالإضافة إلى ما يدور فى تلك المجالس من أحاديث عن الأمجاد، ومفاخرة بالأحساب والأنساب، وكذلك ما يدور فيها من مناقشات ، وتبادل الآراء لحل المشكلات وفض المنازعات، كل هذا قد هيأ فرصا كثيرة لمن لديهم موهبة أدبية ، وليست لديهم مقدرة شعرية لكى يمارسوا فنونا أدبية نثرية متعددة، فهناك وجدت ضرورة استعماله[٢].

رابعا : أن النثر غير خاضع لقيود الشعر من الوزن والقافية ومن هنا كان قريب التناول، يجعل المتحدث منطلقا فى حديثه، منساقا فى كلامه معبرا عما يدور فى خلجات نفسه بحرية تامة، ودون عناء أو مشقة .

(١) صبح الأعشى ١/ ٩١ .
(٢) انظر: فى تاريخ الأدب الجاهلى صـ ٢٧٨ .

خامسا : أن القرآن الكريم تحدى العرب بفصاحته وبلاغتـــه وحســن بيانه وقوته ، وكيف يكون هذا التحدى إذا لم يكن للعـــرب فـــى جاهليتهم نثر ؟ "وقد تحداهم القرآن الكريم فى النثر، ووصـــفهم بأنهم كانوا قوما لدا (واللدد فى اللغة شدة الخصومة والمحاجة)، تمشيا مع ما هو مقرر معروف من أن التحدى لا يحتفظ بكيانه، ولا يكون له قوامه إلا إذاوقع لكل أمة فى الباب الذى تزعم فيه نبوغا وتدعى لنفسها عليه قوة واقتدارا، وإذا كان الأمر هنا كما يقولون . أفما كان الأجدر بالقرآن أن ينزل كما نزلـت سـائر الكتب قبله بلغة لا يرتفع فيها إلى ذروة الفصاحة، كما ارتفـع ، حتى يكونوا أفهم لمعانيه وأقدر — وقد نزل لهم — على الانتفاع بما حواه ، ثم يلتمس النبى منحى آخر غير الفصاحة والبيـان ، وإذا أبى المخالفون إلا الفصاحة والبيان، فـإن فـى مقـدورنا مجاراة لهم أن نقول: كان ينبغى لذلك أن ينزل القرآن شـعرا لا نثرا، لأنهم لا زالوا يدينون لبعض الجاهليين بالقدرة على قـول الشعر، لولا أن فى تلك المجاراة هـدما لمـا لا نرتضـى، ولا يرتضون، فقد جرد الله نبيه من أن يكون شاعرا كما جرده مـن أن يكون قارئا، وباعد بين القرآن والشعر، فأعجز بـه منثـورا

أمة ذات قدرة فائقة على النثر، وقد أثر عنها فيه ما يؤيد تلك القدرة ويشهد بها ولكن ضاع معظمه وبقى القليل، خضوعا لسنة الكون فى الإضاعة والإبقاء ، فلا محل إذن للشك فى هذا القليل، إنما الوجه فى الشك يكون إذا كثر وأباد"[1].

سادسا : أن العرب كانوا كغيرهم من الأمم لهم حياتهم الخاصة بهم ولم تخل هذه الحياة من المواقف التى تستدعى التحريض والإرشاد والوعظ والوصايا .. وما إلى ذلك مما هو ضرورى لحياتها "هذا فضلا عن أن العرب كانوا على صلة دائمة بكل من العراق وفارس والشام واليمن، وكان لذلك كله أثره الواضح على جوانب الحياة المختلفة، وكان للغة نصيب وافر من هذا التأثر يدل عليه تلك الثروة اللغوية الهائلة التى غنيت بها اللغة العربية"[2].

ولكن إذا كان من الدارسين والنقاد العرب والمستشرقين من قالوا بوجود النثر الفنى فى الأدب الجاهلى وأسبقيته على الشعر، وعللوا لأقوالهم بما هم مقتنعون به، فإن غيرهم من العرب

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) السباعى بيومى ٨٤، ٨٥ .
(٢) النثر الجاهلى بين الأصالة والانتحال صـ٣١ د/ عبدالرحمن الهليل وانظر أيضا : النثر الفنى فى العصر الجاهلى ٢١ .

والمستشرقين يرون أن الشعر العربى أسبق من النثـر فـى الوجـود معللين لأقوالهم فى الغالب بثلاثة أمور هى: القياس على الأمم الأخرى التى تغنت بشعرها قبل أن تعرف النثر — والأمر الآخر هـو تـأخر الكتابة اللازمة لتدوين النثر فلم يعرف النثر إلا بعد معرفتهم الكتابة . والثالث : هو أن نفوسهم وعواطفهم تتأثر بالشعر دون النثر .

وبنوا أقوالهم على هذه التعليلات التى تعوزها المنطقية القويـة، وبعضهم كان يتخذ من القول بأولية الشعر سببا للقول بإنكـار النثـر الجاهلى. وكان طه حسين من أشهر الدارسين والنقاد العـرب الـذين قالوا بأسبقية الشعر على النثر فى الأدب الجاهلى، فهو يقول : "فعندما نلاحظ تاريخ الأمم التى كانت لها حياة أدبية ، وكان لها شعر ونثـر، نلاحظ أن حياتها الأدبية قد بدأت شعرا، وأن الشعر وجد فيها قبـل أن يوجد النثر بزمن طويل .. فالأمم التى لها أدب قبـل أن تعبـر عـن عواطفها وميولها بالنثر، عبرت عن ذاتها وآلامهـا بالشـعر، وكـان الشعر هو لسانها الأدبى"(١).

وفى رأيه أن النثر جاء متأخرا عن الشعر كنتيجة حتمية لرقـى العقلية العربية فيما بعد وتعقد الحياة، واحتاجت العـرب إلـى تنظـيم

---

(١) من حديث الشعر والنثر ١/ ٢٢ ، ٢٣ .

أفكارها والتعبير عن آرائها فى القضايا المعقدة التى عجز الشعر عن التعبير عنها فعبرت العرب بالنثر عن هذه القضايا فى مرحلة متأخرة عن الشعر، فحين "تطورت هذه الأمم، وارتقى عقلها، وتغيرت نظمها السياسية والاجتماعية، واتصلت بغيرها من الشعوب، نشأ عن ذلك أن وجدت فيها أفكار وآراء لم توجد عندها من قبل ، واحتاجت أن تـنظم هذه الأفكار والآراء، وأن تصورها وتعلنها، فعجز الشعر عن أن يعبر عنها، واضطرت أن تعبر عن هذه الحاجات بأوسع من الشعر فعبرت عنها بالنثر"[1].

ويحاول الدكتور طه حسين أن يعمم رأيه هذا وهو سبق الشعر للنثر على الأمم المختلفة كاليونانية والرومانية والفارسية وغيرها ليقيس عليها الأمة العربية نافيا وجود النثر فى العصر الجاهلى مثبتا إياه فى عصر صدر الإسلام بعد أن تغيرت موضوعات التفكير واستلزم ذلك تغيير العبارة فى بعض الموضوعات من الشعر إلى النثر عند ذلك وجد النثر ولم يكن موجودا من قبل ، فيقول عن الأمة العربية فى الجاهلية إنها : "كانت أمة شعر .. فلما جاء الإسلام تغيرت الحياة العربية تغيرا تاما .. وتغيرت موضوعات التفكير، واستلزم ذلك

(١) نفسه ١/ ٢٣ .

أن تتغير العبارة التى يعبرون بها عما فى أنفسهم ، ونشأ لهــم لســان جديد لم يكن لهم من قبل ، وهو النثر الذى يعبر عن المعــانى بــدون القيود الشعرية"[١] ويؤكد رأيه هذا بقوله : "والواقع أننــا لا نســتطيع بحال من الأحوال ــ مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصــر الجاهلى وعشاقه ــ أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فنى"[٢] ولكنه يعود فيعترف بأنه كان للعرب "نثر خاص لم يصل إلينا، لضعف الذاكرة، وخلوه من الوزن"[٣] ويقصد بالنثر الخاص الخطابــة، ذلــك اللون من الأدب الذى اشتهر به العــرب، وصــار مســرحا لبيــانهم وبلاغتهم ٠

كما ذهب المستشرق نالينو إلى تعميم أولية الشعر عنــد جميــع الأمم ومنهم العرب، وذلك راجع فى نظره إلى سببين:

أحدهما أشار إليه بقوله : "إن ابتداء الآداب عند كل أمــة كــان بالشعر، على الرغم من أن الكلام المرسل المعتاد أقدم مــن المنظــوم بكثير ، وذلك أن الكلام العادى لا يأخذ بمجامع القلوب، فلــيس كافيــا بالتعبير عن حميا[٤] العواطف، وشدة الطرب ، وأما الشعر فبانسجامه

---

(١) نفسه ١/ ٢٣ ، ٢٤ ، وانظر: فى الأدب الجاهلى صـ٣٢٦ ٠
(٢) نفسه ١/ ٢٤ ، ٢٥ ٠
(٣) نفسه ١/ ٢٥ ٠
(٤) الحميا : الشدة وحميا كل شئ شدته وحدته ٠

ووزنه يحرك أهواء النفس، ويثير كامن حركاتهـا، وهـو ألـذ فـي الأسماع وأشد وقعا فى القلوب من الكلام المنثور ، لاسـيما إذا أنشـد على الغناء وآلات الطرب . كما كانت العادة فيـه عنـد كـل الأمـم القديمة، فالنثر أجدر من الشعر بإظهار بنات الأفكار والشعر أجدر من النثر بإبداء ما يكنه القلب أو تتصوره النفس بلا تفكر وتعمد، وبما أن القوة الخيالية عند كل أمة غلبته أولا على القوة الفكريـة والنظريـة، وميل الإنسان إلى ما استحسنه، قبل ميله إلى إدمان الفكر فى الأشياء ، فلا عجب فى سبق الشعر لسائر الفنون الأدبيـة المسـتظرفة ، أمـا الإنشاء المنمق البعيد عن كل الكلام المرسل المعتاد، فلم ينشأ إلا وقت بلوغ الأمم درجة أعلى فى سير ترقيها فى المدينة والآداب"[١].

أما السبب الثانى فيرى نالينو : "أن الغـرض مـن الشـعر أو المنثور المستظرف ليس فقط إبراز العواطف والأفكار، بل هو أيضـا تخليدها وتداولها على ألسنة الناس ، فإذا كانت صناعة الخط مجهولـة أو قل استعمالها فلا سبيل إلى إبقاء المنثور وحفظه من ورود التغييـر والنقص والزيادة فى ألفاظه وعبارته فتتغير العبارة والألفاظ ويضـيع ما كان فيه من العذوبة والرشاقة والأناقة ، ولا يبقى إلا كلام ركيـك

---

(١) تاريخ الآداب العربية صـ٩٥ .

معتاد لا يعد من المستظرف، ولا تهش إليه الأسماع، ولا ترتــاح لــه القلوب، أما الكلام المقيد بالوزن والقافية فأسهل حفظا ، وأكثر صــبرا على توالى الزمن، وأخف على ألسنة الرواة، فــيمكن أن يشــيع فــى الآفاق ذكره، ويعظم فى الناس خطره ، وإن لم يحــظ بالتخليــد فــى بطون الصحف"[١].

وهكذا يؤكد نالينو رأيه بأسبقية الشعر للنثر فى هــذين الســببين اللذين ذكرهما وذكر مبررات يفلسف بها هذا الرأى الخاص بــه، وإن كنت أختلف معه فيما رأى .

ويكاد يتفق الشيخ سيد قطب مع نالينو فى رأيه بأسبقية الشــعر للنثر وذلك أنه حين تحدث عن "فنون العمل الأدبى" فهو يتحدث عــن الشعر ويرى أنه : "أول هذه الفنون وأقدمها تاريخا، وطبيعة الأشــياء تقضى أن يتأخر مولد النثر الفنى عن مولد الشعر، لأن الإيقاع المنغم المقسم فى الشعر يجعله مصاحبا للتعبيــر الجســدى بــالرقص عــن الانفعالات الحسية، كما يجعله أقدر علــى تلبيــة التعبيــر الوجــدانى بالغناء، والرقص والغناء لابد أن يكونا قد صاحبا طفولة البشرية، ثــم تبعهما الشعر وصاحبهما قبل أن تتهيأ مداركها لصياغة النثــر الــذى

---

(١) المرجع نفسه ٩٥، ٩٦ .

يتدخل الوعى والعمل الذهنى فيه بنسبة أكبر ، وقد صيغت الملحمة والتمثيلية بقسميها: المأساة والملهاة فى قالب شعرى فترة من الوقت ، قبل أن يتهيأ ظهور التمثيلية نثرا بزمن ليس بالقصير، وقبل أن يتهيأ ظهور القصة والأقصوصة والتراجم بأزمان طوال، فإذا قصرنا المجال على الأدب العربى توقعنا أن يكون الشعر قد سبق النثر الفنى، فلقد وجدت القصيدة المكتملة الناضجة، بينما كان النثر الفنى فى خطواته يحبو"[1].

وإذا كان هناك من يحكم بأولية الشعر الجاهلى وأسبقيته على النثر، فإن من الدارسين والنقاد، من يحكم بعدم وجود النثر الجاهلى أصلا، ويتكلف لهذا الحكم تعليلات واهية يحاول بها إقناع غيره، ومن هؤلاء د/ أحمد الشايب الذى يقول: "هل تنتظر من الطفل الصغير عقلا مركزا تام التكوين ناضج التفكير، يسرد على مسامعك، أو يسطر لك المسائل الاجتماعية والنظريات العلمية، والمذاهب الفنية، أو تبقى من جماعة يضطربون فى صحراء البداوة، حديثى عهد بالحياة، لم تنتظمهم حضارة، ولم تستقر بهم الدنيا فى قطر من الأقطار ليتعلموا ويبحثوا، هل تبغى منهم نتاجا عقليا مفيدا أو أسلوبا فنيا له قيمة؟ ذلك

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه صـ٥٢ ، ٥٣ .

شئ لا قبل للطبيعة به ، وليس من قوانينها أن تعكس الأيــة وترســم المستحيل"[1].

وهكذا نسى الدكتور أحمد الشايب أو تناسى أن هؤلاء العرب هم الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم وأعجزهم بفصاحته وأسلوبه وبيانــه، ولا يكون الشئ معجزا إلا إذا كان من جنس ما يتفوق فيه القوم وهــم فيه مهرة عظام.

فكيف يقيس تفكيرهم وهذه حالهم بالطفل الصغير الذى لا يقوى على شئ من التفكيــر الناضــج، ولا يســتطيع أن يســطر المســائل الاجتماعية والنظريات العلمية، والمذاهب الفنيــة؟ وإذا كانــت هــذه المجتمعات تعيش حياة البداوة كما هو معروف ، فهل نقيس هذه الحياة التى يعيشونها وتفكيرهم وعلمهم وإدراكهم بمقاييس القــرن العشــرين وما بعده من قرون فى التفكير والعلم والإدراك والوصول إلــى مــا وصل إليه أناس القرون المتأخرة من الرقى العلمى والتكنولوجيا وقمة الحضارة فى كل شئ ؟

إن المشكلة فى التعليلات التى يدلى بها من قالوا بأولية الشــعر وأسبقيته على النثر، أو بانعدام النثر الفنى فى الجاهلية هى أن القائلين

---

(١) أبحاث ومقالات صـــ٢٠٧ .

بهذا أو ذاك إنما يقيسون النثر الجاهلى فى موضوعاته وأسلوبه وطريقة صياغته وعقلية أصحابه، بالنثر الفنى فى العصر الحديث، بعد أن وصل النثر الفنى إلى أرقى درجاته، وتنوعت أساليبه وكثرت موضوعات وأصبحت فيه القصة والرواية والمقالة والخاطرة ، وازدهرت الخطابة وارتقت الكتابة، ووصل النضج العقلى والتفكير الموضوعى إلى أعلى درجاته ولذلك نجد تعليل من يقر بوجود النثر الفنى وأسبقية الشعر له يركز على عدم النضج فى العقل والتفكير، لدرجة أن بعض القائلين بذلك يقيس عقل الجاهلى فى نثره بعقل وتفكير الطفل الصغير الساذج الذى لا يصل بتفكيره إلى المسائل الاجتماعية، والنظريات العلمية والمذاهب الأدبية[1] وكأنه يقارن بين نثر البداوة فى الجاهلية ، ونثر الحضارة الحديثة . وهذا هو الخطأ بعينه، ومن ثم فقد جاء النثر متأخرا فى رأيه "ونحن إذا نظرنا إلى ما ذهب إليه المستشرقون ومؤيدوهم من الباحثين العرب من قول بأسبقية الشعر على النثر ، وما بنوه من إنكار لوجود النثر الجاهلى وجدناه يعتمد على ثلاثة أمور:

---

(١) انظر : النقد الأدبى لسيد قطب صـ٥٢، ٥٣ .

الأول: أن حياة العرب حياة أولية فطرية، ولا يرقى العقل فيها إلـى مستوى رفيع من التفكير ، والنثر الفنى هو لغة العقل.

الثاني: عدم معرفة العرب للكتابة وهى عماد النثر.

الثالث : القياس على الأمم الأخرى.

وفى هذه الأمور جميعها مجانبة للحق ، أو جناية على العـرب، وسرعان ما يتبين بطلانها بأدنى نظر فى تاريخ العرب قبل الإسـلام، فالعرب قبل الإسلام كانوا على صـلات بـالأمم المعاصـرة لهـم، وبالأديان المتصلة بجزيرتهم، وكانت التجارة من أوسع الطـرق إلـى هذه الصلات"[١].

وإذا كان الاتصال المباشر بالأمم المختلفة المحيطـة بجزيـرة العرب وغير المحيطة بهم شرطا للتعقيد اللازم لرقى النثر الفنى فـى العصر الجاهلى كما يرى القائلون بأسبقية الشعر على النثر أو القائلون بعدم وجود النثر الجاهلى أصلا . فإن التاريخ يشهد بالاتصال المباشر وغير المباشر بين العرب وغيرهم مـن الأمـم الهنديـة والفارسـية والرومية وغيرها من أمم الأرض عن طريـق التجـارة وغيرهـا،

---

(١) النثر الجاهلى بين الأصالة والانتحال صـ٣٦ د/ عبدالرحمن الهليل وانظر: الحياة العربية من الشعر الجاهلى صـ٩١ .

واضطلع العرب على أديانهم وثقافاتهم. وعلى حياتهم بعامة: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والعقلية ·

وكان ذلك كفيلا بأن يؤثر فى عقول العرب ، وفى أديانهم وثقافاتهم وجميع أنواع حياتهم، وهذا كفيل أيضا بأن يجعل للأمة العربية نثرا فنيا راقيا. هذا مع القناعة بأنه "ليس من الممكن أن ينشأ هذا الفن الأدبى العالى (وهو الشعر الجاهلى) دون أن يكون هذا المجتمع قد بلغ درجة معينة من الثقافة الراقية ولو إلى حد ما"[١].

وأما القول بتأخير وجود النثر الفنى عن الشعر ، أو بالشك فى وجوده، أو بانعدام وجوده، وتعليق كل ذلك على عدم وجود الكتابة التى يدونون بها آثارهم، فهذا القول خاطئ ، لأننا حينما ننعم النظر فى الآثار الواردة الدالة على وجود الكتابة فى العصر الجاهلى نجدها كثيرة، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن العرب فى الجاهلية كانوا يعرفون الكتابة، ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[٢] وقد ذكر أن هذه الآية نزلت فى بعض كفار مكة ومنهم النضر بن الحارث بن كلدة بن

(١) دروس ونصوص فى قضايا الأدب الجاهلى صـ٧٨ ·
(٢) سورة الفرقان الآية ٥ ·

علقمة الذى "كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فـدعا فيـه إلـى الله تعالى ، وتلافيه القرآن ، وحذر قريشا ما أصاب الأمم الخالية، خلفـه فى مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم السنديذ، وعن اسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا منـى، ومـا حديثـه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها"[١] .

وهناك خبر أسرى بدر الذين حكم عليهم رسول الله ﷺ بأنه من يعرف القراءة والكتابة يعلم عشرة من المسلمين ، ويفدى نفسه بذلك[٢] وأيضا خبر الصحيفة التى تعاهدت فيها قريش فيما بينها وأثمرت على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبدالمطلب حينما رأوا تجاوبهم وتعاطفهم مع دعوة محمد ﷺ[٣] وحينما نزل القرآن الكريم كتبه بعض من أسلم مـن القرشيين للنبى ﷺ .

وهناك من استعان بهم رسول الله ﷺ فى كتابة عهوده مواثيقـه، وكتبه الخاصة إلى الملوك والقياصرة والأكاسرة، وفى كتابة الدين بين الناس وغير ذلك. وذكر (البلاذرى المتوفى ٢٧٩هـ) فى فتوح البلدان

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٨١ .
(٢) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١ ، ١٤ .
(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٧٢ .

: أن قريشا كان بها سبعة عشر كاتبا عندما جاء الإسلام وأن (يثرب) كان بها أحد عشر رجلا يكتبون[١].

ولم يقف الأمر عند حدود معرفة العرب للكتابة والقـراءة، بـل تجاوزوا ذلك إلى أن ينمقوا كتـابتهم ويزخرفوهـا ، ويتفننـوا فـى خطوطهم غاية التفنين، وكل ذلك قد ورد فيما وصلنا من أشـعارهم . ومن ذلك قول أبى ذؤيب الهذلى :

عرفـت الـديار كـرقم الـدوا ∴ ة يـذبرها الكاتـب الحميـرى

برقم ، ووشـم كمـا زخرفـت ∴ بميشـمتها المزدهـاة الهـدى

أدان وأنبـأه الأولـون ∴ بـأن المـدان ملـى وفـى

فنمـنم فـى صـحف كالريـا ∴ ط فيهن إرث كتـاب محيـى[٢]

وقول الأخنس بن شهاب التغلبى :

لابنة حطان بن عوف منـازل ∴ كمارقش العنوان فى الرق كاتب[٣]

---

(١) انظر : فتوح البلدان صـ٤٥٦ .
(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٩٨، ٩٩ .
(٣) المفضليات صـ٢٠٤ .

وقول حاتم الطائى :

أتعرف أطلالا ونؤيـا مهـدما .·. كخطك فى رق كتابا منمنمـا[١]

وقول سلامة بن جندل :

لمن طلل مثل الكتاب المنمـق .·. خلا عهده بين الصليب فمطرق[٢]

وهكذا اهتم الجاهليون بكتابتهم ، وعنوا بتنميقها وزينتهـا حتـى بلغت شأوا بعيدا من الزينة والزخرف، وما كان من تشكيك من بعض الباحثين فى الكتابة الجاهلية فإنما يكون التشكيك فى الباديات الساذجة من الكتابة وليس فى الكتابة المنمقة التى عنوا بها أشد عنايـة. وهـذا وغيره من الأدلة القوية على وجود الكتابة والاهتمام بها فى العصـر الجاهلى قد جعل د/ ناصر الدين الأسد يتوصل إلى النتائج التالية:

الأولى: قدم الكتابة فى بلاد العرب ، فمن خلال الأدلـة، والنقـوش الحجرية المكتشفة تبين أن الجاهليين عرفوا الكتابة بـالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع الميلادى ، وكتبوا بهـا ثلاثـة قرون قبل الإسلام على أقل تقدير .

---

(١) الشعر والشعراء ١/ ٢٤١، ٢٤٩ .
(٢) ديوان سلامة بن جندل ١٥٣ .

الثانية : معرفة الجاهليين بالكتابة معرفة واسعة، يـدل علـى ذلـك النصوص والروايات الكثيرة التى تنبئ عن النشاط التعليمـى فى الجاهلية، من توافر عدد المعلمين، ووجود الكتاب والكتـب ونحوهما٠

الثالثة: اتساع ميدان الكتابة وتشعب موضوعاتها، فقد ثبت بالنصوص أن العرب كانوا يقيدون دينهم ورسائلهم وعهودهم ومـواثيقهم، وصكوك حسابهم ومداينانهم وغيرها[١]٠

ولكن ليس معنى ذلك أن العرب الجاهليين جميعا يعرفون الكتابة والقراءة، بل إن القليل منهم هو الذى يعرف ذلك. وهذا هو الذى حـدا بابن سعد (ت٢٣٠هـ) لأن يردد فى طبقاته قوله : "وكانت الكتابة فى العرب قليلة"[٢]٠

وحدا بابن فارس (ت٣٩٥هـ) لأن يقول : " لم تزعم أن العرب كلها مدرا ووبرا قد عرفوا الكتابة كلها،والحروف أجمعها، وما العرب فى قديم الزمان إلا كنحن اليوم ، فما كـل يعـرف الكتـاب والخـط والقراءة"[٣]٠

---

(١) انظر: مصادر الشعر الجاهلى صـ١٠٧ ـ والنثر الجاهلى بين الأصـالة والانتحال صـ٤٢ ٠

(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ١، ١٤ ٠

(٣) الصاحبى فى فقه اللغة صـ٨ ٠

وهذا القول لابن سعد وابن فارس وغيرهما من الباحثين قـديما وحديثا يدل على وجود النثر الفنى فى العصر الجاهلى وإن لـم يـدل على تقديمه على الشعر الجاهلى أو تأخيره عنه ولكنه ــ على الأقل ــ رد على القائلين بعدم وجود النثر الفنى فى العصر الجـاهلى بحجـة وهمية وهى عدم وجود الكتابة التى يدون بها النثر ، مـع أن الأدلـة على وجود الكتابة قائمة ومفحمة لهذه الجبهة المعارضة، كما أن النثر لا يقتصر على المكتوب فقط، ولكن منه ما يلقـى شـفهيا كالخطابـة والحكم والأمثال وسجع الكهان وغير ذلك .

وقد أقام بعض الدارسين[1] مجموعة من الأدلـة القويـة علـى وجود النثر الفنى فى العصر الجاهلى ومن أبرزها :

١ - جاء القرآن معجزة النبى ﷺ ، وقد تحدى الله به العـرب لما عرفوا به من بيان وفصاحة وبلاغة ، وبراعة فى فـن القـول ، وذلك يوجب الحكم بأن العرب كان لهم فى جاهليتهم نثر فنى ، وكانوا يجيدونه، ويبلغون فيه غاية البيان والفصاحة، وإلا فكيف يتحـداهم الله ــ عزوجل ــ بفن من البيان لم يعرفوه، والتحدى لا يكون له معنـى إلا إذا كان فى شئ يدعيه ويتقنه الخصم، وإن لم يكن كذلك فليس من فائدة له .

(١) انظر: النثر الجاهلى بين الأصالة والانتحال صــ٤٢، ٤٣ .

٢ – وجود مجموعة من الصحف والكتب الدينية عند بعض طبقات العرب من اليهود والنصارى والمتحنفين ٠

٣ – حفظ المصادر الأدبية المختلفة طائفة من النصوص النثرية للعرب فى الجاهلية، كالخطب والوصايا والحكم والأمثال، وهذه النصوص وإن كانت مرفوضة من قبل بعض النقاد والأدباء فهى مقبولة من قبل آخرين ٠

٤ – وما دمنا نؤمن بوجود الشعر الجاهلى فإن من المعلوم أن الشعر موهبة من ثم فإن النصيب من هذه الموهبة مقصور على طائفة محدودة من المجتمع، وهذا ملحوظ فى كل عصر ، فكثير أولئك الذين يتحدثون ويتخاطبون ، فى حين يقل الذين يقولون الشعر ٠

ويضاف إلى هذه الأدلة القوية أن النثر فيه من المرونة ما يسمح باستيعاب الكثير والكثير من المعانى والأغراض ، وهذا يجعله قادرا على تصوير العواطف والمشاعر شأنه شأن الشعر تماما، وهذا يرجح قول القائلين بأن الشعر أوله نثر فنى مسجوع، و"أن النثر الفنى أسبق فى حياة العرب، إذا كان علينا أن نقبل نظرية تطور الشعر العربى ونشأته ، كما يقدمها هؤلاء الباحثون أنفسهم ، فمن الحق أن فن الخطابة كان موجودا إلى جانب الشعر، كما كانت الأمثال وسجع

الكهان موجودين أيضا ، فإذا أخذنا بالنظرية التى أشرنا إليها من قبل، والتى تقول: بأن الشعر العربى قد نشأ فى جاهلية العرب الأولى نتيجة لتطور العبارات المسجوعة كما يرجح بعض المستشرقين ثبت لدينا أن النثر أسبق وجودا من الشعر"[١].

ويتفق مع هذا القول ما قاله محمد هاشم عطية : "بأن الأدب كله كلام منثور، وقد مضى عليه دهر وهو كذلك، حتى أصغى الإنسان إلى تلك الطبيعة الراقصة المغنية بأنواع الإيقاع والنغم، فاختمر الطرب فى نفسه فأرسله على نبرات صوته، كتلك الأصوات المتناغمة المترددة فى أرجاء الكون التى نشأ عنها الوزن، وتولدت الأقسام فى الكلام، وهى طفولة الشعر المتمثلة فى صورة الفقرات القصيرة من الأسجاع الموزونة، والفواصل المتساوية، وهكذا كانت نشأة الأوزان متأخرة فى الظهور عن الكلام المرسل، وكان الشعر متولدا عن النثر، متأخرا عنه فى الوجود"[٢].

وبعد هذا العرض الطويل المتضمن لآراء القائلين بأسبقية النثر على الشعر، والقائلين بأسبقية الشعر على النثر ، والنافين لما يسمى بالنثر الفنى فى العصر الجاهلى يتأكد لنا من خلال الأدلة القاطعة سالفة الذكر أن النثر الفنى فى العصر الجاهلى موجود وهو أسبق من الشعر، وأن الشعر أوله نثر مسجوع ٠

---

(١) دروس ونصوص فى قضايا الأدب الجاهلى صـ١٥٥ ٠
(٢) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٤٩، ١٥٠ ٠

ضمير الجماعة وضمير الذات
فى الشعر الجاهلى

أولا : ضمير الجماعة:

معروف سلفا أن الجزيرة العربية فى الجاهلية كانت تعج بالقبائل الكثيرة، وكل قبيلة لها شيخها صاحب الكلمة النافذة والتى لا ترد مهما كانت، ومهما تحمل من نواه وأوامر ، وكان الانتماء القبلى يعلو على كل انتماء، والعصبية هى أساس الروابط المتينة بـين أفـراد القبيلـة لدرجة أنهم لا يتفاهمون أو يتناقشون فيما يحدث منهم أو من غيـرهم وشعارهم : "انصر أخاك ظالما أو مظلوما بحد السيف" وهم كما قـال قائلهم وهو: قريط بن أنيف:

قوم إذا الشر أبدى ناجزيه لهم ∴ طاروا إليه زرافـات ووحـدانا

لا يسألون أخاهم حين ينـدبهم ∴ فى النائبات على ما قال برهانـا

وكانت العصبية للقبيلة فى حدودها الضيقة، ولـيس للعروبـة أو للقبائل فى المناطق التى تضم قبائل مختلفة، كمنطقة نجد، أو منطقـة الحجاز .. أو غيرها من مناطق الجزيرة العربية، بل كانـت القبيلـة تغير على القبائل المجاورة حتى ولو كانوا من أبناء العمومة على حد قول أحدهم:

وأحيانـا علـى بكـر أخينـا ∴ إذا لـم نجـد إلا أخانـا

بل إن رأى الفرد لا يخرج عن رأى الجماعة بأية حال كما قـــال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ∴ غويت وإن ترشد غزية أرشـــد

وهكذا كان الفرد جزءا لا يتجزأ مـــن قبيلتـــه ولا يتـــردد فـــى الاستجابة لنداء القبيلة ولا يناقش ما رأته ولا يعترض على مـــا يـــراه شيخها، بل لابد أن يلتزم وأن يستجيب للنداء بل وعن اقتناع وعصبية شديدة لهذا الرأى مهما كان صوابه أو خطؤه.

فالمعروف أن الشاعر الجاهلى هو أمل قبيلتـــه ولســـان حالهـــا والمدافع عنها بسنانه ولسانه، وهو صاحب الكلمة المســـموعة فيهـــا، ومن أكبر رجالها إن لم يكن أكبرهم، وكان فى كل حالاته يؤمن بمـــا آمن به أفراد جماعته من عادات وتقاليد ومثل اجتماعية يقطع بصوابها وإن كانت خطأ ويقنع بها ويسخر لها موهبته الفنية لينشرها ويـــذيعها ويدافع عنها، ويحقق بها آمال قبيلته ويرفع بها هامات رجالها.

وقد ورد فى كتاب "العمدة" لابن رشيق: أن العرب كانوا يهنئون القبيلة فى ثلاثة أمور: فى ولد يولد، أو فى فرس تنتج أو فى شـــاعر ينبغ. فكانت القبائل تأتيها لتهنئها، وكانت تصنع لهم الأطعمة، وتجتمع

النساء يلعبن بالمزاهر ويغنين كما يصنع فى الأعراس، وكان الرجال والولدان يتباهون بالشاعر، لأنه يحمى أعراضهم، ويدافع عن أحسابهم ويخلد مآثرهم ويرفع قدرهم ويشـيد بـذكرهم، ويفخـر بأمجـادهم، وبأحسابهم وأنسابهم[١].

هذا كله جعل للشاعر فى قبيلته شأنا ومكانة ومنزلـة عظيمـة، وصار مشاركا لفارسها فى شرف الدفاع عنها وحمايتها من كل سـوء حتى أصبحت "وظيفته فى القبيلة أخطر وظائف الزعامة والقيادة، وهو وضع قد قضت به ظروف البيئة، ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيـادة معنوية تبث فى أبنائها روح البسالة والحمية وإباء الضيم"[٢].

ويتحدث الدكتور سامى العانى عن مكانة الشعراء ومنزلتهم فـى الجاهلية وارتباطهم بأقوامهم فيقول: "وكان الشـعراء فـى الجاهليـة بمنزلة الحكام، يقولون فيرضى قومهم ويحكمون فيمضـى حكمهـم، وصار ذلك فيهم سنة يقتدى بها وأثارة يحتذى عليها"[٣].

---

(١) راجع: العمدة لابن رشيق ١/ ٦٥ تحقيق/ محيى الدين عبدالحميد ــ مطبعة الرشاد الحديثة .
(٢) قيم جديدة للأدب العربى ، د/ بنت الشاطئ ص١٢٤ مطبعة دار المعرفة.
(٣) الإسلام والشعر ص٩ مطابع الرسالة، الكويت ١٩٨٣م.

وذلك لأن الشاعر الجاهلى يحس بمكانته بين أفراد قبيلته، يتحمل مسئولياتها ويتحدث بلسانها ويدافع عنها ويفخر بأمجادها ويذوب فيهـا وجدا وحبا فلا يبقى فى قلبه وعقله سوى سلطان القبيلة يبهره ويثيـره ويوجهه إلى حيث يقول ويفعل. يقول فى ذلك معاوية بن مالك :

إنى امرؤ من عصبة مشهورة ∴ حشـد لهـم مجـد أشـم تليـد

ألفوا أبـاهم سـيدا وأعـانهم ∴ كـرم وأعمـام لهـم وجـدود

إذ كـل حـى نابـت بأرومـة ∴ نبت العضاة فمـا جـد وكسـيد

نعطى العشيرة حقها وحقيقهـا ∴ فيهـا ونغفـر ذنبهـا ونسـود

وإذا تحملنـا العشـير ثقلهـا ∴ قمنا بـه وإذا تعـود نعـود[١]

وهذه العصبية التى تسيطر على الشاعر، واحتفائه بقبيلته تجعله شديد الفخر بقومه، يصور مهابتهم وقوتهم فى الحرب وفضائلهم فـى السلم، وتفوقهم فى الخطابة والبيان، وأن الأبطال يخرجون منهم جيلا بعد جيل ، يقول فى ذلك عامر المحاربى:

أولئك قومى إن يلـذ ببيـوتهم ∴ أخو حدث يـوم فلـن يتهضـما

(١) المفضليات ص٣٥٥ .

وكم فيهم من سيد ذى مهابة ∴ يهاب إذا ما رائد الحرب أضرما

لنا العزة القعساء تحتطم العدا ∴ بها ثم نستعصى بها أن تحطما

هم يطدون الأرض لولاهم ارتمت ∴ بمن فوقها من ذى بيان وأعجما

وهم يدعون القوم فى كل موطن ∴ بكل خطيب يترك القوم كظما

يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنا ∴ إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما

وكنا نجوما كلما انقض كوكب ∴ بدا زاهر منهن ليس بأقتما

ألا أيها المستخبرى ما سألتنى ∴ بأيامنا فى الحرب إلا لتعلما

فما يستطيع الناس عقدا نشده ∴ وننقضه منهم وإن كان مبرما[١]

وأكثر ما يتحدث به الشاعر عن قبيلته يكون بضمير الجماعة وهو يفخر بقبيلته ويتغنى بأمجادها وانتصاراتها وقوة رجالها وعظمة الآباء والأجداد من شيوخها ومحاربيها وأبطالها الشجعان، الذين يؤثرون التضحية بأنفسهم وأموالهم فى سبيل عزتهم وكرامتهم وحماية الأرض والعرض، وأحيانا يبالغون مبالغة شديدة فى وصف قوتهم

(١) المفضليات ص٣١٨ .

وسطوتهم لتخويف المعادين لهم كما نرى فى معلقة عمرو بن كلثـــوم الذى يقول مبالغا فى وصف سطوة قبيلة تغلب:

متى ننقل إلـــى قـــوم رحانـــا ∴ يكونوا فى اللقـــاء لهـــا طمينـــا

يكـــون ثفالهـــا شـــرقى نجـــد ∴ ولهوتهـــا قضـــاعة أجمعينـــا

نطاعن ما تراخى الناس عنـــا ∴ ونضرب بالســـيوف إذا غشـــينا

بسمر من قنـــا الخطـــى لـــدن ∴ ذوابـــل أو ببـــيض يعتلينـــا

نشق بها رءوس القـــوم شـــقا ∴ ونخليهـــا الرقـــاب لتختلينـــا[١]

بل إن عمرو بن كلثوم يبالغ فى الاعتداد بنفسه وبقبيلته مركـــزا على ضمير الجماعة فى قوله:

وقد علم القبائـــل مـــن معـــد ∴ إذا قبـــب بأبطحهـــا بنينـــا

بأنـــا المطعمـــون إذا قـــدرنا ∴ وأنـــا المهلكـــون إذا ابتلينـــا

وأنـــا المـــانعون لمـــا أردنـــا ∴ وأنـــا النـــازلون بحيـــث شـــينا

---

(١) شرح المعلقات السبع صـــ١٦٥ وما بعدها .

وأنـــا التـــاركون إذا ســـخطنا ∴ وأنـــا الآخـــذون إذا رضـــينا

وأنـــا العاصـــمون إذا أطعنـــا ∴ وأنـــا العـــازمون إذا عصـــينا

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ∴ ويشرب غيرنـــا كـــدرا وطينـــا

ألا أبلـــغ بنـــى الطمـــاح عنـــا ∴ ودعميـــا فكيـــف وجـــدتمونا

إذا ما الملك سام الناس خسفا ∴ أبينـــا أن نقـــر الـــذل فينـــا

ملأنا البر حتـــى ضـــاق عنـــا ∴ ومـــاء البحـــر نملـــؤه ســـفينا

إذا بلـــغ الفطـــام لنـــا صـــبى ∴ تخر لـــه الجبـــابر ســـاجدينا[١]

ولما كانت الحروب سجالا بين العرب فى الجاهلية، كان الشعراء مع أقوامهم يحاربون ويسجلون الفخار بالانتصار، ويسترســـلون فـــى وصف المعارك وتلاحمها وثبات أبطالها، ونعت أدواتها، كما يصفون الدماء التى سالت والرءوس التى قطعت، ويعيرون الأعداء بالهزيمة، ويظهرون الشماتة بهم ٠

(١) المصدر نفسه ص١٨٧ وما بعدها ٠

وفى حالة انهزام القبيلة فإن الشعراء يواسونهم، ويستنهضون هممهم ويشدون أزرهم، ويعللون لهزيمتهم ويثبتون بطولتهم ويرفعون معنوياتهم حتى يتجاوزوا الهزيمة ويأخذوا ثأرهم من أعدائهم.

فهذا "أزهر بن هلال التميمى" يعتذر عن هزيمة قومه واضطرارهم للفرار الذى لا يرتضيه العربى لأنه عار على صاحبه، ولكن الشاعر يعلل لأسباب هذا الفرار، بموت رجاله، وإصابة فرسه إصابات دامية قاتلة، بل إن الشاعر نفسه قد أصيب فى هذه المعركة إصابات أضعفت قواه، ورغم ذلك كله لم يقصر فى القتال حتى النهاية، يقول "أزهر" معتذرا:

أعاتك ما وليت حتى تبددت .:. رجالى وحتى لم أجد متقدما

وحتى رأيت الورد يدمى لبانه .:. وقد هزه الأبطال وانتعل الدما

أعاتك إنى لم ألم فى قتالهم .:. وقد عض سيفى كبشهم ثم صمما

أعاتك أفنانى السلاح ومن يطل .:. مقارعة الأبطال يرجع مكلما

ولم يكن الشاعر الجاهلى صدى لقبيلته فى الحرب فقط، يصف البطولات، ويفخر بالانتصارات، ويشمت بأعدائه المنهزمين، ويعبر

بضمير الجماعة عن نبض القبيلة فى الحرب . وإنما كان أيضا لسان حال جماعته فى السلم، وذلك لأن العقلاء منهم وهم كثير قد أدركوا بشاعة الحروب وخراب الديار بسببها، ولما كانت الحروب لا تنقطع والغارات مستمرة بين القبائل، كان الموت آخذا بناصية الأبطال، والحزن مخيما على كل بيت نتيجة الحروب المدمرة ولذلك كانت الدعوة للسلام والوئام منتشرة من كثير من الشعراء فى الجاهلية من مثل زهير بن أبى سلمى الذى نفر من آثار الحروب البشعة. ومدح الرجلين العظيمين اللذين تحملا ديات القتلى من مالهما الخاص حتى تضع الحرب أوزارها بين القبيلتين المتصارعتين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء، وفى هذا يقول زهير مادحا هرم بن سنان والحارث بن عوف المرى وهما من سادات ذبيان لأنهما تداركا الفريقين المتحاربين وبذلا مالهما للقضاء على الصراعات المستمرة بينهما :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ∴ رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما ∴ على كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبسا وذبيان بعدما ∴ تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعا ∴ بمال ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن ∴ بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين فى عليا معد هديتما ∴ ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

ثم ينفر من الحروب وويلاتها وما تجره على الناس من الخراب والدمار فيقول:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ∴ وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ∴ وتضر إذا ضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها ∴ وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ∴ كأحمر عاد ثم ترضع فتعظم

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها ∴ قرى بالعراق من قفيز ودرهم[1]

ويقول الأعشى داعيا إلى السلام ومنفرا من الحرب:

بنى عمنا لا تبعثوا الحرب بيننا ∴ كرد رجيع الرفض وارموا إلى السلم

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص١٠٦ وما بعدها .

وكونوا كما كنا نكون وحافظوا ∴ علينا كما كنا نحافظ عن رهــم

نساء موالينا البــواكى وأنــتم ∴ مددتم بأيدينا حلاف بنـــى غــنم

فلاتكسروا أرماحهم فى صدوركم ∴ فتغشمكم إن الرماح من الغشم[1]

ويصف الآثار الوخيمة المترتبة على الحرب بالنسبة للمتقــاتلين مؤكدا دعوة السلام فيقول:

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو ترى ∴ برأى رشيد أو يؤول إلى غــرم

وقلت له دع عنك بكرا وحربها ∴ ولا تركبن منها على مركب وخم

ومهلا عن الحرب التى لا أديمها ∴ صحيح ولا تنفك تأتى على سقم

فإن يظفر الحزب الذى أنت فــيهم ∴ وآبوا بدهم من سباء ومن غنم

فلابد من قتلى وتملــك فــيهم ∴ وإلا فجرح ليس يكنى عن العظم

دعانى يشب الحرب بينى وبينه ∴ فقلت له لا بل هلم إلــى الســلم

فلما أبى أرسلت فضلة ثوبــه ∴ إليه فلم يرجع بعــزم ولا حــزم

---

(١) ديوان الأعشى ص٣٤١ تحقيق/ محمد محمد حسين. بيروت ١٩٦٩م.

وأمهلته حتى رمـــانى بحرهــا ∴ تغلغل من عنى غوى ومن إثــم

فلما رمانيها رميــت ســواده ∴ ولابد أن ترمى سواد الذى يرمى

فبتنا على لحم من القوم غــودرت ∴ أسنتنا فيه وبـــاتوا علـــى لحــم

وأصبح يبكى من بنين وإخـــوة ∴ حسان الوجوه طيبى الجسم والنسم

ونحن نبكـــى إخـــوة وبنـــيهم ∴ وليس سواء مثل حق على ظلــم[1]

والشاعر الجاهلى لا يتوقف حديثه عن نفســه وقبيلتــه بضــمير الجماعة عند الفخر بأبطال قبيلته وتشــجيعهم علــى القتــال والفخــر بالأحساب والأنساب وكيف حاربوا أعداءهم وكيف انتصروا علــيهم، وأيضا لا يتوقف حديثه عند الدعوة إلى السلم والتنفير مــن الحــرب وويلاتها .

وإنما يعدد الشاعر مآثرهم ومفاخرهم ومواقف المروءة والشهامة ويتحدث عن عفتهم، وحفظهم للعهود، والكرم الذى يجعل العربى يجود بكل ما يملك،وأيضا صيانة أعراضهم، والوفاء بأموالهم وأرواحهــم، ويفخر كذلك بالوحدة والتلاحم بين أفراد القبيلة، وأن قومه إذا حــدث

---

(١) ديوان الحماسة للبحترى ص٧٣ المطبعة الرحمانية ــ القاهرة ١٩٢٩م.

جدب فإنهم يحافظون على بيوتهم ولا يتركون عشـــائرهم ويرحلـــون طلبا للكلأ والخصب، يقول فى ذلك الحادرة (قطبة بن محصن):

إنا نعف فـــلا نريـــب حليفنـــا ∴ ونكف شح نفوسنا فى المطمـــع

ونقى بـــآمن مالنـــا أحســـابنا ∴ ونجر فى الهيجا الرماح وندعى

ونخوض غمرة كل يوم كريهة ∴ تردى النفوس وغنمها للأشـــجع

ونقيم فى دار الحفـــاظ بيوتنـــا ∴ زمنا، ويظعن غيرنـــا للأمـــرع

ومحل مجـــد لا يســـرح أهلـــه ∴ يوم الإقامة والحلول لمرتـــع[1]

وهكذا كان الشاعر الجاهلى يسيطر عليه ضمير الجماعة عقـــلا وعاطفة فهو واحد من كبار رجالها الأفذاذ الذى يفرحه ما يفرح القبيلة ويحزنه ما يحزن القبيلة، إذ إن انتماءه إليهـــا انتمـــاء قـــوى يفـــوق الوصف، لدرجة أنه إذا اختلف مع قبيلته فى الرأى يظل على انتمائـــه وطاعته ووفائه لها، فلا يخرج عن منهجها والتزامه لها وأدائه لحقها، وفى ذلك يقول الأعشى:

فإن أنأ عنكم لا أصالح عدوكم ∴ ولا أعطـــه إلا جـــدالا ومحربـــا

---

(١) ديوان الحادرة صـــ٣١٢ تحقيق ناصر الدين الأسد ٠

وإن أدن منكم لا أكن ذا تميمة ∴ يرى بينكم منها الأجالـد مثقبـا

سينبح كلبى جهده من ورائكم ∴ وأغنى عيالى عـنكم أن أؤنبـا

وأدفع عن أعراضكم وأعيـركم ∴ لسانا كمقراض الخفاجى ملحبـا[(١)]

فهو هنا كما هو واضح فى شعره يحافظ على انتمائه لقبيلته، فإذا اختلف مع رجالها فى أمر من الأمور فلا يعنى ذلك أن يخرج علـى طبيعة القبيلة من التماسك والترابط الشديد الـذى يربطـه بهـم، ولا يصالح عدوهم، بل بالعكس يظل حربا على أعدائه وأعداء قبيلتـه وإن ظل على وفاقه مع قبيلته فإنه لا ينهش لها عرضا ولا يظهر لها سيئة، ولا ينال من شرفها وكرامتها ٠

وهكذا كان الشاعر الجاهلى تربطه بقبيلته روابط العصبية القبلية الشديدة، وإذا نظم شعرا فغالبا يعبر به عن شرف قبيلتـه وأمجادهـا ويفخر بأحسابها وأنسابها وما يتصف به رجالها من الشجاعة والإقدام وإباء الضيم، ومن الشرف والكرامة والمروءة والجود، ومـن جميـع الصفات الكريمة، لدرجة أن بعض الأدباء والنقاد لا يرى فـى شـعر الشاعر الجاهلى إلا ضمير الجماعة، حيث يعبر الشاعر بلسـانه عـن

---

(١) ديوان الأعشى ص١٥٢، ١٥٣ ٠

ضمير جماعته وهو واحد منهم لا ينفصل عنهم فى خير أو شـر، ولا يرى له ذاتية واضحة فى شعره. يقول فى ذلك د/ محمـد مصـطفى هدارة: "ونلاحظ غياب ذاتية الشاعر إلى حد بعيد، حتـى إننـا نجـده يستخدم ضمير الجمع للدلالة على فنائه فى القبيلـة واتحـاده الكامـل معها، فإذا تكلم بضمير المفرد ــ ونادرا ما يفعل ذلـك ــ لـم يكـن صادرا إلا عن هذا الشعور الجمعى الذى يأمن فى ظلالـه، ويواجـه المجتمع به"(١)٠

والعرف السائد بين العرب آنذاك هو: أن النظـام القبلـى ومـا يصحبه من ترابط وتلاحم وتماسك وانتماء شديد بـين أفـراد القبيلـة ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية فى عصر "اشـتعلت فيـه جذوة العصبية القبلية، والتشاجر الدائم بـين قبيلـة وأخـرى لأقـل الأسباب، كما كان للتفاخر بالأنساب والتباهى بالأحساب دور كبير فى إشعال نار تلك الحروب"(٢)٠

وقد شجع على هذه العصبية والتماسك الاجتماعى بـين الفـرد وقبيلته ما يسمى بـ(النفع المتبادل) فعلى قدر انتمائه لقبيلته وخضوعه

---

(١) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القـرن الأول الهجـرى ــ النشـأة والتطور ص٦٠ دار المعارف طبعة أولى ١٩٨١م٠

(٢) الأدب العربى فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام د/ زكريا صيام صـ٧ طبعة بيروت٠

لقوانينها ولعاداتها وتقاليدها وارتباطه الشديد بها والتحيز لها، وتعبيره عن كل ما يهمها ويرفع قدرها بين القبائل على قدر ما كان من عطائها له، وحمايتها إياه ووقوفها إلى جانبه فى الأزمات، وما يصيبه يصيب أفراد القبيلة جميعا، وهذا ما عبر عنه دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ∴ غويت وإن ترشد غزية أرشد

وهذا كله جعل بعض النقاد لا يرى فى الشعر الجاهلى ذاتية الشاعر وإنما يرى فيه ضمير الجماعة كما يقول د/ شكرى فيصل : "بأن الشاعر الجاهلى أهدر ذاتيته، وصار مجرد بوق لقبيلته"[١].

وكما فى رأى الدكتور/ محمد مصطفى هدارة السابق ، ويرى بعضهم أن الشعر الجاهلى قد: "اختفت منه النزعة الذاتية لتحل محلها النزعة الجماعية، وذابت فيه الشخصية الفردية لتظهر بدلا منها الشخصية القبلية، وظهر ضمير الجماعة (نحن) مكان ضمير الفرد (أنا)، وأصبحت الألوان التى يرسم بها الشاعر لوحاته الفنية مشتقة من حياة قبيلته، وليست صادرة عن نفسه، وأصبحت ريشته التى يلون بها لوحاته ملكا للقبيلة كلها، وليست ملكا له وحده"[٢].

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص٢٣ مطبعة دمشق ١٩٦٤م.
(٢) الروائع من الأدب العربى ــ العصر الجاهلى د/سيد حنفى وآخرين ٢٣/١، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

بل إن بعض النقاد قد عد ذوبان الوجدان الفردى فى وجدان الجماعة فى الشعر الجاهلى عيبا من العيوب، ونقصا من النقائص حيث يقول: "والنقص الثانى فى الشعر الجاهلى هو أنه شعر جماعة، وليس شعرا شخصيا، فهو يعبر عن عاطفة جماعية ، وليست عاطفته هذه، وإن خيل إليه أنها عاطفته الشخصية هى فى حقيقتها عاطفة جماعية محضة، فهى ليست شعوره هو من حيث أنه فرد إنسانى مستقل بذاته، بل هى شعوره هو من حيث إنه جزء من وحدة عامة هى وحدة القبيلة، والقيم التى يعبر عنها، وإن كان يعبر عنها لأنه لا يؤمن بها، فهو لم يؤمن بها نتيجة تفكير خاص فى الحياة، وإنما آمن بها لأنها القيم السائدة فى مجتمعه. فهو لم يصل بعد إلى الطور الذى يستطيع فيه أن يكون لنفسه حكما أخلاقيا وشخصيا"(١).

ويعلل الدكتور/ حسين الحاج حسن لارتفاع صوت القبيلة فى شعر الشاعر الجاهلى هو أن : "القبيلة كانت فى حاجة إلى قيادة وجدانية تبث فى أبنائها روح المروءة ، والنجدة، وإباء الضيم، وتحدوهم فى صراعهم من أجل الوجود والبقاء"(٢).

---

(١) ثقافة الناقد الأدبى د/ محمد النويهى ص٢٦٥ طبعة بيروت ١٩٦٩م.
(٢) أدب العرب فى عصر الجاهلية ص١٦٠ مطبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت.

وهل كان هناك أقدر على ذلك من الشاعر الجاهلى ابـن قبيلتـه الذى يحس بإحساسها ويتحرك فيه نبضها، ودائما يعلى صوتها ويرفع قدرها ويتغنى بأمجادها ومآثرها بين القبائل، وذلك لأن شاعر القبيلـة "كان يعد نفسه جزءا لا يتجزأ من المجتمع الذى ينتسب إليه، مكـرس حياته وموهبته الفنية من أجل قبيلته وشمائلها التى يتمسك بهـا، مـع إيمانه التام بكل ما يخلعه على قبيلته من هذه الصفات، لأنه فرد مـن أفرادها، يعود عليه ما يعود عليهم، فهو يرفض أن يتحدث عن نفسـه كفرد متميز، وكيف يتحدث عن نفسه؟ وقد امتزج بقومـه وعشـيرته، وذاب صوته فى أصواتهم، وراح يرى بعيـونهم ويضـرب بـأكفهم، وينطق بألسنتهم"[1].

إلى غير ذلك من الآراء النقدية ــ وهى كثيـر ــ التـى يـرى أصحابها أن الشاعر الجاهلى جزء لا يتجزأ من نبض قبيلته وإحساسها المشترك، وأن وظيفته فى القبيلة هى التعبير عن مشاعر القبيلة فـى السراء والضراء، وأن القبيلة لا شأن لها إلا بشاعرها الذى هو نبضها وإحساسها بل هو الذى تتعلق به الآمال فى إعلاء شأنها وقدرها بـين القبائل ، ومن ثم ذابت ذاتيته فى ذاتية القبيلة، ولا شأن له منفردا فـى

---

(١) النزعة الذاتية فى الشعر الجاهلى د/ حنفى محمـود مصـطفى ص٢٨٣ ، مجلة كلية اللغة العربية بجرجا العدد الثامن ٢٠٠٤م.

شعره إلا من خلال قبيلته التى هو واحد من أبنائها وفرد من أفرادهـــا يهمه ما يهمها، ويشغله ما يشغل جميع أفرادها.

وقد رأينا فى دواوين شعراء القبائل عددا غير قليل من القصـــائد والمقطعات الشعرية التى خلت من الحديث المباشـــر عـــن الأحـــوال الفردية والمشاعر الذاتية ، وإنما هو حـــديث عـــن القبيلـــة وشـــئونها المختلفة بلسان الشاعر ووجدانه الذى هو وجدان الجماعة وإحســـاس جميع أفرادها، وهذا هو الذى جعل كثيرا من النقـــاد يقولـــون: "بـــأن الشعر الجاهلى قد اختفت منه النزعة الذاتية، وحلت محلهـــا النزعـــة الجماعية، وذابت منه الشخصية الفردية، وظهرت بدلا منها الشخصية القبلية"[1].

(١) المرجع نفسه ص٢٨٦ .

ثانيا: ضمير الذات:

تحدثنا عن الشعر الجاهلى قبل ذلك وذكرنا نماذج منه يعبر فيها الشعراء بضمير الجماعة التى هو منها، كما ذكرنا بعضا من آراء النقاد الذين يرون أن ذاتية الشاعر الجاهلى قد ذابت وتلاشت فى ضمير جماعته وقبيلته، وليست هنا شخصية فردية للشاعر أو نزعة ذاتية، وقد عللوا لذلك بأنه رجل القبيلة الأول بعد شيخها إن لم يكن هو الأول، المسموع الكلمة ، وصاحب الأمر والنهى فى قبيلته الذى يحمل همومها ويفكر ويدبر لها، والناطق باسمها، والمعبر عن رأيها، والذى يحس بإحساس كل فرد فيها ويشعر بمشاعره، وهذا واضح معنى ولفظا فى أشعارهم، كما أنه فى حاجة ماسة إلى حماية القبيلة له والوقوف إلى جانبه فى ملماته حتى لا يمسه مكروه أو ينزل به أذى، ولذلك كان الشاعر القبلى جزءا لا يتجزأ من قبيلته انتماء أولا، ومنافع متبادلة ثانيا . هذا هو الذى جعل النقاد يقولون: إن شخصية الشاعر القبلى هى جزء لا يتجزأ من شخصية أفراد قبيلته، ورأيه هو رأيهم، وعبارته فى شعره هى إفصاح عن ما تكنه وتحسه وتختلجه ضمائر أفراد جماعته مجتمعين.

ولكن هؤلاء النقاد لو استقرءوا الشعر الجاهلى جيـدا، وتـأملوه بتأن ونظروا فى كل موضوعاته، كما نظروا فـى أحـوال الشـعراء النفسية والاجتماعية، وظروفهم التى عاشوها، فى رحـاب القبيلـة أو خارجها، وبعض الموضوعات الخاصة بكل شاعر، ومـا فيهـا مـن مشاعر وأحاسيس خاصة بصاحبها لوجدوا أن الشاعر الجـاهلى وإن ذابت شخصيته وضميره فى شخصية جماعته وضـميرها لظـروف تحدثنا وتحدث النقاد عنهـا، إلا أنهـم قـد وضـحت ذاتيـاتهم فـى موضوعات كثيرة خاصة بهم. فكما كان هناك شعر يعبر عن ضـمير الجماعة كان هناك شعر ذاتى : "يصور نفسية الفرد وما يختلجه مـن عواطف وأحاسيس، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر، أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثى، أو حين يعتـذر ويعاتـب، أو حـين يصف أى شىء مما ينبث حوله فى جزيرته"[١].

وما يراه د/ شوقى ضيف من أن الشعر الغنائى هو شعر ذاتـى يعبر عن عواطف الشاعر الذاتية وخوالج نفسه، وأن الشعر الجـاهلى كان كذلك، يراه أيضا د/ حسن جاد، ود/ محمد عبـدالمنعم خفـاجى حيث يقولان: "إن الأدب الذاتى هو الذى يعبر فيه الأديب عن خواطره

---

(١) العصر الجاهلى صـ١٩٠ د/شـوقى ضـيف ــ دار المعـارف الطبعـة التاسعة.

ومشاعره، وآرائه، وأحاسيسه، فالشعر الغنائى من الأدب الذاتى، لأن الشاعر يتغنى فيه بعواطفه الذاتية، وخوالجه النفسية، وآماله"[١].

ومعنى ذلك أن الشعر الذى يصور نفسية الشاعر، ويعبر عن عواطفه الفردية، ويفصح عن أحاسيسه ومشاعره وخواطره وآماله وآلامه وآرائه الخاصة به، يعد شعرا ذاتيا.

بل إن بعض النقاد قسم النزعة الذاتية إلى: نزعة ذاتية شخصية تعبر عما يجيش به الصدر من مشاعر فردية خاصة، ونزعة ذاتية موضوعية تعبر عن المواقف الذاتية لبعض الشعراء تجاه قضايا مجتمعهم القبلى، كقضية الكرم، والسخاء والبذل، وكالعفة والوفاء، وكحماية الجار وغير ذلك من المواقف والأحداث التى تشعرنا بتناغم الحس الفردى مع المطالب المتأصلة فى المجتمع القبلى[٢].

ويمكن أن ندرك الذاتية الفردية فى بعض موضوعات الشعر الجاهلى كالرثاء والهجاء الشخصى وفى الوصف والتأمل فى الكون والحياة، وهناك من الشعراء من لا تربطهم بقبائلهم سوى المعاداة لها، والضغينة والحقد عليها ، وهؤلاء هم الشعراء الصعاليك الذين خلعتهم

---

(١) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام ص٢٢ المطبعة الفاروقية ١٩٥١م.
(٢) النزعة الذاتية فى الشعر الجاهلى ص٢٧٢ (بتصرف) د/حنفى محمود مصطفى – مجلة كلية اللغة العربية بجرجا ٢٠٠٤م.

قبائلهم وأهدرت دماءهم، وأعلنت على الملأ براءتها منهم، وهؤلاء لم يكن ولاؤهم لقبائلهم بعد خلعهم، ولكن كان ولاؤهم لأنفسهم ولجماعتهم من المنبوذين الصعاليك. ولذلك كانت النزعة الغالبة عليهم فى شعرهم ومشاعرهم هى النزعة الذاتية الفردية. فى كثير من أشعارهم. وغالبا لا تفرز ذاتية الصعلوك إلا المرارة والحقد على قبيلته التى خلعته وتخلت عنه وعن حمايتها له، ولا يكون ذلك من القبيلة إلا "إذا أجرم هذا الشخص، أو عمل عملا ينافى شرفه أو شرف قبيلته، واستمر فى غيه لا يسمع نصائح أهله وعشيرته، كاسرا أعراف آله، وقبيلته، وعند ذلك يكون قد فقد عصبية أهله وقبيلته له، وهام على وجهه طريدا، ويقال للرجل الذى تغضب عليه قبيلته وتحرمه من عطفها وعصبيتها له (الخليع) ، فقد يصبح وجود هذا الخليع فى قبيلته "وصمة فى جبينها، وسبة فى مجدها وشرفها، وحطا من قدرها بين القبائل، فترى أنها أمام عضو فاسد لا يرجى إصلاحه، وضرره أكثر من نفعه، وتتبرأ من نسبته إليها حرصا على سمعتها وإبقاء على كرامة المجموع من أن يسىء إليها فرد فتخلعه"[١].

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام د/ جواد على ١/ ٤١٠، طبعة بيروت ١٩٧٧م٠

وهذه الأسباب التى جعلت بعض القبائل تخلع بعض أفرادها، ليهيموا على وجوههم فى الصحراء الواسعة المترامية الأطراف، هم وأولادهم ليس لهم مأوى ولا مرجعية ولا من يحميهم ويأخذ بأيديهم، بل إنهم مهدرون الدماء لا دية لهم إذا قتلوا، هذه الأمور الناتجة عن تخلى قبائلهم عنهم وطردهم لهم وعدم اعترافهم بهم، كل هذه الأمور وغيرها ولدت الكراهية والحقد والبغضاء وقسوة القلوب بعنف وشدة فى نفوس هذه الفئة التى سميت بالصعاليك، وهم عدد غير قليل ، منهم: الشنفرى، وعروة بن الورد، وتأبط شرا .. وغيرهم وكان الفقر الشديد والجوع والإحساس بالظلم والضياع يزيد من قسوة قلوبهم على قبائلهم، بل إن هذه الأمور جمعت بينهم ضد قبائلهم، فهل الضمير المعبر عن خواطره وإحساساته والحالة هكذا يكون ضمير الجماعة أى الشاعر وقبيلته؟ كلا .

فالشاعر الصعلوك ــ وهذه حالته ــ يعبر عن ذاته وحالته ومآسيه الحياتية، وعن مغامراته فى الصحراء وإلفه للحيوانات الأليفة وغير الأليفة، كما هو واضح فى لامية الشنفرى التى بلغت من الشهرة معنى ولفظا ونظما وفنا وقوة أداء، أنها نسبت للعرب فسميت (لامية العرب) دون النظر لصاحبها المخلوع، وكانت النبرة الواضحة فى

القصيدة من أولها إلى آخرها هي التعبير عن ذات الشنفرى وشخصيته وشجاعته وقوته وكرم أخلاقه، وسرعته إذ كان يسابق الحيوانات فى الصحراء .. وكثيرا ما كان يصف الصحراء والحيوانات •

والقصيدة عبارة عن لوحات فنية ، كل لوحة منها تعبر عن ذاتية الشاعر ومشاعره، وقد خرجت من وجدانه هو دون سواه، من أول مطلع القصيدة:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ∴ فإنى إلى قوم سواكم لأميل

فقد حمت الحاجات والليل مقمر ∴ وشدت لطيات مطايا وأرحل

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ∴ وفيها لمن خاف القلى متعزل

لعمرك مافى الأرض ضيق على امرئ ∴ سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

وبعد هذه المقدمة التى أفصح فيها لقومه أنه قد نوى الرحيل عنهم وأنهم لابد أن يدبروا أمرهم من غيره، وأن أرض الله واسعة وفيها منأى للكريم عن الأذى، ليحفظ كرامته وينجو بنفسه •

ثم يتحدث عن أهله الجدد فى الصحراء الموحشة وهـم: السـيد العملس أى الذئب القوى السريع، والأرقط الزهلول، أى النمر الأملس، والجيأل العرفاء، أى الضبع طويل العنق ، ويقصر الأهلية عليهم دون سواء لصفاتهم الكريمة التى تتوافر فيهم ولا تتوافر فى بنى الإنسـان، فلا السر ذائع لديهم ، ولا الجانى يخذل بجريرته، وكلهم أبطال بواسل غير أنه أشجع وأسرع منهم، وكان أكرمهم وأعفهم، وآخر من يمد يده إلى الزاد عند تناول الطعام، وكان ذلك تفضلا منه وكرما (إذ أجشـع القوم أعجل) كما يقول:

ولى دونكم أهلون سيد عملس ∴ وأرقط زهلول وعرفـاء جيـأل

هم الأهل لا مستودع السر ذائع ∴ لديهم ولا الجانى بما جر يخـذل

وكل أبى باسـل غيـر أننـى ∴ إذا عرضت أولى الطرائد أبسـل

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكـن ∴ بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجـل

وما ذاك إلا بسطة عن تفضـل ∴ عليهم وكان الأفضل المتفضـل

ثم يتحدث عن قوته وعناصر أسلحته بأنه يملك قلبا قويا مشـيعا أى كأن معه شيعة ينصرونه ويؤازرونه، ومعه سيفه الصقيل، وقوسه

طويلة العنق، المرصعة بالزينة والتى تصدر صوتا قويا حين يوجهها إلى عدوه، يشبه صوت الناقة المرزأة فى صغيرها.

وإنى كفانى فقد من ليس جازيا ∴ بحسنى ولا فى قربه متعلل

ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع ∴ وأبيض إصليت وصفراء عيطل

هتوف من الملس المتون يزينها ∴ رصائع قد نيطت إليها ومحمل

إذا زل عنها السهم حنت كأنها ∴ مرزأة عجلى ترن وتعول

وبعد أن تحدث الشنفرى عن قوته وشجاعته وكرم أخلاقه وعن أصحابه الأقوياء: قلبه القوى وسيفه الصقيل، وقوسه المرصعة بالوشى والزينة، والتى تصدر صوتا حين انطلاقها يشبه صوت الناقة الثكلى.

بعد ذلك ينفى عن نفسه الصفات السلبية التى لا ينبغى أن تكون فى الرجال، فهو لا يشبه الراعى الأحمق الذى لا يحسن غذاء سوامه ولا الجبان، ولا السيء الخلق، ولا الملازم لامرأته، المتغزل فيها والمعتمد على مشورتها ورأيها، وليس هو بالخائف المطرب، ولا التافه الذى لا خير فيه، ولا المقيم فى داره لا يبرحها، والداهن الذى يتزين بالدهن ويتكحل بالكحل كأنه من المخنثين، وليس أيضا خالفا أى

أعزل من السلاح، ولا متحيرا ضالا عن الطريق أثناء سيره في الصحراء .. وغير ذلك من الصفات التى نفاها عن نفسه حيث يقول:

ولست بمهياف يعشى سوامه ∴ مجدعة سقبانها وهى بهل

ولا جبأ أكهى مرب بعرسه ∴ يطالعها فى شأنه كيف يفعل

ولا خرق هيق كأن فؤاده ∴ يظل به المكاء يعلو ويسفل

ولا خالف دارية متغزل ∴ يروح ويغدو داهنا يتكحل

ولست بعل شره دون خيره ∴ ألف إذا ما رعته اهتاج أعزل

ولست بمحيار الظلام إذا نتحت ∴ هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل[1]

إلى غير ذلك من الصفات السلبية التى نفاها عن نفسه وأثبت غيرها من الصفات الإيجابية التى توافرت فيه، وهو فى حديثه عن هذه الصفات أو تلك إنما يتحدث عن ذاته هو بضمير المتكلم الفرد ، وليس بضمير الجماعة، لأنه لم يعد له جماعة يحس بها وتحس هى به، ينطق باسمها ويعبر عن رأيها، ويشكل وجدانه من خلالها.

(١) ديوان الشنفرى، إعداد طلال حرب ص٥٦ مطبعة صادر بيروت.

وفى قصيدته التائية يتحدث الشنفرى عن نفسه وعن جماعته ، لا من بنى سلامان بن مفرج تلك القبيلة التى كان أسيرا فيهـا وغضـب أهلها عليه وطردوه بعد إزائه فيها، ولكن عن جماعته من الصـعاليك الفقراء الذين خلعتهم قبائلهم، فتكونت روابط الصداقة بينهم والعـداوة لقبائلهم.

فهو يتحدث بضمير جماعته من الخلعاء الصعاليك، وكأنه يتحدث عن ذاته هو لأن الثأر هنا ثأره هو من بنى سلامان بن مفرج الـذين أساءوا إليه وكان منهم حرام بن جابر الذى قتل والد الشـنفرى، فـرد إليهم الشنفرى قرضهم الذى قدموه حين قتل حراما هذا ثأرا لأبيه، كما شفى غليله بقتل رجلين أيضا ذكرهما هنا وهما عبدالله وعوف فيقول:

جزينا سلامان بن مفرج قرضـها ∴ بما قـدمت أيـديهم وأزلـت

وهنىء بى قوم وما إن هنأتهم ∴ وأصبحت فى قوم وليسوا بمنيتـى

شفينا بعبـدالله بعـض غليلنـا ∴ وعوف لدى المعدى أوان استهلت[1]

(١) المفضليات صـ١٠٨ دار المعارف الطبعة ٧ تحقيق/ أحمد محمد شـاكر ، وعبدالسلام هارون.

ثم يتحدث عن نفسه خاصة بأنه حلو لأصدقائه مر على أعدائـــه، ومن قصد الرجوع إليه ومسرته يرجع إليه الشنفرى أيضـــا ويقصـــد مسرته والقرب منه، وهذه هى أخلاق الشجعان .

والواضح من شعره هنا أنه لا يفخر ولا يتحدث عن أمجاد القبيلة ولا عن الحسب والنسب لأنه يخلو من ذلك ، وكان شعره ذاتيا يعبـــر فيه عن مغامراته وأحزانه وعن ثأره من قتلة أبيه وممن خلعوه مـــن القبيلة التى تربى فيها وعاش فيها حياته الأولى، وعن أصـــحابه مـــن اللصوص الصعاليك ومن الحيوانات الأليفة وغيـــر الأليفـــة بضـــمير الفرد، والوجدان الفردى الشخصى.

وهذا شاعر آخر من الشعراء الصعاليك هو الشاعر: عروة بـــن الورد العبسى، الذى لقب بعروة الصعاليك، لأنه كان يجمـــع الفقـــراء والضعاف وكبار السن والمحتاجين من عشيرته ويقوم بأمرهم وينفـــق عليهم مما يحصله من غاراته إذا أخفقوا هم وقعدت بهم الحاجة ولـــم يستطيعوا القيام بأمرهم، وكان لا يغزو ولا ينهـــب ولا يســـطو علـــى القبائل إلا لحاجة نفسه وأهله، وحاجة الفقراء والمرضى والضعفاء من قبيلته، يقول عنه د/ شوقى ضيف : "لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء ، فقبيلته لم تخلعه، بل ظل ينزل فيهـــا

مرموق الجانب لسيرة كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعـــدهم، إذ اتخذ من صعلكته بابا من أبواب المروءة والتعاون الاجتمـــاعى بينـــه وبين فقراء قبيلته وضعفائها، ومن أجل ذلك لقب عـــروة الصـــعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غـــزواتهم وضـــاقت بهـــم الدنيا"[١].

ثم يقول : "وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة، فهو لا يغـــزو للغزو والنهب والسلب كالشنفرى وتأبط شرا، وإنما يغزو ليعين الهلاك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته ، والطريف أنه لم يكـــن يغير على كريم يبذل ماله للناس، بل كان يتخير لغارته مـــن عرفـــوا بالشح والبخل، ومن لا يمد يد العون للمحتاج فى قبائلهم ، فلا يرعون ضعفا ولا قرابة ولا حقا من حقوق أقوامهم ، وبـــذلك كلـــه تصـــبح الصعلكة عنده ضربا من ضروب النبل الخلقى .. وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشىء على من يرعاهم من صعاليكه، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف ، وهو يضرب بـــذلك مثلا رفيعا فى الرحمة والشفقة والبذل والإيثار"[٢].

---

(١) العصر الجاهلى ص٣٨٣ ط٩ دار المعارف.
(٢) المرجع نفسه ص٣٨٣، ٣٨٤ .

ويقول صاحب الأغانى: كان عروة بن الورد إذا أصابت النـــاس سنة شديدة (أزمة جدب) تركــوا فـــى دارهــم المـــريض والكبيـــر والضعيف، وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ، ثم يحضر لهم الأسراب، ويكنف لهم الكنف[1] ويكسوهم ، ومن قوى منهم — إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضـــعيف تثـــوب قوته — خرج به معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصـــيبا، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ، ألحق كل إنسان بأهله، وقسم له نصيبه من غنيمة، إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سمى عروة الصعاليك"[2].

ولذلك أثنى عليه بأخلاقه هذه عبدالملك بن مروان حيث يقـــول: "من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد"[3] وحكى أن عبدالملك بن مروان قال: ما يسرنى أحد من العرب لـــم يلـــدنى أنـــه ولدنى إلا عروة الصعاليك بن الورد لقوله:

إنى امرؤ عافى إنائى شـــركة ∴ وأنت امرؤ عافى إنائـــك واحـــد

(١) يتخذ لهم حظائر يؤويهم فيها .
(٢) الأغانى ٣/ ٨١ .
(٣) الأغانى ٣/ ٨٢ .

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى ∴ بجسمى مس الحق والحق جاهد

أفرق جسمى فى جسوم كثيرة ∴ وأحسو قراح الماء والماء بارد[١]

ويعلق الدكتور/ شوقي ضيف على هذه الأبيات بقوله: "وعـــروة يعبر عن معنى إنسانى رفيع، إذ تعرض له بعض أصحابه يعيبه بأنـــه مضنى هزيل، شاحب اللون، فقال له: إننى يشركنى كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة فى إنائى أو طعامى، أما أنت فلا يشركك أحـــد ، ولذلك سمنت، أما أنا فأصبحت ضامرا نحيلا ، وما شحوب وجهـــى إلا أثر من آثار نهوضى بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين، فلســـت أنا الخليق بالهزؤ والسخرية، إنما الخليق بذلك السمين البطـــين، ومـــا لبث أن قال: إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبـــارة أدق يقســـم جسمه فى جسومهم، بل كثيرا ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه، مـــع جوعه ومسغبته مكتفيا بشرب الماء البارد، على حين يعصف الشـــتاء بزمهريره"[٢].

وكان عروة حريصا على الغنى كما جاء فى قوله مخاطبا زوجه سلمى الغفارية المكناة بأم حسان:

---

(١) نفس المصدر والصفحة.
(٢) العصر الجاهلى صـــ٣٨٤، ٣٨٥ .

دعينى للغنـــى أســـعى فـــإنى ∴ رأيت النـــاس شـــرهم الفقيـــر

وقال قصيدته التى يرد بها على زوجه حين كانت تكثـــر لومـــه على مخاطرته بنفسه فى الغارات خوفا عليه:

أقلى على اللوم يا ابنـــة منـــذر ∴ ونامى،فإن لم تشتهى النوم فاسهرى

ذرينى ونفسى أم حسان إننـــى ∴ بها قبل أن لا أملك البيع مشترى

أحاديث تبقى والفتى غير خالد ∴ إذا هو أمسى هامة تحت صـــبر

تجاوب أحجار الكناس وتشتكى ∴ إلى كل معروف تـــراه ومنكـــر

ذرينى أطوف فى البلاد لعلنـــى ∴ أخليك أو أغنيك عن سوء محضـــر

فإن فاز سهم للمنية لـــم أكـــن ∴ جزوعا،وهل عن ذاك من متـــأخر

وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد ∴ لكم خلف أدبار البيوت ومنظـــر

فهو يطلب من ابنة منذر وهى زوجه سلمى أن تنـــام وتســـتريح وتقلل من لومه، وتتركه فى غاراته يبحث عن المجد والغنـــى حتـــى يتركها غنية عن سوء المسألة، ولو أدى ذلك لهلاكه.

ويدعو على الصعلوك المتكاسل الذى يصيب حاجته من قليل المال أو من عطف صديق فإذا ملأ بطنه عد ذلك غنى، وترك عياله وقرابته حيث يقول:

لحى الله صعلوكا إذا جن ليلــه .:. مضى فى المشاش آلفا كل مجزر

يعد الغنى من دهره كـل ليلــة .:. أصاب قراها من صديق ميسـر

قليل التماس المال إلا لنفســه .:. إذا هو أضحى كالعريش المجور

ثم يشيد بالصعلوك الشجاع الذى يخيف أعداءه ولا يأبه بهم فإن مات مات محمود السيرة وإن عاش فأجدر به من شجاع قوى يقول:

ولله صعلوك صـفيحة وجهــه .:. كضوء شهاب القابس المتنــور

مطلا على أعدائــه يزجرونــه .:. بساحتهم زجر المنيح المشــهر

وإن بعدوا لا يأمنون اقترابــه .:. تشوف أهــل الغائــب المتنظـر

فذلك إن يلــق المنيــة يلقهــا .:. حميدا،وإن يستغن يوما فأجدر[1]

(١) الأصمعيات ص٤٣ دار المعارف ط٥ تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبدالسلام هارون٠

وهكذا يفخر ابن الورد بشجاعته فى الصعلكة وكسب المال بقوته وعدوه وغاراته، وليس كالصعلوك الجبان أو الكسول الذى يعتمد على قوته من صديق ميسر، أو من خدمته للنساء ، فإذا ملأ بطنه عد ذلك غنى ونام عن قوت أهله وعياله.

ونلاحظ على ابن الورد من شعره أنه ليس كبقية الصعاليك، فليس مخلوعا من قبيلته، وليس حاقدا على قبيلته وعشيرته، ولا يغير على قومه انتقاما منهم، ولا سافكا للدماء، وإنما كان – كما هو واضح من شعره وسيرته – أنه كان يغير على الأغنياء البخلاء الأشحاء، يبتغى الغنى لنفسه وأهله، ويكرم ضيفه، ويعين الضعفاء والمرضى وكبار السن على حالهم، ولذلك كان محمود السيرة يشهد بذلك جميع من يعرفونه، ممن عاشروه، ومن قرأوا شعره وعرفوا حياته ، يقول د/شوقى ضيف عنه : "والحق أن عروة كان صعلوكا شريفا، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة ، وأن يجعلها ضربا من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر فى قوة فكره التضامن الاجتماعى، وما يطوى فيها من إيثار وبر بالفقراء، فهو لا يسعى لنفسه فحسب، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء"[١].

(١) العصر الجاهى ص٣٨٧ .

ونلاحظ أيضا: أن ضمير الذات واضح فى شعره، لأنه فى أغلبه يتحدث عن مغامراته وبطولاته، وكيف كانت غاراته، وكيف حقق الغنى لنفسه، ومن يعولهم، ولفقراء عشيرته الضعفاء.

ضمير الذات فى مقدمة القصيدة الجاهلية:

الغالب على الشعر الجاهلى أنه له مقدمات، وأن هذه المقدمات تنوعت بين المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية، والمقدمة الخمرية بل إن المقدمة الطللية هى الغالبة على سائر المقدمات عند بعض النقاد، فالدكتور/سعد ظلام يقول:"ولو أننا استقرأنا القصائد فى الشعر الجاهلى لوجدنا أن الكثرة الهائلة فيها مبدوءة بالبكاء على الأطلال"[١].

وبعضهم يرى أن الغزل وحده هو قسيم بقية الأغراض الشعرية فى العصر الجاهلى، وأن "كثرة كثيرة من الشعر الجاهلى الذى وصل إلينا تكاد تكون قاصرة على الغزل أو متصلة به بسبب، وأن الأغراض الأخرى جميعها من الفخر والمدح والهجاء والرثاء لا تعدو أن تكون قسيما لشعر الغزل .. إن الثروة الشعرية كالقطعة الذهبية ذات وجهين: نقش الجاهليون على صفحتها الأولى عواطفهم التى ابتعثها فيهم الحب ، وما يؤدى إليه هذا الحب من وصل أو هجر،

---

(١) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى ص٦٤ طبعة مؤسسة يوم المستشفيات

ومن سعادة أو شقاء، ومن لذة أو غصة، وصوروا هــذه العواطــف، وأفنوا فى تصويرها ملكاتهم ومواهبهم.

أما الصفحة الأخرى فقد جمعوا عليها كل أغراضهم الأخــرى، ونثروا فى أطرافها كل الفنون والأغراض الثانية ، كائنة ما كانت هذه الفنون والأغراض"[١].

وأرى أن هذه مبالغة شديدة. لأن الغزل إذا كان يحتــل نصــف مساحة الشعر الجاهلى فى الكم والكيف، فأين بقية الشعر الجاهلى من الأغراض الشعرية التى عددها الدكتور/ شكرى فيصل وغيرها؟

ولما كانت المقدمات ــ كما ذكرنا ــ يغلــب عليهــا : الطلليــة والغزلية، ثم الخمرية، فقد كان للنقاد قديما وحديثا آراء كثيــرة حــول تفسيرها وتعليلها، وهل كانت تقصد لذاتها، أو كانت وسيلة لما بعدها؟

تحدث عن ذلك ابن قتيبة فقال : "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلــك ســببا لــذكر أهلهــا الظاعنين، إذ كانت نازلة العمد[٢] فى الحلول والظعن على خلاف مــا

---

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص٢٣ د/ شكرى فيصل ــ دار العلــم للملايين ط٧ ــ ١٩٨٦م بيروت.

(٢) العمد: يقصد الخباء ، والمراد: البدو .

عليه نازلة المدر[١] لانتجاعهم الكلأ وانتقالهم من ماء إلى ماء، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق ، وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فلا يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام .

فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير ..." [٢].

فابن قتيبة هنا يعلل لافتتاحيات القصائد الشعرية فى العصر الجاهلى بالحديث عن الأطلال وذكر الديار والدمن والآثار ولبكاء الشعراء وشكايتهم أثناء حديثهم عن ذلك، ثم حديثهم عن شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة، وكل ذلك ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويسترعى به إصغاء الأسماع إليه . فإذا علم الشاعر أنه جذب انتباه السامعين وصرف قلوبهم إليه، وهيأهم لاستماع

(١) المدر: يقصد سكان الحضر (القرى) .
(٢) الشعر والشعراء ص٢٠ تحقيق/ أحمد محمد شاكر .

ما يريده، واستوثق من إصغائهم إلى ما يلقيه عليهم، انتقل من ذكر الأطلال والديار، ومن النسيب والتشبيب إلى بقية أغراضه، ومعنى هذا أن الحب الذى تحدث عنه الشاعر، وأن بكاءه وشكواه لرحيل الحبيبة، وأن الشوق والصبابة وألم الوجد وشدة الضنى والفراق ليس حقيقيا فى وجدان الشاعر ومشاعره، وأنه ليس مقصودا لذاته وإنما هو عرف بين الشعراء، ووسيلة لغاية مستهدفة وهى جذب انتباه السامعين وصرف قلوبهم للشاعر حتى إذا استوثق من ذلك ألقى إليهم بغرضه أو أغراضه الرئيسة فى قصيدته، وبذلك يكون الغزل وذكر الأطلال فى افتتاحيات القصائد الجاهلية صناعة وتقمصا لشخصية المحب الحقيقى، وإعمالا للعقل والوجدان فى رسم الصورة الفنية الجميلة التى يخيل للسامعين أنها حقيقة وليست تقليدا متعارفا عليه . أى أن الغزل هنا ليس مقصودا لذاته فى رأى ابن قتيبة.

يقول د/ شكرى فيصل فى تعليقه على نص ابن قتيبة هذا: "ومن الملاحظ أن مثل هذا الرأى لا يجعل الغزل، الذى نلقاه مبثوثا فى الشعر الجاهلى، تعبيرا أصيلا عن حياة الشاعر الوجدانية ، ولا فيضا عفويا مصدره عواطفه، ولا يجعل منه تنفيسا عن همومه وجلاء لأساه، وإنما هو يجعل هذا الشعر "صناعة" مقصودة يلجأ إليها الشاعر

فى شىء من التعمد، فيدغدغ به عواطف السامعين، ويستدعى إليه أسماعهم، ويميل نحوه قلوبهم، ويوطئ بذلك لأغراضه الأخرى . فليس الغزل — فى مفهوم هذا الرأى — غرضا بذاته ولكنه غرض لغيره .. إنه — فى رأى ابن قتيبة — ليس عملا يصدر عن الطبع ولكنه "شباك" يصطاد بها الشاعر عواطف سامعيه"[١].

ولكن إذا كانت هذه هى وجهة نظر ابن قتيبة فإن ابن رشيق له وجهة نظر أخرى فى الغزل وتحريك مشاعر الشاعر وأحاسيسه به يقول ابن رشيق : "إن ذا الرمة سئل: كيف تعمل إذا انقفل دونك الشعر؟ فقال: كيف ينقفل الشعر دونى وعندى مفاتيحه؟ قيل له: وعنه سألناك ما هو؟ قال: الخلوة بذكر الأحباب" .

ويضيف ابن رشيق بعد ذلك : "فهذا لأنه عاشق، ولعمرى إنه إذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب، ووضع رجله فى الركاب"[٢].

فابن رشق هنا لا يجعل من شعر الغزل ومقدمات القصائد الجاهلية وسيلة لجذب انتباه السامعين وإثارة عواطفهم وصرف قلوبهم

---

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص٢٩ ، دار العلم للملايين — بيروت.

(٢) العمدة ج٢ ص١٣٧ .

إليه حتى يلقى إليهم بأغراض شعره وموضوعاتهم، ولكنه يجعل منـه وسيلة للشاعر نفسه، ولاجتذاب كل قواه المبدعة وملكاتـه الشـعرية، حيث "يلوى إلى ذكر أحبابه فيهيج ذلك عنده عواطفه ويؤجج نارهـا، فإذا هو مندفع فى هذه النشوة أن يقول الشعر فيما يريـد أن يقـول فيه"(١).

ويقول د/ شكرى فيصل أيضا: "فإننا نلاحظ أن هـذا الغـزل لا يزال يبدو فى نطاق "الوسيلة" إنه عند ابن قتيبة محض وسيلة .. وعند ابن رشيق مزيج من الوسيلة والغاية تأتلفان فى نفس الشاعر من حيث إنه هو المقصود بالإثارة والتفتح"(٢).

وإذا كانت هذه بعض آراء النقاد القدامى فى المطـالع الطللية والغزلية وتعليلهم لها فإن النقاد المحدثين أيضا لهم آراؤهم فـى هـذه المقدمات، فالدكتور طه حسين يرى: أن المقدمـة بمثابـة التمهيـد ، والإعداد للغرض الأصلى التمهيد، والإعداد للغرض الأصلى على حد تعبيره الوارد فى حديثه عن مقدمة زهير فى معلقته التى مطلعها:

أمن أم أوفى دمنـة لـم تكلـم ∴ بحومانـة الـدراج فـالمتثلم

---

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص٣٠ .
(٢) المرجع نفسه صـ٣١ .

حيث يقول: "فقد كان زهير من أقدر الشعراء القدماء على خلــق البيئة هذه ، وتهيئة الجو الشعرى، قبل أن يمعن بالسامعين فيما يقصد إليه من الأغراض، وأى خلق للبيئة وأى تهيئة للجــو ، وأى إعــداد للسامعين والقارئين ، أبرع من هذا القسم الأول من قصيدته المطولة؟ إنه يعمد إلى هذا فى رقة وظرف ورفعة، وفى وداعة نفس، وحــلاوة روح، تثير فى نفسك هذه الأشجان الهادئة الرقيقة التى تخــرج عــن طورك العادى ، ولا تبلغ بك الحزن الممض، ولا اليأس المهلــك ولا الأسى العميق"[1].

ورأى طه حسين هنا يتفق مع رأى ابن قتيبة فى أن المقدمة أيــا كانت ــ طللية أو غزلية أو خمرية ــ هى إعداد للســامعين وتهيئــة للجوى الشعرى، ووسيلة الشــاعر إلــى قلــوب الســامعين وإثــارة مشاعرهم، وجذب انتباههم وأحاسيسهم .

وهذا الرأى ربما يفقد المقدمة قيمتها ومكانتها فى نظــر بعــض النقاد لأن المقدمة بهذه الطريقة تصير وسيلة إلى غاية وليست وســيلة وغاية فى حد ذاتها، وأن الغزل يكون صناعة مقصــودة يلجــأ إليهــا الشاعر فى شيء من التعمد ليجذب عواطــف الســامعين ويســتدعى

---

(١) حديث الأربعاء ١/ ٨١ .

قلوبهم وأسماعهم إليه، وليس حبا حقيقيا يعبر عنه. وفى هذا إضـــعاف لهذه المقدمات، وأنها ليست أكثر من تقليد وعرف بين الشعراء والبيئة الجاهلية بعامة، إذا أخذنا برأى ابن قتيبة قديما وطه حسين حديثا.

ولكن هذا لا يمنع أن تكون هنـــاك تجـــارب شـــعورية صـــادقة لأصحابها كحديث عنترة العبسى لعبلة فى مقدمة ميميته وهى معلقتـــه المشهورة، والتى قدم فيها شجاعته وشهامته وجميع صـــفاته الكريمـــة مهرا لها فيقول:

١- هل غادر الشعراء من متردم ∴ أم هل عرفت الدار بعد تـــوهم[١]

٢- يا دار عبلة بالجواء تكلمى ∴ وعمى صباحا دار عبلة واسلمى[٢]

٣- أثنى على بما علمت فإننى ∴ سمح مخالطتى إذا لـــم أظلـــم[٣]

٤- وإذا ظلمت فإن ظلمى باسل ∴ مـــر مذاقتـــه كطعـــم العلقـــم[٤]

٥- وإذا شربت فإننى مستهلك ∴ مالى وعرضى وافر لم يكلـــم[٥]

---

(١) المتردم: الموضع الذى يستصلح، لم يكون قـد أصـــابه الـــوهن. التـــوهم: التفرس.

(٢) الجواء: موضع وهو اسم لواد، عم صباحا: كلمة تحية فى الجاهلية.

(٣) مخالطتى: يريد معاشرتى.

(٤) الباسل: الكريه الطعم. المذاقة: الطعم. العلقم: الحنظل وكل طعم مر.

(٥) مستهلك مالى: منفقه . وافر: كريم لم يبتذل. لم يكلم: لم يجرح.

٦- وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ∴ وكما علمت شـمائلى وتكرمـى

٧- هلا سألت الخيل يا ابنة مالـك ∴ إن كنت جاهلة بما لـم تعلمـى

٨- يخبرك من شهد الوقيعة أننى ∴ أغشى الوغى وأعف عند المغنم[١]

٩- ومدجج كره الكماة نزالـه ∴ لا ممعن هربـا ولا مستسـلم[٢]

١٠- جادت له كفى بعاجل طعنة ∴ بمثقف صدق الكعوب مقـوم[٣]

١١- فشككت بالرمح الأصم ثيابـه ∴ ليس الكريم علـى القنـا بمحـرم

١٢- فتركته جزر السباع ينشنه ∴ يقضمن حسن بنانه والمعصم[٤]

فعنترة هنا لا يعبر عن مشاعر قبيلته وجماعته، ولكنه يعبر عن مشاعره هو، وعن ذاتيته هو، هل غادر الشـعراء مـن متـردم؟ أى الموضع البالى الذى أصابه الوهن فأصبح باليا دارسا .

---

(١) أغشى الوغى: أخوض الحروب.

(٢) الكماة: الشجعان أو لابسو السلاح. الممعن: الجاد فى الطلب أى أنه لا يهرب ولا يستسلم.

(٣) رمح مثقف : مقوم مسوى. الصدق: الصلب. الكعوب جمع كعـب وهـو الأنبوبة بين العقدتين من القصب والرماح.

(٤) الجزر: جمع جزرة وهى الشاة السمينة. السباع: جمع سبع وهو الحيـوان المفترس . ينشنه: يتناولنه. يقضمن بنانه: يأكلن أصابعه.

وهل عرف دار محبوبته بعد توهم وتفرس؟ وهو استفهام تقرير مراد للشاعر ٠

ثم يخاطب هذه الدار البالية الدارسة وهى دار عبلة يريد لها السلامة، ويطلب لها النعيم فى صباحها، ويطلب من عبلة أن تثنى عليه بخصاله الحميدة، فهو سمح كريم شجاع ، كرامته محفوظة ، وعرضه مصون، وإذا جهلت هذه الخصال فيه فهل سألت الخيل عنه؟ فهى تعلم شجاعته وإقدامه فى الحروب ، كما تعلم عفته عند توزيع المغانم، وأن الشجعان المسلحين لا يستطيعون مواجهته، فحينما يطعن الشجاع القوى برمحه فهو يمذقه ويتركه للسباع تنهش لحمه، وتقضم عظامه، فهو لا يبارى بين قرنائه، ولا يستطيع شجاع مهما كانت قوته مناهضته٠

ونلاحظ أن الشاعر هنا لم يكن يفخر بذاته لذات الفخر ولم يكن يتمدح بفعاله لذات التمدح ، وإنما ليقدم شجاعته ومهابته وإقدامه وكرم أخلاقه وجميع صفاته الكريمة والعظيمة مهرا لعبلة، وليطمئنها على أنه جدير بها ، يحميها ويحفظ عرضها ويصون كرامتها وأهلها وهو جدير بذلك٠

كما نلاحظ أن ذاتية الشاعر فى قصـيدته هـذه واضـحة كـل الوضوح فهو لا يفخر بحسب ولا بنسب، وأنى له ذلك وهو قبـل أن يعترف به كان يحس بالضياع بين قومه؟ ولذلك كان كثير الحديث عن نفسه وشجاعته وخصاله الحميدة بضـمير المفـرد ولـيس ضـمير الجماعة.

وهذا أنموذج آخر من مقدمات القصائد الجاهلية التى عبر فيهـا الشعراء عن مشاعرهم وأحاسيسهم ووجداناتهم الخاصة، يقول امـرؤ القيس فى مطلع معلقته:

١- قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ∴ بسقط اللوى بين الدخول فحومـل[1]

٢- فتوضح فالمقراة لم يعف رسـمها ∴ لما نسجتها من جنـوب وشـمأل[2]

٣- ترى بعر الآرآم فى عرصاتها ∴ وقيعانها كأنـه حـب فلفـل[3]

٤- كأنى غداة البين يوم تحملوا ∴ لدى سمرات الحى ناقف حنظـل[4]

---

(١) السقط: منقطع الرمل حيث يستدق من طرفه. اللوى: رمل يعوج ويلتـوى الدخول وحومل موضعان.

(٢) توضح والمقراة : موضعان. رسمها: أثرها .

(٣) الأرآم جمع رئم بكسر الراء وهى الظباء البيض. ـــ والعرصـات جمـع عرصة وهى ساحة الدار وفنائها الواسع. والقيعان جمع قاع: وهو المستوى من الأرض.

(٤) البين: الفراق. تحملوا: ارتحلوا . سمرات جمع سمرة . نوع من الشجر .

٥- **وقوفابهاصحبى علىمطيهم ∴ يقولون لا تهلك أسى وتجمــل**[1]

٦- **وإن شفائى عبرة مهراقة ∴ فهل عندرسم دارس من معــول**[2]...

.... إلى آخره.

فالشاعر هنا لا يعبر عن مشاعر جماعته وقبيلته وإنما يعبر عن مشاعره هو وذاتيته هو، فيبكى ويستبكى من معه من أصحابه لذكرى الحبيب الذى رحل وكان يقيم فى هذه الأماكن : بسـقط اللـوى بـين الدخول وحومل وتوضح والمقراة، وقد ظل رسم المنزل قائما لم تمحه رياح الجنوب ولا رياح الشمال، وهذه الأماكن قـد سـكنتها الظبـاء وأقامت فى ساحاتها ومواضعها ، ويشهد على ذلك بعرها الذى يشـبه حب الفلفل ويتذكر وقت رحيل أحبابه وفراقهم وهو لدى شجرات الحى وكأنه يجنى الحنظل وينقضها (أى يشقها) بظفره ليستخرج منها حبهـا وأصحابه يواسونه فى مصابه وفجيعته ويقولون له: لا تهلـك نفسـك أسى وجزعا على فراق محبوبك وتجمل بالصبر . ولكنه يرد علـيهم قائلا: إن شفائى وبرئى مما أصابنى لفراق محبـوبى فـى دمـوعى

---

(١) أوقف أصحابه مطاياهم بجواره ونصحوه بالصبر وعدم الجزع.

(٢) المهراق والمراق: المصبوب . والعبرة: الدمع. وجمعها عبرات. والمعول: المبكى. وقد أعول الرجل وعول: إذا بكى رافعا صوته.

المهراقة أى فى بكائى بدموع مصبوبة ساخنة على فراق هذا الحبيب ، ثم يستفهم استفهاما بمعنى النفى: هل ينفع هذا البكاء والتحسر عند رسم بال؟

وهل يعود المحبوب استجابة لبكائه وتحسره؟ لسان حاله يقول: لا. وهذا مما يزيده أسى وحسرة.

وهذه الأبيات التى يعبر بها امرؤ القيس فى مقدمة قصيدته اللامية عن وجدانه ومشاعره الخاصة إنما هى دليل على أن الشاعر الجاهلى لم يذب فى وجدان قبيلته ــ كما يقال ــ وإنما أيضا عبر عن ذاته ومشاعره الخاصة ووجدانه الفرد.

وهذه الذاتية واضحة لا فى هذه الأبيات فقط من مقدمة قصيدة امرئ القيس ، ولكن فى القصيدة جميعا، سواء وهو يتحدث عن غرامياته، أو عن قصته مع الفتيات اللائى عقر لهن مطيته، أو عن قصته مع عنيزة وركوبه معها فى خدر واحد، والحوار الذى دار بينه وبينها، وأيضا همومه التى وصفها وصفا بديعا فاق فيه شعراء عصره فى وصفهم للهموم وهو يقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ∴ على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لمـا تمطـى بصـلبه ∴ وأردف أعجـازا ونـاء بكلكـل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ∴ بصبح وما الإصباح منك بأمثـل

فيا لك من ليل كـأن نجومـه ∴ بأمراس كتان إلى صـم جنـدل

وكذلك فى وصفه للذئب، ولفرسه وقوته وشجاعته، وأيضا فـى وصفه لبعض الحيوانات وللأمطار والجبال .. وغير ذلك مما وصـفه فى قصيدته.

وهو فى كل ذلك يعبر عن مشاعره الخاصـة ووجدانـه الفـرد وليس عن مشاعر قبيلته ولا بضمير الجماعة وإنما بضـمير الـذات، وهكذا فى كثير من الشعر الجاهلى.

وليست هذه الذاتية خاصة بالمقدمات فى الشعر الجاهلى ولكنهـا فى كثير من شعرهم كما فى قصيدة امرئ القيس اللامية كمـا أشـرنا إلى ذلك. وأيضا فى كثير من موضوعاتهم ومعانيهم التى عبروا فيهـا عن عواطفهم الخاصة، وبخاصة فى الوصف والغزل والتأمـل فـى الكون والحياة ، والتعبير عن الوجدان الفردى فـى الرثـاء والفخـر بالذات وفى الاعتذار والعتاب، والحكمة النابعة من صـميم التجربـة الفردية ... إلى غير ذلك.

ومن ذلك الحكمة والنظرات الثاقبة والتجارب الطويلة والتأمـل في الحياة والموت والكون كله لزهير الذى يقول:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعـش ∴ ثمانين حولا — لا أبالك — يسأم

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبلــه ∴ ولكننى عن علم ما فى غد عــم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ∴ تمته ومن تخطئ يعمــر فيهــرم

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ∴ يضرس بأنياب ويوطــأ بمنســم

ومن يجعل المعروف من دون عرضـه ∴ يفره ومـن لا يتـق الشـتم يشـتم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ∴ على قومه يستغن عنه ويـذمم

ومن هاب أسباب المنايا ينلنــه ∴ وإن يرق أسباب السماء بسـلم

ومن يجعل المعروف فى غير أهله ∴ يكن حمده ذمــا عليــه وينــدم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ∴ يهدم ومن لا يظلم الناس يظلــم

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ∴ ومن لم يكرم نفسه لــم يكــرم

ومهما تكن عند امرئ من خليقــة ∴ وإن خالها تخفى على الناس تعلــم

لسان الفتى نصف ونصف فـؤاده ∴ فلم يبق إلا صورة اللحم والـدم

وهذه الحكم والتجارب الزهيرية والتى أسداها لأمتـه الجاهليـة ومازالت معانى كثيرة منها تسرى فى الأوساط الإنسانية، لا يمكن أن تكون نابعة من وجدان القبيلة مجتمعة، ولم يعبر بهـا عـن ضـمير جماعتها ، ولكنها ذاتية المعنى والعبارة والهدف.

ومما يدل على وجود العاطفة الذاتية ووضوح الذات فى الشـعر الجاهلى أيضا ما كان فى باب الاعتذاريات وإن كانت قليلة فى الشعر الجاهلى، ولعل من عوامل قلتها ما عرف عن الرجل الجـاهلى مـن الشموخ وحب العظمة والتعالى، وهذا ما دعاهم أو من أسباب كثـرة الفخر فى شعرهم وعلو أصواتهم به، وقلة اعتذاراتهم عـن هفـواتهم لكنه ــ أى الاعتذار ــ وجد فى شعرهم ، وأكثر من وجد فى شـعره وعرف به النابغة الذبيانى الذى أسهب فيه كثيرا فاشتهر به لدرجة أن قيل عنه: إنه أضاف إلى الشعر فنا جديـدا، ويقصـدون بـذلك فـن الاعتذار ، كأنه لم يوجد فى الشعر الجاهلى قبل النابغة الذبيانى الـذى أكثر منه وأطال فى قصائده ، وأتى فيه بمعان بديعة صاغها بعبارات رائعة، وصور شعرية جميلة.

وذلك أن النابغة الذبيانى كان يمدح ملوك المنـــاذرة والغساســـنة وينال عطاياهم وجوائزهم . وكان قد اتصل بملوك الحيـــرة "وطالـــت صحبته للنعمان بن المنذر لدرجة أن أحبه النعمان وقربه منه واتخـــذه جليسا له ونديما، ووصله بجوائزه السنية حتـــى صـــار لا يأكـــل ولا يشرب إلا فى صحاف الذهب والفضة ، إلى أن وشى به عند النعمان أحد بطانته، فغضب عليه وهم بقتله فأسر إلى النابغة بذلك رجل اسمه (عصام) وهو حاجب النعمان ، فهرب النابغـــة إلـــى ملـــوك غســـان المنافسين للمناذرة فى ملك العرب فمـــدحهم وأثنـــى علـــيهم وأخـــذ جوائزهم، غير أن قديم صحبته للنعمان ، وحسن صنيع النعمان عنده، ورجاء إظهار براءته، كل ذلك جعله يحن إلى معـــاودة العـــيش فـــى ظلاله فتنصل مما رمى به، واعتذر إليه بقصـــائد اســـتلت ســـخيمته وعطفت عليه قلبه، وحل عنده فى منزلته الأولى"[١].

يقول فى إحدى اعتذارياته الرائعة:

١-وعيد أبى قابوس فى غير كنهـــه ∴ أتانى ودونى راكس فالضواجع[٢]

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه للشيخين: أحمد الإسكندرى ومصـــطفى عنانى صـــ٦٦ طبعة ٦ ـــ در المعارف بمصر ١٩٢٧م.

(٢) كنهه: حقيقته. يريد على غير ذنب منه .

٢- فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ∴ من الرقش فى أنيابها السم ناقع[١]

٣- يسهد من ليل التمام سليمها ∴ لحلى النساء فى يديه قعـاقع[٢]

٤- تناذرها الراقون من سوء سمها ∴ تطلقه طـورا وطـورا تراجـع[٣]

٥- أتانى -أبيت اللعن- أنك لمتنى ∴ وتلك التى تستك منها المسامع[٤]

٦- مقالة أن قد قلت سوف أنالـه ∴ وذلك من تلقـاء مثلـك رائـع

٧- حلفت فلم أترك لنفسه ريبـة ∴ وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع[٥]

٨- بمصطحبات من لصاف وثبرة ∴ يزرن إلالا، سيرهن التـدافع[٦]

---

(١) ساورتنى: لدغتنى. ضئيلة: أفعى دقيقة الجسم. الرقش: جمع رقشاء، وهـى المنقطة نقطا بيضاء وسوداء . ناقع: قاتل.

(٢) يسهد: يمنع من النوم. ليل التمام: أطول ليالى الشتاء. السـليم: الملـدوغ. قعاقع: أصوات. كانوا يجعلون الحلى فى يد الملدوغ اعتقـادا مـنهم بأنهـا تشفيه.

(٣) تناذرها الراقون: خوف بعضهم بعضا منها . فهى مـن خبثهـا لا تجيـب الراقى ولكنها مرة تجيب ومرة لا تجيب.

(٤) تستك : تضيق .

(٥) أمة هنا: دين. أى لا يأثم ذو دين مطيع.

(٦) بمصطحبات : أقسم بالإبل التى تصطحب فى المسير إلى الحـج. لصـاف وثبرة: موضعان فى ديار تميم . إلال: جبل بعرفة . التدافع : العجلة.

٩- سماما تبارى الريح خوصا عيونها ∴ لهـن رذايـا بـالطريق ودائـع[١]

١٠- عليهن شعث عامدون لحجهم ∴ فهن كأطراف الحنـى خواضـع[٢]

١١- لكلفتنى ذنب امرئ وتركته ∴ كذى العر يكوى غيره وهو راتع[٣]

١٢- فإن كنت لاذو الضغن عنى مكذب ∴ ولا حلفـى علـى البـراءة نـافع[٤]

١٣- ولا أنا مأمون بشىء أقوله ∴ وأنت بـأمر لا محالـة واقـع[٥]

١٤- فإنك كالليل الذى هو مدركى ∴ وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[٦]

---

(١) سماما: طائر شديد الطيران ، شبه به الإبل فى سرعتها ، خوصا: غائرات من شدة السير وإجهاده. رذايا: جمع رذية وهى الساقطة إعياء من الإبـل . ودائع: مستودعات فى الطريق. يريد ما سقط منهن إعياء فترك فى الطريق لإعيائها .

(٢) شعث: جمع أشعث وهو المغبر من طـول السـفر. الحنـى: القسـى، أى الضامرة الرقيقة من شدة السير والجهد. خواضع: جمع خاضعة ، أى خاشعة ذليلة من الجهد .

(٣) العر: داء يصيب الإبل وهو الجرب. وقيل: إنهـم إذا أرادوا أن يعـالجوا بعيرا أجرب كووا بعيرا آخر صحيحا، فيبرأ الأجرب.

(٤) الضغن: الحقد والعداوة. أى إن كنت لا تكذب الحاقد وتصدقنى.

(٥) أى لا تصدقنى فيما أقوله لك. وعقابك نازل لا محالة بى.

(٦) المنتأى: المكان النائى، أى البعيد.

١٥-خطاطيف حجن فى جبال متينة ∴ تمد بها أيد إليك نوازع[١]

١٦- أتوعد عبدا لم يخنك أمانة ∴ وتترك عبدا ظالما وهو ضالع[٢]

١٧- وأنت ربيع ينعش الناس سيبه ∴ وسيف أعيرته المنية قاطع[٣]

١٨- أبى الله إلا عدله ووفاءه ∴ فلا النكر معروف ولا العرف ضائع[٤]

١٩-وتسقى إذا ماشئت غير مصرد ∴ بزوراء فى حافاتها المسك كانع[٥]

فى هذه القصيدة يتحدث النابغة الذبيانى عن وعيد النعمان وتهديده له بأنه فى غير محله وحقيقته، وأنه غير مذنب حتى يستحق هذا التهديد والوعيد الذى جعله مسهدا خائفا كأنما لدغته حية، ويستمر فى وصف هذه الصورة لإتمام أركانها، فكأنما هذه الحية التى لدغته

---

(١) الخطاطيف: جمع خطاف البئر وهو من حديد. الحجن: جمع أحجن وهو المعوج . أى خطاطيف موجة . والمتينة: القوية. والنوازع: الجواذب، جمع نازعة. يقول: ضاقت الدنيا على فكأنى فى بئر فأجر بالخطاطيف إليك وأخذب. وهذا مثل ضربه لقوة النعمان بن المنذر وسلطانه وتمكنه من إدراكه لمطلوبه .

(٢) أتوعد: من الوعيد وهو التهديد . ضالع: أى مائل عن الحق جائر. ويروى: ظالع، بالظاء، وهو أيضا : الجائر المذنب.

(٣) الربيع هنا: الغيث. السيب: العطاء.

(٤) النكر: المنكر. العرف: المعروف.

(٥) مصرد: من التصريد، وهو الشرب دون الرى. أى تسقى وأنت غير مقلل للشرب . الزوراء: كأس طويلة من فضة كان النعمان يشرب فيها. كانع: لاصق. أى كأس مزينة بالفضة والمسك.

من الحيات المرقشة أى التى فيها بياض وسواد وهـــى مـــن أخطـــر الحيات وهى تختزن السم الناقع فى أنيابها فمن لدغته بات مسهدا ولم يذق طعم النوم من شدة الألم حتى ولـــو علـــق عليـــه أهلـــه الحلـــى والخلاخيل والتمائم حتى يبرأ، وإن الحواة والرقاة ليتخوفون منها لأنها من الأفاعى الخبيثة التى قلما استجابت للرقى٠

ويصور له النابغة فزعه الشديد حينما أتاه من أخبره بلوم النعمان له ووعيده إياه بأن هذه التى لا تطيقهـــا المســـامع ولا يقـــوى علـــى استيعابها، وإن كانت هذه المقالة رائعة من مثله، ثم يحلف له بمـــا لا يدع فى نفسه ريبة بالأيمان الوثنية التى تعارفوا عليها، واختار الإبـــل التى كانوا ينذرونها لآلهتهم لما لها من وقع عظيم فـــى أنفســـهم، ثـــم يستطرد فى وصف هذه الإبل، فهى تقبل على مكة مســـرعة، وهـــى تبارى الريح وقد أجهدت من كثرة السير وطـــول الســـفر، حتـــى إن بعضها سقط فى الطريق من شدة التعب والإعياء، ومـــا بقـــى منهـــا أصابه النحول والضمور٠

ومن عليها من الحجيج ظهر عليهم النحول والتعب الشديد، كأنهم القسى الضامرة. وهو فى استطراداته هذه ووصفه للإبل التى حلـــف بها يستميل قلب النعمان نحوه ليرجع فى رأيه ويعدل عن عقابه ويعفو

عنه، ويقول له: كان جديرا بك ألا تنزل بـــى عقابــك وإنمـــا تنزلـــه بالواشى الحاقد الذى وشى بى عندك. فإن كنت لا تكذبه ولا تصـــدقنى ولا حلفى يبرئنى عندك، وأنت مصر على إنزال عقابك بى لا محالـــة فإنه لا خلاص لى من ذلك، حتى وإن بعد المنتأى عنك فأنـــت تشـــبه ظلام الليل الذى يدركنى فى كل مكان، ولا منجى ولا مهرب لى مـــن عقابك . وأنت بهذا تعاقب البرئ وتترك المذنب، كالذى يكوى البعيـــر السليم ويؤذيه ويترك الأجرب يرتع ويلعب ولا يصيبه أذى . وبعد هذه الصورة الجديدة والرائعة:

فإنك كالليل الذى هو مـــدركى ∴ وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

يقول له: كأنى فى بئر، وقد ضاقت الدنيا علـــى وأظلمـــت مـــن حولى وكأنى أجر إليك وأجذب بالخطاطيف المعوجة والحبال القويـــة المتينة، وذلك لقوة سلطانك وإدراكك لمطلوبك مهما بعدت المســـافات بينى وبينك. ثم يعتب عليه بقوله:

أتوعد عبدا لم يخنــك أمانـــة ∴ وتترك عبدا ظالما وهو ضـــالع

أى أتهدد العبد المخلص لك، الأمين فى عهـــده معـــك وتتـــرك الواشى الظالم الجائر عن الحق ، فهو ينكر عليه أن يكون كذلك .

ثم يمدحه بالكرم والشجاعة ، فهو ربيع ونسيم عليل وغيث منهمر لأوليائه، وهو سيف مصلت على أعدائه وأنه عدل وفى، يجزى على الإساءة إساءة، وعلى الإحسان إحسانا.

ثم يصف حياة النعمان بأنها حياة ناعمة كريمة، وأنه رجل مترف، يشرب شربا غير قليل فى كئوس مفضضة مزينة بالزخارف، وأن ما فيها قد مزج بالمسك والطيب.

وهذا اعتذار من النابغة للنعمان بن المنذر غاية فى الرقة والجمال حيث إنه ينم عن وجدان فردى خالص ولا شىء فيه من ضمير الجماعة بأية حال. وإنما الذاتية فيه واضحة.

ومن روائع اعتذارات النابغة للنعمان ومدائحه له:

١- أتانى – أبيت اللعن – أنك لمتنى ∴ وتلك التى أهتم منها وأنصب(١)

٢- فبت كأن العائدات فرشننى ∴ هراسا به يعلى فراشى ويقشب(٢)

٣- حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ∴ وليس وراء الله للمرء مذهب

---

(١) أنصب: أتعب وأجهد.

(٢) الهراس: شجر كثير الشوك. العائدات: الزائرات فى المرض. فرشننى: بسطن لى. يقشب: يجدد.

٤- لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ∴ لمبلغك الواشــى أغــش وأكــذب

٥- ولكننى كنت امرأ لى جانب ∴ من الأرض فيه مستراد ومذهب[١]

٦- ملوك وإخوان إذا ما أتيــتهم ∴ أحكــم فــى أمــوالهم وأقــرب

٧- كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ∴ فلم ترهم فى شكر ذلــك أذنبــوا

٨- وإنك شمس والملوك كواكب ∴ إذا طلعت لم يبد مــنهن كوكــب

٩- فلا تتركنــى بالوعيــد كــأننى ∴ إلى الناس مطلى به القار أجــرب[٢]

١٠- ألم تر أن الله أعطاك سورة ∴ ترى كل ملك دونهــا يتذبــذب[٣]

١١- ولست بمستبق أخا لا تلمه ∴ على شعث، أى الرجال المهذب؟[٤]

١٢- فإن أك مظلوما فعبدا ظلمته ∴ وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتــب[٥]

---

(١) جانب من الأرض: متسع. مستراد: يذهب فيه الإنسان كما يريد: كناية عن إكرام الغساسنة له فى ديارهم .

(٢) القار: القطران. وكانوا يداوون به الإبل الجربى.

(٣) السورة: المنزلة. يتذبذب: يضطرب ولا يصل إلى شيء.

(٤) شعث: فساد. أى لا تجد واحدا خاليا من الهفوات ولا يستحق اللوم.

(٥) عتبى: رضا . يعتب : يعطنى العتبى والرضا.

فهذه الأبيات كسابقتها فى المديح والاعتذار للنعمان بـن المنـذر عساه يعفو عنه، وإن كانت أهدأ من سابقتها فى المعنـى والأسـلوب، فالشاعر هنا يخاطب النعمان قائلا له: لقد علمت بأنك لمتنى وهددتنى لذهابى إلى الغساسنة ومدحهم بكريم صفاتهم وعطاياهم الكثيرة، وهذا ما أفزعنى وجعلنى ذا هم وذا نصب وعناء شديد، وكانت النتيجة أننى بت فزعا، مسهدا، مؤرقا كأننى فى أشد حالات المرض والألم حتـى أخذت الزائرات من أهلى تسوين فراشى الذى يشـبه الشـوك تحتـى رحمة بى وعطفا على. ويحلف النابغة للنعمان بالله بأنه بـرئ ممـا اتهمه به الواشون من أنه خان العهد مع النعمان بذهابه إلى الغساسنة، قائلا له: إننى لم أخنك ولم أخن عهدى معك، وإن هؤلاء الواشين هـم أغش وأكذب من كل ذى جريرة وخيانة، إذ هم الخائنون الكذابون فعلا لك ، أما أنا فلم أكفر نعمك ولا أجحد ولاءك أبدا، وليس الأمر أكثـر من أننى قد ذهبت لأشكر هؤلاء الملوك الذين قربونى وجعلونى حكما فى أموالهم، كفعلك أنت مع الأقوام الذين قربتهم وأسديت إليهم نعمـك الكثيرة فشكروك عليها، ثم إن هؤلاء ملوك وأنت ملكهم فهم كواكـب وأنت شمسهم التى إذا طلعت توارت جميع الكواكب.

ثم يتوسل إليه ألا يتركه هكذا رهن التهديد والوعيد الذى جعلـــه يعيش فى فزع وخوف، وأنه هكذا بين الناس كالأجرب المطلى بالقار والناس يبعدون عنه خوفا من المساس به ، فالله قد أعطاك قوة ورهبة تفوق قوى الملوك ورهبتهم فينبغى أن تعفو عن الهفـــوات، فإنـــك إذا كنت تؤاخذ كل صاحب هفوة فلا تجد من يخطئ ويستحق العفو عنه .

ولست بمستبق أخـــا لا تلمـــه ∴ على شعث،أى الرجل المهــذب؟

ثم يطوق عنق النعمان بهذا البيت المؤثر الذى يستدر به عفـــوه وعطفه فى أدب وعتاب رقيق:

فإن أك مظلوما فعبـــدا ظلمتـــه ∴ وإن تك ذا عتبى فمثلـــك يعتـــب

أى إن ظلمتنى فأنا راض بظلمك لى ، وإن عفوت عنى فلـــيس هذا بغريب عليك فمثلك يعتب، ويصفح الصفح الجميل.

وهكذا فى كل اعتذاريات النابغة نجد أنها بضمير الفرد وليســـت بضمير القبيلة والجماعة، وأنها ذاتية المعنى والعاطفة والأسلوب.

وكثير جدا من الشعر الجاهلى قد صيغت موضوعاته ومعانيـــه بأساليب فردية النزعة، ذاتية العاطفة، معبرة عـــن صـــميم وجـــدان صاحبها ولا مجال فيها لوجدان القبيلة والجماعة.

وإذا كنا قد وقفنا على نماذج من الشعر الجاهلى ــ وهى كثيــرة ــ قد عبرت عن وجدان الجماعة وعلا فيها صوت الشــاعر بلســان قبيلته، لدرجة أن كثيرا من النقاد لا يرون سوى صوت القبيلــة فــى الشعر الجاهلى، فإن الشاعر الجاهلى كأى شاعر فى أى عصر وفــى أى مكان له وجد انه الخاص به وذاتيته الواضحة فى شعره يعبر عنها بلسانه هو وليس بلسان الجماعة والقبيلة.

يقول د/ شكرى فيصل : "إن الشاعر ــ أى الجــاهلى ــ كــان سجل حياة القبيلة، ومجمع مآثرها، وكان لسانها الذى يعبر عنها، وإن شعره كان ملتقى عواطفها ومحامدها، وسجل أيامها ووقائعها .

والواقع أننا يجب ألا نغفل ــ فى غمار هذه الصفة الاجتماعيــة للشعر العربى ــ أنه كان إلى جانب ذلك شعرا فرديا، وأن هذه الصفة الذاتية، فيه تكاد تغلب ما سواها، وأن الشاعر لم يكن لســان القبيلــة فحسب، ولكنه كان لسانا معبرا عــن وجــوده النفســى ، وعواطفــه الخاصة، إنه لم يكن بوق القبيلة فقط، ولكنه كان قيثارة نفسه، وصدى لقبيلته بعد ذلك"[١].

---

(١) تطور الغزل بين الجاهليــة والإســلام ص٢٧ ط٧ دار العلــم للملايــين ١٩٨٦م.

قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى

المعنى اللغوى :

جميع المعاجم العربية تتناول كلمة "نحل" وتذكر أنهـــا بمعنـــى الدعوى ونحل وانتحل بمعنى واحد. وانتحل الشئ ادعاه، وانتحل فلان شعر فلان أو قول فلان إذا ادعى أنه قائله، وتنحله: ادعاه وهو لغيره . يقول ابن هرمة :

ولـــم أتنحـــل الأشـــعار فيهـــا ∴ ولم تعجز فـــى المـــدح الجيـــاد

ونحله القول ينحله نحلا: نسبه إليه . ونحلته القول أنحله نحـــلا بالفتح : إذا أضفت إليه قولا قاله غيره، وادعيته عليه، وفلان ينتحـــل مذهب كذا أو قبيلة كذا: إذا انتسب إليه . ويقال: نحل الشاعر قصـــيدة إذا نسبت إليه ، وهى لغيره . وقال الأعشى فى الانتحال:

فكيـــف أنـــا وانتحـــالى القـــوا ∴ فى بعد المشيب كفى ذاك عـــارا

وقيـــدنى الشـــعر فـــى بيتـــه ∴ كمـــا قيـــد الآســـرات الحمـــارا

أراد انتحال القوافي التي هي لغيره، فهو يستفهم استفهاما إنكاريا بمعنى النفي ، أي لا ينتحل قصائد غيره وينسبها لنفسه٠

وقال الفرزدق:

إذا ما قلت قافية شرودا ∴ تنحلها ابن حمراء العجان

أي أنه يقول القصيدة ذات القافية الشرود التي تستعصي على غيره، فيأتي ابن حمراء العجان فينسبها لنفسه ٠

وفي حديث قتادة بن النعمان: كان بشير بن أبيرق يقول الشعر ويهجو به أصحاب النبي ﷺ ، وينحله بعض العرب أي ينسبه إليه، من النحلة وهي النسبة بالباطل(١) ٠

وجاء في المعجم الأدبي : ونحل شعرا: نسبه إلى نفسه وهو لغيره(٢).

ومادة "نحل" في جميع المعاجم اللغوية لا تخرج عن المعنى الذي أراده الشعراء والنقاد، من حمل شعر ليس لشاعر عليه، أو زيادة شعر على شعره، أو ادعائه هذا الشعر لنفسه وهو لم يقله ، وإنما

---

(١) انظر : لسان العرب ١١ / ٦٥٠ ، ٦٥١ ٠
(٢) جبور عبدالنور ١/ ٢٧٩ ٠

أعجبه هذا الشعر ، وأراد أن ينسبه إلى نفسه فخرا بــه ، واعتــزازا بمعناه، أو مبناه، أو بهما معا ، ويضن به على صاحبه.

ولذلك فإن الأعشى يعتبر أن هذا الانتحال عار ، وخصوصا بعد أن عراه الشيب، وطعن فى السن، وأثمر شعرا قويا، فهو لــيس فـــى حاجة لأن ينسب لنفسه شعر غيره. والفــرزدق يــتهم ابــن حمــراء العجان[1] بإدعائه قصائده وقوافيه .

ويروى أن الفرزدق حينما هجا قبيلة ربيعة بقوله :

أترجو ربيع أن تجيئ صغارها ∴ بخير، وقد أعيا ربيعــا كبارهــا

فجاء البعيث فهجا قبيلة كلب بقوله:

أترجو كليب أن يجئ حــديثها ∴ بخير وقد أعيا كليبــا قــديمها

فلما سمع الفرزدق هذا البيت الذى قاله البعيث قال هذا البيــت : "إذا ما قلت قافية شرودا .." البيت[2] .

(١) ابن حمراء العجان : هو البعيث ، وحمراء العجان : كناية عن أمه، وهـــى أعجمية (رومية أو فارسية) ، والعجان: ما بين القبل والدبر، وهذا تقبيح له ولأمه .

(٢) راجع دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجانى صـــ٣٦١ طبعة بيروت ١٩٧٨م

يقول د/ ناصر الدين الأسد فى الانتحال : " الوضع والنحل والانتحال كلها ظواهر أدبية عامة، لا تقتصر على أمة دون غيرها من الأمم، ولا يختص بها جيل من الناس دون غيره من الأجيال، فقد عرفها العرب كما عرفتها الأمم الأخرى التى كان لها نتاج أدبى، وعرفها العصر الجاهلى، كما عرفها العصر الأموى والعصر العباسى، بل كان ولا يزال يعرفها عصرنا الحاضر الذى نحيا فيه، على الرغم من وسائل الحضارة الحديثة التى كانت قمينة أن تبرئ نتاجنا من هذه الظواهر لو كان ثمة سبيل إلى الخلاص منها .

فشيوع الكتابة شيوعا عاما، وانتشار الطباعة بصورها المتعددة وأنماطها الكثيرة ، لم يحولا دون أن ينسب إلى شاعر شعر لم يقله ولا يدرى من أمره شيئا ، ولم يستطيعا أن يذودا عن شعر قاله صاحبه بغيى المعتدين وسطوة المدعين .

ولم يكن الوضع أو النحل أو الانتحال مقصورا على الشعر وحده ، بل لقد شمل كل ما يمت إلى الأدب العام بسبب ، كالنسب والأخبار منذ الجاهلية نفسها، ولقد بدأ الكذب والوضع فى الحديث النبوى فى حياة رسول الله ﷺ .. ولذلك قال الرسول ﷺ "من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" [١].

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية صـ٣٢١، جـ٣١ .

الوضع أو النحل في رأى القدامى :

ورد أن علماء القرن الثانى والثالث الهجريين قد وقعوا على شعر كثير منتحل فى العصرين الجاهلى وصدر الإسلام، ولكن الذى فجر قضية الانتحال واهتم بها أكثر من غيره اثنان هما: عبدالملك بن هشام صاحب السيرة النبوية (المتوفى سنة ٢١٨هـ)، ومحمد بن سلام الجمحى (المتوفى سنة ٢٣١هـ) صاحب كتاب (طبقات فحول الشعراء)٠

أما ابن هشام فعمله فى السيرة قائم على ما صنفه محمد بن إسحاق (المتوفى سنة ١٥٢هـ) فقد تعقب ما أورده ابن إسحاق فاختصر بعضه، ونقد بعضه، ثم ذكر روايات أخرى فات ابن إسحاق ذكرها. يقول بن هشام فى وصف ما قام به من تنقيح للسيرة النبوية:

" .. وتارك بعض ما يذكره ابن إسحاق فى هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شئ، وليس سببا لشئ من هذا الكتاب ، ولا تفسيرا له، ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره.."[١]٠

(١) السيرة النبوية ٤ / ١ ٠

ونقدات ابن هشام لابن إسحاق لا تعدو أربعة أمور:

الأول : أنه يورد أبيات الشعر التى أوردها ابن إسحاق، وينسبها إلى من نسبها إليه ابن إسحاق، ثم يضيف أنها قد تنسب كلها أو بعضها إلى غيره ٠

الثانى : إيراد الحادثة التاريخية كما وردت فى سيرة ابن إسحاق حتى إذا وصل إلى الشعر الذى قيل فى هذه الحادثة أسقطه ولم يثبته لأنه لم يصح عنده ٠

الثالث : أنه يذكر أبياتا من الشعر الذى أورده ابن إسحاق، ويكتفى بها ، ولا يورد باقيها ثم يقول : إن ذلك ما صح له منها ٠

الرابع : أنه يورد الشعر الذى أورده ابن إسحاق كاملا لا يخرم (يحذف) منه بيتا ، ثم يذكر أنها (أى الأبيات) منحولة[١]٠

وهذه الأشعار التى ذكرها ابن إسحاق فى سيرته والتى لم يـر ابن هشام أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها قد وقف عندها ابن سلام وقفات طويلة . فقد قال: " وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه، محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن

---

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد صـ٣٣٧ وما بعدها٠

عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسير ... فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر، أوتى به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا، فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ آلاف السنين؟ والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أى: لا بقية لهم. وقال أيضا: ﴿وأنه أهلك عادا الأولى، وثمود فما أبقى﴾، وقال فى عاد: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ وقال: ﴿وقرونا بين ذلك كثيرا﴾ وقال: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ (١).

وقال ابن سلام كذلك: "ولأبى سفيان بن الحارث شعر كان يقوله فى الجاهلية، فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل، ولسنا نعد ما يروى ابن إسحاق له ولا لغيره شعرا، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم "(٢).

(١) طبقات فحول الشعراء صـ٨، ٩.
(٢) المصدر نفسه صـ٢٠٦.

ويقول ابن سلام أيضا : "فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق ومثل ما رواه الصحفيون لما كانت إليه حاجة، ولا فيه دليل على علم"[1] .

وبهذا يكون التعقب لابن إسحاق فى السيرة ليس لابن هشام وحده، ولكن لابن سلام ايضا .

وإذا كان الانتحال فى الشعر وبخاصة الجاهلى قد لفت النقاد الكبار إليه الأنظار كالأصمعى وغيره عن طريق نماذج ومقاطع شعرية وقفوا عليها، فإنهم لم يفجروا القضية فى صورة كتابات نقدية كما فعل ابن هشام وابن سلام، بل إن ابن سلام كان أكثر من لفت الأنظار إلى ذلك فى كتابه (طبقات فحول الشعراء).

وحديثه عن وضع الشعر الجاهلى ونحله ينقسم قسمين كبيرين:

أولهما: قواعد عامة وأحكام مرسلة يطلق القول فيها إطلاقا، لا يخصص ولا يمثل، وأكثر حديثه عن هذا القسم جاء فى مقدمة كتابه .

وثانيهما : نص على شعراء بعينهم وذكر لشعر قالوه، يذهب ابن سلام إلى أنه موضوع منحول .

(١) طبقات فحول الشعراء صـ١١ .

فمن القسم الأول قوله : "وفى الشعر المسموع شعر مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة فى عربيته، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب، ولا نسب مستطزف ، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شئ منه — أن يقبل من صحيفة، ولا يروى عن صحفى ، وقد اختلف العلماء فى بعض الشعر ،كما اختلفت فى بعض الأشياء، أما ما اتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج منه "(١) .

وروى أن خلاد بن يزيد الباهلى — وكان حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله — قال لخلف ابن حيان الأحمر: "بأى شئ ترد هذه الأشعار التى تروى ؟ قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟ قال: نعم . قال: أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال نعم. قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت"(٢) .

---

(١) طبقات فحول الشعراء صـ٥ ، ٦ .
(٢) الطبقات صـ٧ .

وثانيهما : حديث ابن سلام السابق عن محمد بن إسحاق وصنيعه فى السيرة. ومما قاله عنه كان : " ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه .." الخ ٠

وقال أيضا: " فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد، فزاودا فى الأشعار التى قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم (أى ثقل عليهم) أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء، أو الرجل ليس من ولدهم، فيشكل ذلك بعض الإشكال"[1] ٠

أما القسم الثانى: فيتفرع إلى جدولين: أولهما: ذكر فيه ابن سلام الشعراء وأرسل القول فى شعرهم إرسالا ، من غير تخصيص بشعر بذاته، وثانيهما: وقف فيه عند بيت أو أبيات من شعر الشاعر ونص على أن هذه الأبيات بعينها موضوعة منحولة[2] ٠

---

(١) الطبقات صـ٣٩ ، ٤٠ ٠

(٢) راجع : مصادر الشعر الجاهلى صـ٣٤٧ ناصر الأسد ٠

فمن الأول قوله : " ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه، قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر ... ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر. وكانا أقدم الفحول، فلعل ذلك لذلك، فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير" (١) .

وشك فى شعر عبيد بن الأبرص فقال عنه إنه : "قديم الذكر، عظيم الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب، لا أعرف له إلا قوله:

أقفر من أهله ملحوب ∴ فالقطبيات فالذنوب

ولا أدرى ما بعد ذلك !" .

وشك كذلك فى شعر علقمة بن عبدة، وشعر عدى بن زيد، وشعر الأسود بن يعفر ، وقال عن حسان إنه : "كثير الشعر جيده، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد، لما تعاضهت قريش واستتبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنقى" (٢) .

وذكر أبا سفيان بن الحارث وقال : إن له شعرا كان يقوله فى الجاهلية "فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل، ولسنا نعد ما يروى ابن

---

(١) الطبقات صـ٢٣ .

(٢) الطبقات صـ١٧٩ .

إسحاق له، ولا لغيره شعراء، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم"[١].

وأما الجدول الثانى: فنماذجه كثيرة، ويقف فيه ابن سلام عند بيت أو أبيات بعينها من شعر الشاعر ومنها قوله : "أخبرنى أبو عبيدة عن يونس قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة وهو عليها، فقال: ما أطرفتنى شيئا ، فعاد إليه، فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبى موسى — أى التى مدح بها الحطيئة أبا موسى — فقال : ويحك ! يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به ، وأنا أروى شعر الحطيئة؟ ولكن دعها تذهب فى الناس"[٢].

وذكر ابن سلام بيتين قال: إن الناس يروونهما لأبى سفيان بن الحارث، ثم قال: "وأخبرنى أهل العلم من أهل المدينة : أن قدامة بن موسى بن عمر بن قدامة بن مظعون الجمحى قالها ونحلها أبا سفيان، وقريش ترويه فى أشعارها " [٣].

... إلى غير ذلك من النماذج الكثيرة المنتحلة فى الشعر الجاهلى وابن سلام بذلك يكون قد فجر قضية انتحال الشعر الجاهلى، ومهد

(١) الطبقات صـ٢٠٦ وانظر مصادر الشعر الجاهلى صـ٣٤٧، ٣٤٨ .
(٢) طبقات فحول الشعراء صـ١١ .
(٣) الطبقات صـ٢٠٨ .

الطريق وعبدها للمغرضين من المستشرقين وبعض الدارسين العـرب بالقول والطعن فى الشعر الجاهلى، وإذا كان ابن سلام قد طعـن فـى بعض الشعر الجاهلى فمن تناولوا القضية بالدراسة مـن المغرضـين بعده طعنوا فيه كله ، بل وصل بهم الحال إلـى النيـل مـن الشـعر الإسلامى والقول فى القرآن الكريم .

قضية الانتحال عند المحدثين

قلنا إن أول من فجر قضية الانتحال فى كتاب نقدى هو ابن سلام فى كتابه " طبقات فحول الشعراء" وتابعه فيها كثير من النقاد العرب والمستشرقين وكان أكثر المستشرقين اهتماما بهذه القضية وتماديا فيها محاولا بذل كل طاقاته لنفى شئ اسمه الشعر الجاهلى مرجليوث فانتهز الفرصة وأخذ يفتعل الأدلة التى لا يقتنع بها إلا أحد رجلين إما جاهلا أو مغرضا ومنها :

١ - ينفى أن لا تكون الرواية الشفوية هى التى حفظت الشعر الجاهلى . ولابد أن يكون مكتوبا حتى يحفظ ثم يعود لينفى الكتابة فى الجاهلية ليصل بذلك إلى أنه ليس فى الجاهلية شعر .

٢ - يؤكد أنه نظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم لأن ألفاظ الشعر المعروض لا تخرج كثيرا عن ألفاظ القرآن .

٣ - يتخذ من اتهام بعض النقاد القدامى لبعض الرواة كحماد وجناد وخلف الأحمر سببا لانتحال الشعر الجاهلى. فهو منحول بعد الإسلام فى رأيه .

٤ – أن الشعر المنسوب للجاهلية لا يمثل الوثنيين ولا من تنصروا منهم فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحى ولا الآلهة المتعددة، ومعنى هذا فى رأيه أن الشعر الجاهلى من وضع المسلمين فهو منتحل على الجاهليين .

٥ – ومن دلائله أيضا على أن الشعر منحول على الجاهليين: أن اللغة التى نظم بها الشعر لا تمثل اختلاف اللهجات عند العرب كلهجات القبائل الشمالية العدنانية، واللغة الحميرية فى القبائل الجنوبية وإنما هى بنفس لغة القرآن الفصحى. ولا يريد أن يعترف بأن لغة قريش وهى اللغة السائدة فى القبائل آنئذ هى التى نظم بها الشعراء وتحدث بها الخطباء وجميع العرب فى المحادثات الرسمية وفى الأجناس الأدبية.

٦ – أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة وخاصة اليمنية لا تدل على وجود أى نشاط شعرى فيها، فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك ؟

ورد عليه بعض من النقاد العرب ومن المستشرقين أنفسهم بأنه على فرض التسليم بأن الشعر الجاهلى منتحل فإن الذين قلدوه كانوا

يحاكون نماذج سابقة، ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل سابق كانوا يحاكونه ٠

إذا : فالشعر الجاهلى كان موجودا وما زال وانتحال بعضـــه لا يلغى وجود بقيته ٠

طه حسين وقضية الانتحال

يشكك طه حسين فى الشعر الجاهلى وهو بذلك لم يــزد كثيــرا على ما رآه مرجليوث من التشكيك فى الشعر الجاهلى بل مــن نفيــه يقول طه حسين : "إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شئ، وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام، فهى إســلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين، وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدا ، لا يمثل شيئا ولا يدل على شئ ، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى اســتخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى"[١].

فهو فى قوله هذا لا يبقى على شئ من الشعر الجاهلى إلا القليل الذى لا يعطينا صورة وثيقة لهذا الشعر، ومضى يذكر الأسباب التــى هى ــ من وجهة نظره ــ تدفع الباحث إلى الشك فيه واتهامــه ، ورد هذه الأسباب إلى أن الشعر الجاهلى بصورته التى هو عليها لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، ويردد ما قاله مرجليوث من أن الشعر الجاهلى يخلو من اللهجات العربية فلا يمثلها ولا يمثل التباين بينها وبين لغة حمير . ويزيد فى تشكيكه ليثبت لنفسه

---

(١) فى الأدب الجاهلى صــ٦٤ ط١ .

أن الشعر الجاهلى منتحل بعد ظهور الإسلام فيقول: إنه عرض حيـــاة الجاهليين على القرآن الكريم فوجده يمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلا قويا ، فهو يجادل اليهـــود والنصـــارى والصـــابئة والمجـــوس ويهاجمهم كما يهاجم الوثنيين والوثنية . بينما نجد الشعر ـــ وهذا قوله ـــ بريئا أو كالبرئ من الشعور الدينى القوى والعاطفة المتسلطة على النفس.

يقول د/ شوقى ضيف فى رده على طه حسين : "وقياس الشعر الجاهلى فى هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقـــوض ، لأن القرآن كتاب دينى يريد أن يجمع العرب علـــى الإســـلام فطبعـــى أن يعرض لدياناتهم ويناقشها، ويبين ما فيها من ضلال، بخلاف الشـــعر، فإن شاعرا لم يدع لدين جديد، ومع ذلك فإن فى كتاب الأصنام لابـــن الكلبى ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصويرا دقيقا"[١]

وينتقل طه حسين إلى الحياة العقلية والسياسية ويرى أنهما غير واضحتين فى شعرهم المنسوب إليهم وهذا دليل على أن هذا الشـــعر ليس لهم وإنما هو منحول عليهم. وكأن طه حسين يريد لهم حياة عقلية راقية وحياة سياسية راقية أيضا مع أن هؤلاء قد غلبت عليهم البـــداوة

(١) العصر الجاهلى صـــ١٧١ ط٤ .

باستثناء قريش التى كانت لها اتصالات تجارية هنا وهناك . فارتقت عقليا وسياسيا عن غيرها من بقية البقاع فى الجزيرة العربية، ومع هذا فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أتباع الروم والمناذرة من أتباع الفرس، ويمدحونهم ويهجونهم، وكان للأعشى باع طويل فى ذلك .

وأما الحياة الاقتصادية : فيتحدث عنها طه حسين ويرى أننا لا نظفر بشئ ذى غناء فى شعرهم يمثل لنا هذه الحياة، بينما يمثل لنا الذكر الحكيم العرب طائفتين : طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة وطائفة الفقراء المعدمين . وليس فى الشعر الجاهلى ما يصور ذلك ، إنما فيه أن العرب جميعا أجواد كرام على حين يلح القرآن الكريم فى ذم البخل والبخلاء .

ويرد عليه د/ شوقى ضيف بقوله : " وهذا القياس أيضا لا يستقيم، لسبب بسيط وهو أن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الأغنياء والفقراء، وأيضا فإن شعراءهم إذا كانوا قد أكثروا فى مدحهم وفخرهم من ذكر الكرم فإنهم أكثروا فى هجائهم من ذكر البخل وشح النفس، ولابد أن نلاحظ أن كثيرا من القرآن نزل فى قريش التاجرة التى بلغ كثير منها مبلغا عظيما فى الثراء والتى كان يشيع فيها الربا أضعافا مضاعفة[1] .

---

(١) العصر الجاهلى صـ١٧٢ ، ط٤ .

وردد طه حسين أيضا ما قاله مرجليوث: من أن اللغـة التـى - صيغ بها الشعر الجاهلى لا تمثل اللغتين الشائعتين فى الجزيرة، لغـة الحميريين فى الجنوب ولغة العدنانيين فى الشمال، ويشكك فى شعراء القبائل اليمنية التى هاجرت من مواطنها الأصلية فى الجنـوب إلـى الشمال مثل كندة وشاعرها امرئ القيس . والمعروف أن هذه القبائـل التى هاجرت من الجنوب إلى الشمال، هاجرت قبل العصر الجـاهلى وتعربت ، فهى ليست يمنية ولا جنوبية من الوجهة اللغوية ، وإنما هى شمالية لغة وشعرا وحياة كاملة بكل أنواعها ٠

ووقف عند اللهجات الشمالية فى الجاهلية وهـى التـى تمثلهـا - القراءات القرآنية ، ولكن الشعر الجاهلى لا يمثلها وهذا دليل ـ مـن وجهة نظره ـ على عدم صحته . ونسى أو تناسى أن لهجة قريش قد عمت منذ أوائل القرن السادس الميلادى واتخذها الشعراء لغـة لهـم ينظمون بها أشعارهم مترفعين عن لهجات قبائلهم المحلية، ففى قريش الأسواق الأدبية والتجارية التى يأتيها الناس من كل حـدب وصـوب والجميع يتحدث بلغة قريش التى أراد الله تعالى أن يجمع الناس عليها، حتى إذا ما نزل القرآن الكريم بها فهمه الناس ودخلوا فـى ديـن الله أفواجا ، فالقرآن الكريم ليس لقريش وحدها ولكنه للناس جميعا حيـث

يقول الله تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ ويقول تعالى :

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ .

- إذن فلغة قريش هى الأساس وبها نظم الشعراء لينالوا جوائز الحكام فى سوق عكاظ ومن أراد لشعره السيرورة بين الركبان نظم بلغة قريش وليس بلهجة قبيلته التى ربما لا تفهمها القبائل الأخرى فلا ينظر أحد إلى شعره ولا يهتم به . وهذا يكفى للرد على طه حسين فى هذه النقطة .

- ويتشكك طه حسين فى شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية .

ولا أدرى لماذا يتشكك فيها ـ أى فى أبيات الشواهد ـ مع أن المستشهد بها علماء ثقات وعلى فرض أنها مشكوك فى صحتها فهى أبيات فردية واتهامها ينبغى أن يحصر فيها وألا يتعداها إلى الشعر الجاهلى عامة .

- **ويتحدث طه حسين عن أسباب نحل الشعر** : ويبسط الحديث فى هذه القضية معتمدا على ملاحظات النقاد القدامى، إلا أنه يوسع ويضخم ويحاول الاستنباطات من أجل النيل من الشعر الجاهلى لدرجة

أن يستشهد بأشعار إسلامية على أنها جاهلية وما هى من الجاهلية فى شئ ومنها أشعار لحسان قالها فى قريش فى الإسلام وقد وضح ابـــن سلام من قبل هذه المسألة وحذر من الأشعار التى وضـــعتها قـــريش على لسان حسان ٠

ثم ينتقل طه حسين من الناحية السياسية إلـــى الناحيـــة الدينيـــة فيشكك فى الأشعار التى قيلت على لسان شعراء جاهليين تبشر ببعثـــة الرسول ﷺ وقد دونها ابن إسحق واحتفظ بها ابن هشام فلـــم يحـــذفها ضمن ما حذفه مما تشكك فيه٠

وقد حذر ابن سلام من هذا النوع من الشعر أيضا وخاصـــة أن ابن إسحق حينما دون السيرة النبوية لم يكن ليوثق الشعر الذى يدونـــه فى السيرة النبوية فحدث الخلط فى الرواية وفى قائل الشعر . فلم يكن ابن إسحاق ثقة عند النقاد القدامى فيما دونه من الشعر خاصة. ولذلك حين بدأ ابن هشام عمله فى السيرة بعد ابن إســـحاق حـــذف كثيـــرا وأضاف كثيرا من الشعر ونفخ فى روايات السيرة النبوية كثيرا بعـــد ابن إسحاق . وكما قلنا قد نبه ابن سلام لذلك . كما حذف ابن هشـــام الشعر الذى يضاف إلى الجن وإلى الأقوام البائدة كالشعر الذى أضيف إلى عاد وثمود والأمم القديمة البائدة ٠

- وكان ينبغى لطه حسين أن يتوقف عند ذلك ، ولكنه تمادى فـــى تشكيكه وطعنه فى الشعر الجاهلى باذلا كل جهده فى استنباط الأدلـــة الوهمية التى يدين بها الشعر الجاهلى .

- وبدلا من أن يتصدى للأشعار التى ذكرها القصاص والأشـــعار التى ذكرها الشعوبيون على ألسنة الجاهليين لتثبت مثالبهم ، ولتثبــت فى المقابل ثناءهم على الأعاجم . ويردها إلى أصلها الشعوبى وأنهـــا فعلا قيلت فى الإسلام وألصقت بالجاهلية بدلا من ذلك . إذا به يتخــذ منها منفذا للطعن فى الشعر الجاهلى .

- وينتقل طه حسين إلى الدراسة التطبيقية لطائفة مـــن الشـــعراء فيتشكك فى شعر امرئ القيس لأنه فى الأصل يمنى ولغته قرشية. مع أن المعروف عن امرئ القيس وغيره من شعراء كندة وغيـــرهم مـــن الشعراء اليمنيين أنهم قد نزحت أصولهم من اليمن منذ زمن بعيد ربما قبل العصر الجاهلى بزمن ليس بالقصير إلى الشمال وصارت حياتهم بين العدنانيين الشماليين ثم كانت لغة قريش ـــ كما أسلفنا من قبـــل ـــ هى الغالبة، فكان جل الشعر بها إن لم يكن كله فلا غرابة فى ذلك .

- وتشكك بعد ذلك فى شعر علقمة الفحل وشعر عبيد بن الأبرص، وعمرو بن قميئة والمهلهل وعمرو بن كلثوم والحـــارث بـــن حلـــزة

وطرفة والمتلمس والأعشى، معتمدا فى تشككه على انطباعه الـذاتى المبنى على رفضه الداخلى لكل ما هو جاهلى، ولو أنه وازن موازنة دقيقة بين أشعارهم وأشعار الإسلاميين معتمداً فـى موازنتـه علـى التسامى والنزاهة لما طعن فيهم وتشكك فى أشعارهم ، كما أنـه لـو استقصى آراء الرواة الثقات لأعانه ذلك كثيرا فى تحقيق أشعارهم.

ثم يعود طه حسين بعد هذا الهدم كله فلا يستبعد أن يكون هناك شعراء مضريون وشعر مضرى فيقول : " لكننا لا نشك أيضا فى أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ، ولم يبق لنا منه إلا شئ قليل جدا لا يكاد يمثل شيئا ، وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف والنحل، حتى أصبح من العسـير جدا إن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته"[1].

ويرى أنه من الخطأ أن نكتفى فى الحكم على الشعر المضـرى بالسند، ومن يحمله من الرواة، أو بالغرابة والسهولة ، ذاهبا إلـى أن الباحث فى هذا الشعر ينبغى أن يحكم فيه مقياسا مركبا من خصائص فنية يشترك فيها طائفة من الشعراء؛ بحيث يكونون مدرسة كمدرسـة أوس بن حجر التى تتألف منه ومن زهير وابنه كعب والحطيئة ، فإن

(١) فى الأدب الجاهلى صـ٢٧٠ .

لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شـعرها وسلامته من الوضع والانتحال . وكأن طه حسين بهذا الرأى يهدم كل شكوكه فى الشعر الجاهلى ، إذ أنه رجع يسلم بصحة بعض جوانبـه ودواوينه . ولو أنه سلك هذا المسلك من أول الأمر لكان رأيه أجـدر بالقبول . وبخاصة أن من الشعر الجاهلى شعرا مشكوكا فيه فعـلا ، وهذا الذى أثار تلك القضية والضجة الكبيرة حوله ، ولكن ليس معنى ذلك أن نشك فيه كله ونرفضه لأن بعضه دخله الشك بفعـل الـرواة. فهذا إجحاف وجور للشعر الجاهلى .

يقول الدكتور شوقى ضيف : " والحق أن الشعر الجاهلى فيـه موضوع ـ أى منتحل ـ كثير ، غير أن ذلك لم يكـن غائبـا عـن القدماء فقد عرضوه على نقد شديد ، تناولوا به رواتـه مـن جهـة ، وصيغه وألفاظه من جهة ثانية ، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقـد داخلى وخارجى دقيق ، ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكـم مـن التحرى والتثبت، فكان ينبغـى أن لا يبـالغ المحـدثون مـن أمثـال مرجليوث وطه حسين فى الشك فيه مبالغة تنتهى إلى رفضـه ، إنمـا نشك حقا فيما يشك فيه القدماء ونرفضه، أما ما وثقوا فيه رواة أثبات من مثل أبىعمرو بن العلاء والمفضل الضبى والأصمعى وأبى زيـد فحرى أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته "[1].

---

(١) العصر الجاهلى ط٤ صـ١٧٥ .

نماذج من انتحال الشعر الجاهلى

لقد اتهم خلف وغيره من الضالعين فى الشعر الحافظين له من نظم الشعر ونسبته إلى شعراء الجاهلية. يقول صاحب الأمالى عن خلف : إنه كان يقول القصيدة، ويدخلها فى دواوين الشعراء، فيقال: إن القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى التى أولها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ∴ فإنى إلى قوم سواكم لأميل

هى له[١]:

وفى هذا القول ما يجافى الحقيقة لجمهور الأدباء والنقاد، فالقصيدة بما فيها من بناء أعرابى موغل فى الإغراب، وحياة الصحراء، وأخلاق البداوة ، والألفاظ الخشنة والغريبة ، ترجح أنها للشنفرى لا لغيره ممن اتهموا بالنحل والتدليس، وكثير من الأدباء والنقاد القدامى قالوا بذلك كالتبريزى والبغدادى والعينى وغيرهم[٢] ولكن الفريق الذى زعمها لخلف على رأسهم ابن دريد، والظاهر أن من جاء بعده روى عنه.

---

(١) الأمالى لأبى على القالى ١/ ٥٥ .
(٢) انظر حماسة أبى تمام ١/ ٢٣٤، وخزانة الأدب ٢/ ١٧٢، والشنفرى شاعر الصحراء الأبى صـ١٠٥ د/ محمود حسن أبوناجى .

يقول بروكلمان : "أما أبو على القالى فقد صرح فى الأمالى أنها من صنع خلف الأحمر، وقال أبو على ذلك عن أبى بكر بن دريد"[١].

ثم يرد بروكلمان على أبى على القالى فيقول: " ولكن القصـــائد التى وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائما بعمود الشعر القديم وطابعـــه، أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل، ثم يقول: وعلى حين يجعل الشاعر الجاهلى وصف الطبيعة مـــن الجبـــال والفيـــافى وغيرها غرضا مقصودا لذاته يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابـــة منظر أساسى لتصوير الإنسان نفسه وأعماله"[٢].

إذا ليس هناك ما يحملنا على موافقة بعـــض قـــدامى اللغـــويين والرواة ومن اقتفى أثرهم من المستشرقين على نسبة اللاميـــة لغيـــر الشنفرى ٠

وإذا صح هذا الحديث عن النبى ﷺ الذى يقـــول فيـــه: علمـــوا أولادكم لامية العرب ، فإن فيها القناعة والشجاعة " ٠

وإذا صح هذا الأثر عن عمر بن الخطاب ﷺ : "علموا أولادكم لامية العرب، فإنها تعلمهم مكارم الأخـــلاق" فقـــد صـــحت اللاميـــة للشنفرى دون غيره ٠

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١/ ١٠٦ ٠
(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها ٠

ويرشح لذلك أن الطغرائى (ت٥١٤) حين نظم لاميته ، تغنى بها كثير من الأدباء والنقاد ورددوها فى جميع الأوساط على أنها معارضة للامية العرب المنسوبة للشنفرى على الرغم من الفارق بين اللاميتين فى اللفظ وحركة حرف الروى وبعض المحتوى، فضلا عن شجاعة الشنفرى وقناعته وروحه الوثابة، وذاتيته الواضحة فى قصيدته، وفخره بصفاته التى بثها فى قصيدته ، ويقال: إن الطغرائى لم ينظم قصيدته اللامية المشهورة إلا بعد أن تأكد أن هذه اللامية للعرب حقيقة، فأراد أن يعارض الشنفرى بها، وهذا ما يرجح أن لامية العرب للشنفرى[1].

وقال الأصمعى : سمعت خلفا الأحمر يقول: وضعت على النابغة الذبيانى القصيدة التى يقول فيها :

خيل صيام وخيل غير صائمة ∴ تحت القتام وأخرى تعلك اللجما[2]

وهذا الاعتراف من خلف دليل على أنه تاب إلى الله، وأثمرت التوبة التنبيه على ما وضعه من القصائد الشعرية ونسبه إلى الشعراء الجاهليين كهذه الرواية عن الأصمعى، وكان من قبل قد أظهر براعته

---

(١) انظر : الشنفرى شاعر الصحراء الأبى ١٠٠ ــ ١٠٧ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين ١٨٠ للزبيدى (ت٣٧٩هــ) .

فى الإبداع الشعرى ، وهو ينافس العلماء والرواة، ويجوز أن يكون قد أدرك أن ما صنعه من وضعه الشعر ونسبته للشعراء فيه خطر علــى العلم والرواية الشعرية، ولذلك رجع عنه وبينه ونبه عليه ، ومع ذلــك نأخذ روايته بحذر وحيطة "على أنه بعد معرفة هذا لا ينبغى لــبعض الأدباء أن يشقوا على أنفسهم ، ويبالغوا تلك المبالغة التى يردون بهــا كثيرا من الشعر الجاهلى، ويشككون فى كثرته وصحته، وبخاصة أن الإسلام لم يحرم الشعر كله، وأن النبى ﷺ استمع إليه، وكافأ عليه، ... بل حض الصحابة عليه دفاعا عن الدعوة الإســلامية وأن الصــحابة ومنهم أبوبكر وعمر كانوا يتمثلون به فى المناسبات المختلفة، بل كان عمر نقادة للشعر ، نفاذا لمعرفة مراميه"[١].

وهذا عدى بن زيد الذى قال عنه ابن سلام : كان يسكن الحيرة، ويراكن الريف، فلان لسانه، وسهل منطقه، فحمل عليه شــئ كثيــر ، واضطرب فيه خلف الأحمر ، وخلط فيه المفضل فأكثر[٢].

وقال بروكلمان عن علقمة : "أما مطارحته لامرئ القيس فهــى من قبيل القصص" ويقصد بذلك أنها مخترعة منحولة وغير صحيحة.

---

(١) موضوعات ونصوص وقضايا حول الشعر الجاهلى صــ٢٨ د/ محمد أحمد سلامة ، وانظر : أثر الإسلام فى الشعر للمؤلف.
(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/ ١٤١ .

وهذه المطارحة تتمثل فى أن علقمة بن عبدة التميمى تذاكر الشعر مع أم جندب الطائية زوج امرئ القيس، وكان امرؤ القيس حاضرا فقال لعلقمة: أنا أشعر منك ٠

وقال علقمة : بل أنا أشعر منك ٠

فقال: قل ، واقول ، وتحاكما إلى أم جندب ٠

فقال امرؤ القيس قصيدته التى مطلعها :

خليلى مرا بى على أم جندب ∴ نقضى لبانات الفؤاد المعذب

ثم قال علقمة معارضا له على نفس القافية والروى والوزن العروضى وهو بحر الطويل قصيدته التى مطلعها:

ذهبت من الهجران فى غير مذهب ∴ ولم يك حقا كل هذا التجنب

واستطرد كل منهما فى وصف فرسه وناقته، فلما انتهيا تحاكما إليها، فحكمت لعلقمة بالجودة والسبق، فقال لها امرؤ القيس: بم فضلت شعره على شعرى ؟

قالت: لأن فرس ابن عبدة أجود من فرسك؟ قال : وبماذا ؟ قالت: إنك زجرت وحركت ساقيك وضربت بسوطك، تعنى قوله فى وصف فرسه:

فللساق ألهوب وللسوط درة ∴ وللزجر منه وقع أجرد مهذب

أما علقمة فقال:

فأقبل يهوى ثانيا من عنانه ∴ يمر كمر الرائح المتحلب

ففرسه أجود من فرسك، لأنه أدرك الخيل ثانيا من عنانه من غير أن يضربه بسوط أو يحرك ساقيه .

فقال امرؤ القيس: ما هو بأشعر منى، ولكنك له عاشقة، وطلقها فتزوجها علقمة الفحل[١] .

ويجزم د/ طه حسين بأن القصيدتين منحولتان، ويعلق على قصيدة علقمة بقوله : "إنك لتحس فيها رقة إسلامية ظاهرة، على أن هذين الشاعرين قد تواردا على معان كثيرة، بل على أبيات كثيرة ، تجدها بنصها فى القصيدتين معا، وعلى أن البيت الذى يضاف إلى علقمة وبه ربح القضية يروى لامرئ القيس وهو :

فأدركهن ثانيا من عنانه ∴ يمر كمر الرائح المتحلب

---

(١) الموشح للمرزبانى ٢٨ ــ ٣٢ والنقد الأدبى فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام د/ محمد إبراهيم نصرصــ٢٤، ٢٥ .

والبيت الذى خسر به امرؤ القيس القضية يروى لعلقمة وهو :

فللسوط ألهــوب وللســـاق درة ∴ وللزجر منه وقع أهوج متعــب

ثم يقول : وما نظن هاتين القصيدتين وأمثالهما إلا أثرا من آثار هذا النحو من التنافس بين العلماء مـــن أهـــل الأمصـــار الإســـلامية المختلفة"[١].

وزعم الرياشى أن كثيرا من الشعر المدون فى ديـــوان امـــرئ القيس منحول عليه ، وهو لفتيان من أصحابه مثل عمرو بن قميئة[٢].

وقال بروكلمان عن أمية بن أبى الصلت: أكثر مـــا روى مـــن شعره منحول عليه ما عدا مرثيته لقتلى بدر التى منع النبـــى ﷺ مـــن إنشادها، ثم يضيف: ولابد أن تكون هذه الأشعار قد نحلت لأمية فـــى عهد مبكر لا يتجاوز القرن الأول للهجرة[٣].

---

(١) فى الأدب الجاهلى طبعة ١٣ صـــ٢٠٨ .
(٢) تاريخ الأدب العربى ١/ ٩٩ بروكلمان .
(٣) المرجع نفسه ١/ ١١٣ .

الأغراض الشعرية

إذا كان الشعر تعبيرا عن العواطف والانفعالات الموحية التـــى يتدفق بها الوجدان، فإن الشاعر الجاهلى قـــد عبـــر عـــن مشـــاعره وعواطفه استجابة للمثيرات التى حركت أحاسيسه ومشاعره، فصـــور انفعالات النفس وأحاسيسها فى كل الظروف والأحوال والمناســـبات ، وكان للبيئة الجاهلية بمظاهرها العامة والخاصة أثر كبير على نفـــس الشاعر ابن البيئة الجاهلية فحركت البيئة وجدانه، وألهبت عواطفـــه، وأثارت مشاعره، فعبر عن خلجات نفسه، ونبضات حسه فـــى شـــتى المناسبات وجميع الأغراض الشعرية المعروفـــة كالوصـــف والفخـــر والغزل والمديح والهجاء والرثاء والوعيد والإنذار والتهديد والحكمـــة .. إلى غير ذلك من الأغراض الشعرية التى تحتوى علـــى المعـــانى والعواطف الإنسانية فى كل مجالات النفس وأحوالها.

وحينما نتأمل التراث الشعرى الجاهلى نجد أنهم تغنـــوا بطيـــب أعراقهم ومكارم أخلاقهم ، وأشادوا بأبطالهم وخلدوا أيامهم وأمجادهم وعلت أصواتهم فخرا بما حققوه من نصر وغنائم ، وبما أصابوا بـــه أعداءهم من الفجائع والهزائم، وذرفوا الدمع سخينا على ضـــحاياهم، ذاكرين أفضالهم، ومشيدين ببطولاتهم وتضحياتهم، آخذين العهد علـــى

أنفسهم بالثأر لهم فى عشرات من أعدائهم إلــى أن تهـدأ نفوسـهم ، وتطمئن قلوبهم ، ونجدهم يخلدون ذكرياتهم وأمجادهم فى نشوة وعلـو وكبرياء، ويمدحوا للتكسب واعترافا بالفضل، ويصفون كل ما وقعـت عليه عيونهم من مظاهر الطبيعة المحيطة بهم ، فأتوا فى كـل ذلـك بروائع الصور الفنية الجميلة فى شعرهم.

ولا نجد الوحدة العضوية أو الموضوعية محققـة فــى الشـعر الجاهلى، فلا نجد القصيدة ــ وبخاصة القصائد الطوال ــ تتألف مـن غرض واحد ، أو تتماسك وتتسلسل معانيها وتترابط فيما بينها بحيـث تكون وحدة واحدة، ولكن القصيدة كانت فى معظم الأحوال تتألف من أكثر من فن من فنون الشعر، فتحتوى القصيدة الواحـدة مـثلا علـى الغزل والوصف والفخر، والهجاء والوعيد، أو على الغزل والوصـف والمدح .. وقد تشتمل القصيدة على أغراض أكثر من هذه ، كل ذلـك راجع لهوى الشاعر وللمثيرات التى تحرك عاطفته ومشاعره .

والقصيدة الطويلة التى تضم أغراضا عدة ، ربما كانت تؤلـف كلها بموضوعاتها وفنونها المختلفة دفعة واحدة، حيـث إن القصـيدة تكون فى أول الأمر موضوعا واحدا هو الأساس وهـو الـذى أثـار عاطفة الشاعر وانفعلت به نفسه، ولكن التقاليد تقضى بأن يبدأ بالغزل

ثم يجره الحال والمقام إلى أغراض أخرى يتحدث عنها بعد الغزل فيمكن أن يكون الغرض الأساسى منها أو يأتى بعدها ، فخواطر الشاعر تلاحقه وتتوارد عليه أثناء نظمه للقصيدة الواحدة، وربما جاءت كل هذه الأغراض فى سياق واحد تبعا لمقتضيات الحديث، وطبيعة نفس المتحدث . بحيث يكون هناك انسجام تام وإيحاء بين الغرض الأصلى والأغراض الأخرى التى لا تعدو أن تكون ممهدة له أو متفرعة عنه، والوحدتان الفنية والنفسية ممتدتان فى القصيدة كلها من أولها إلى آخرها.

وفى مدرسة الحوليات والتجويد الشعرى كانت القصيدة الواحدة التى تشتمل على أكثر من موضوع شعرى تؤلف على فترات ، بمعنى أن الشاعر يؤلف أبياتا فى موضوع، ثم تمضى فترة من الوقت قد تطول وقد تقصر، فتعن له أبيات أخرى فى موضوع آخر ويأتى بها على نفس الوزن والقافية .. وهكذا يتوالى النظم فى الموضوعات المختلفة فى القصيدة الواحدة ثم يربط الشاعر بين هذه الموضوعات بما يراه مناسبا ، فتجئ القصيدة الواحدة متعددة الموضوعات والأغراض.

وكان شعراء هذه المدرسة يعيدون النظر مرارا وتكرارا فى كل قصيدة يؤلفونها، ويتــوافرون عليهــا بــالتنقيح والتهــذيب والحــذف والإضافة ، ويتلوها الشاعر على مسامعه ومسامع غيره، ويقبل فيهــا النقد ويصلح من شأنها ، حتى تصل إلى المكانة اللائقة مــن وجهــة نظره، ويدخل بها فى مجال التنافس والســبق فــى الميــدان الفنــى والشعرى ٠

وهذه هى أغراض الشعر الجاهلى التى سنقف عليها إن شاء الله تعالى :

١ـ الوصف :

لقد كان غرض الوصف من أكثر الأغراض الشعرية شيوعا فى الشعر الجاهلى. وذلك لأن الشاعر ابن بيئته، وعادة يصف مــا تقــع عليه عينه وقد وقعت عيونهم على الطبيعــة بكــل معالمهــا الحيــة والصامتة والساكنة والمتحركة، فصور الشاعر السماء بلونها وشمسها وقمرها ونجومها ، وصور الصحراء وما فيها مــن جمــاد وحيــوان وإنسان ، وما يعتريها من رياح وسحب وأمطــار .. وغيرهــا مــن الظواهر المناخية المختلفة . فالشاعر الجاهلى قد صور البيئة العربية التى عاش فيها تصويرا عاما استوعب فيه جميع ظواهر الحيــاة فــى

ذلك العصر. ومن ذلك تصوير امرئ القيس لبعض الظواهر المناخية والمعالم البيئية فى قصيدته اللامية المشهورة التى مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب منزل ∴ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

يقول فى الوصف[١]:

أصاح ترى برقا أريك وميضه ∴ كلمع اليدين فى حبـــى مكلـــل[٢]

يضئ سناه أو مصابيح راهــب ∴ أهان السليط فى الذبال المفتل[٣]

قعدت وأصحابى له بين ضارج ∴ وبين العذيب بعـــدما متأمـــل[٤]

علاقطنا بالشيم أيمـــن صـــوبه ∴ وأيسره على الســـتار فيـــذبل[٥]

فأضحى يسح الماء فى كل تلعة ∴ يكب على الأذقان دوح الكنهبل[٦]

---

(١) شرح المعلقات للتبريزى .
(٢) وميضه:بربقه.كلمع اليدين:حركتهما.حبى:سحاب.مكلل: بعضه فوق بعض
(٣) السنا: الضوء. السليط: الزيت.الذبال جمع ذبالة وهى الفتلة والجمع فتائل .
(٤) أى قعدت لذلك السحاب أنظر من أين يجيئ المطر. وضـــارج والعـــذيب: موضعان بعدما متأمل : أى يا بعد ما تأملت أى تبينت . وما زائد ومتأمـــل مخفوض بإضافة بعد إليه .
(٥) قطن : جبل فى أرض بنى أسد . الشيم: النظر إلى البرق أين هو. يقال: شم البرق: أى انظر أين هو. الستار ويذبل جبلان . الصوب: نزول المطر .
(٦) يسح : يصب. التلعة: مسيل الماء. الأذقان : شجر. ويكب علـــى الأذقـــان معناه: يقلع الشجر. الدوح: العظام من الشجر، جمع دوحة الكنهبل: شجر من أعظم العضاة ، وواحد العضاة عضة .

ومر على القنان مـــن نفيانـــه ∴ فأنزل منه العصم من كل منزل[١]

كأن ثبيرا فى عـــرانين وبلـــه ∴ كبير أناس فى بجـــاد مزمـــل[٢]

كأن ذرا رأس المجيمر غـــدوة ∴ من السيل والأغثاء فلكة مغزل[٣]

وألقى بصحراء الغبيط بعاعـــه ∴ نزول اليمانى ذى العياب المحمل[٤]

كأن مكـــاكى الجـــواء غديـــة ∴ صبحن سلافا من رحيق مفلفل[٥]

كأن السباع فيه غرقـــى عشـــية ∴ بأرجائه القصوى أنابيش عنصـــل[٦]

---

(١) القنان : جبل فى بنى أسد . النفيان: أصله ما تطـــاير مـــن الرشـــاء عنـــد الاستقاء. وهو هنا: ما شذ عن معظمه . العصم: تيوس الجبـــال واحـــدها: أعصم، وهو الذى يخالط بياضه حمرة .

(٢) ثبير : جبل بمكة. عرانين: أوائل . الوبل : المطر العظيم . البجاد : كساء غليظ مخطط للأعراب . مصنوع من وبر الإبل وصوف الغنم . مزمـــل : ملتف . يريد أن الجبل حينما غطاه الماء كان رأسه يضرب إلـــى الســـواد، والماء والثلج حوله أبيض. فهو يشبه شيخا فى كساء مخطط .

(٣) المجيمر: أرض لبنى فزارة . الغثاء: ما يحمله السيل. فلكـــة مغـــزل: مـــا استدار فوق رأسه .

(٤) صحراء الغبيط: أرض بنى يربوع. بعاعه: ثقله. العياب : الحقائب . جمع عيبة. ومعناه : أنه ألقى بمياهه فخرج بسببه نبات مختلف ألوانه كـــاختلاف ألوان الثياب اليمانية حتى ينشرها التاجر فيكون بعضها أحمـــر ، وبعضـــها أصفر، وبعضها أخضر .

(٥) مكاكى: جمع مكاء ، وهو طائر. الجواء: البطن العظيم من الأرض، وقيل هو ما اتسع من الأرض. صبحن : شربن منالصباح . الســـلاف: أول مـــا يعصر من الخمر. الرحيق : صفوة الخمر. المفلفل: الذى ألقيت فيه التوابل.

(٦) العنصل: بصل برى يعمل منه خل شديد الحموضة لا يقدر علـــى أكلـــه . الأنابيش: جماعات من العنصل يجمعهـــا الصـــبيان ، ويقـــال: الأنـــابيش: العروق، الأرجاء: النواحى. وهنا يشبه السباع الفرق بتلك الأنـــابيش مـــن العنصل.

فالشاعر هنا يتأمل فى البرق والسحب ومظاهر الطبيعة ويصفها وصفا دقيقا فهو يصف البرق ولمعانه وسط السحاب فى سرعة خاطفة تشبه حركة اليدين ويرسل ضوءه فى الجهات المختلفة كأنما هو مصباح قوى ملئ زيتا ، ثم ينظر إلى السحاب الذى أنزل مطره مدرارا عقب هذا البرق الخاطف فإذا الماء يسيل سيلا جارفا على الأرض لدرجة أنه يقتلع الأشجار والمنازل ويخرج الوحوش من أوكارها، فتجرى هاربة تبحث عن مأوى بعد أن دمر السيل مواطنها، ولكن أنى لها ذلك فإن السيل كان أقوى منها، حيث جرفها تياره فلقيت حتفها، ورؤيت من مخلفات هذا السيل ضمن الغثاء الذى ملأ الأرجاء، وكأنها أنابيش عنصل . أى عروق البصل المترامية على الأرض فى الأرجاء المختلفة. ولكن المكاكى من الطيور فرحت وابتهجت، وأخذت تغرد وتشدو بأصوات عذبة تشبه الألحان الجميلة ، لهذا السيل الذى أنبت الأرض وملأها بالأزهار والأثمار والألوان المختلفة، وعمت الفرحة الطيور والناس جميعا .

وإذا كان الوصف كثيرا فى الشعر الجاهلى للبرق والسحب والطيور والأمطار وما ينتج عنها من خضرة الأرض وفرحة الناس. فإن الأكثر من ذلك وصفهم للخيل والإبل، بحيث لا نجد قصيدة من

القصائد الطوال إلا وفيها وصف لهما دقيق فى السلم وفى الحرب، ولم يكن الوصف عاما مجملا ، ولكنه وصف مفصل لجميع أجزاء جسم الخيل والإبل ولحركتها وسرعتها وقوة تحملها . ومن القصائد التى صورت الإبل بجميع أجزائها معلقة طرفة بن العبد، التى يقول فيها[١]:

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره ∴ بعوجاء مرقال تروح وتغتدى[٢]
أمون كألواح الأران نسأتها ∴ على لاحب كأنه ظهر برجد[٣]
جمالية وجناء ترى كأنها ∴ سفنجة تبرى لأزعر أربد[٤]

---

(١) ديوان طرفة بن العبد. وشرح المعلقات للتبريزى .

(٢) أمضى الهم: أذهبه وأبعده عنى . ويجوز أن يكون "الهم" هنا معناه العزم فيكون معنى "أمضى" أنفذ. احتضاره : حضوره. عوجاء: ضامرة لحق بطنها بظهرها، أو لا تستقيم فى سيرها لفرط نشاطها. مر قال: صيغة مبالغة من الإرقال. وهو الإسراع ، أى السرعة الشديدة . وإنما خص العوجاء، لأنها ذات أظافر قد اعتادت ذلك، فهو أصبر لها وأمضى. تروح وتغتدى: تصل أول النهار بآخره فى السير . يقول : إنى أبعد الهم عن حضوره لى ، وأنفذ إرادتى بناقة ضامرة نشيطة فى سيرها، تصل الليل بالنهار فى أسفارها.

(٣) أمون : يؤمن عثارها . الأران: تابوت الموتى. الألواح: جمع لوح ، وهى كل خشبة عريضة، شبه الناقة بألواح الأران لسعة جنبيها، وشدة خلقها. نسأتها: ضربتها بالمنسأ وهى العصا . لاحب: منقاد، تظهر فيه آثار المشى، برجد : كساء مخطط، ولم يقصد الظهر دون البطن، أى أن الناقة لا تخشى عثراتها فراكبها آمن، وهى قوية موثقة الخلق. ويقول : أزجرها بالعصا فتنطلق مسرعة على طريق مألوف مطروق ، قد ظهرت آثار المشى فيه.

(٤) جمالية: ناقة تشبه الجمل فى قوة الخلق. الوجناء: المكتنزة اللحم. ترى: تعدو وتسرع . سفنجة: نعامة. تبرى: تعرض. الأزعر: ذكر النعام القليل الشعر. أربد: فيه ربدة وهى الغبرة، أى لون يميل إلى لون الرماد . يقول: إن هذه الناقة قوية كالجمل ، مكتنزة اللحم، وهى فى عددها كأنها نعامة تعرض لظليم (ذكر النعام) قليل الشعر رمادى اللون .

تبارى عتاقا ناجيـــات وأتبعــت ∴ وظيفا وظيفا فوق مور معبــد[١]

تربعت القفين فى الشول ترتعى ∴ حدائق مولى الأســرة أغيــد[٢]

وهذا عميرة بن جمل يصف الصحراء وما فيها من آثار دارسة وحيوانات مفترسة وغير مفترسة،ويتحدث عن البقاع المختلفة والأماكن المرتفعة والوحوش الضارية فيها والتى اتخذتها أماكن للسكنى، كمـــا

---

(١) تبارى : تسابق وتغالب. عتاقا: غبلا كراما. ناجيات: مسرعات فى السير. الوظيف فى اليد: من الرسغ إلى المنكب، وفى الرجل: مـــن الرســـغ إلـــى العرقوب. ومعنى "أتبعت وظيفا وظيفا" أنها أتبعت وظيف رجلهـــا وظيـــف يدها، وقيل المعنى : أنها وضعت وظيف رجلها موضع وظيف يدها، وهـــو ضرب من السير يعرف بالمناقلة والنقال. مور: طريـــق. معبـــد: مـــذلل. والمعنى: أن هذه الناقة فى مشيها تسابق إبلا كراما سريعات فـــى الســـير، وتتبع وظيف رجلها وظيف يدها فوق طريق مذلل بالسلوك فيـــه ، والســـير عليه بالأقدام والحوافر والمناسم .

(٢) التربع : رعى الربيع، والإقامة بالمكان، واتخاذه ربعا. والقف: ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا، وهو هنا موضع بعينه، وخص القـــف لأن نبته أحسن من غيره، وثناه هنا لإقامة الوزن باسم موضع آخر ضمه إليـــه مما يجاوره فسماه باسمه على سبيل التغليب. الشول : جمع شائلة وهى الناقة التى خف ضرعها، وقل لبنها ، والحدائق جمع حديقة وهى البستان ، وكـــل شجر ملتف . مولى: إصابة الولى وهو مطر يلى مطرا، الأســـرة: بطـــون الأودية وغيرها ، جمع سرارة، وهى بقاع الأودية. أغيد: ناعم يتثنـــى مـــن النعومة . يقول عن ناقته: إنها ترعى أيام الربيع كلا القفين وهما مشهوران بنبتهما ، وتذهب للرعى وسط نوق خفت ضروعها ، وقلت ألبانهـــا بســـبب زيادتها فى الأكل، فيؤثر ذلك فى سمنها، وقوتها، وشدة احتمالها. ومرعاهـــا عبارة عن واد كثير الأمطار، طيب التربة ، كثير الخيرات، ناعم النبات.

يتحدث عن ديار الأحبة التى أصبحت بالية ودمنــا دارســة، بعــد أن تركها أهلها فعفت وأصبحت صحراء مقفرة مهجورة. يقول عميرة[١]:

ألا يا ديــار الحــى بــالبردان ∴ خلت حجج بعدى لهــن ثمــان

فلم يبق منها غير نؤى مهــدم ∴ وغيــر أوار كــالركى دفــان[٢]

وغير حطوبات الولائد زعــزت ∴ بها الريح والأمطار كل مكان[٣]

قفار مروراة يحار بهــا القطــا ∴ يظل بها الســبعان يعتركــان[٤]

يثيران من نسج التراب عليهما ∴ قميصين أســماطا ويرتــديان[٥]

وبالشرف الأعلى وحوش كأنها ∴ على جانب الأرجاء عوذهجان[٦]

---

(١) المفضليات صــ٢٥٨ دار المعارف ١٩٦٤م .

(٢) النؤى: الحاجز الذى يكون حول الخباء لئلا يدخله الماء.
الأوارى: جمع آرى، وهو ما حبس الدابة من وتد ونحوه.
الركى: جمع ركية، وهى البئر. دفان: مندفنة، جمع دفين .

(٣) الحطوبات: جمع حطوبة، وهى ما يحتطبه الإمــاء ويجتمعنــه، الولائــد: الإماء. ذعذت: فرقت .

(٤) مروراة: لا ماء فيها ولا تنبت شيئا، يحار: يضل. أى أن القطا يتيه فيهــا ويضل، السبع: الحيوان المفترس، يعتركان، أى أن كلا منهما يريــد أكــل صاحبه من الجدب.

(٥) أسماطا: أى أسمالا بالية .

(٦) الشرف: المرتفع من الأرض. الأرجاء: النواحى. العوذ: الإبل التى معهــا أولادها. هجان: كرام .

ويشارك عميرة كل الشعراء فى العصر الجاهلى ــ تقريبــا ــ فى وصف الصحراء وما فيها من مهامه مقفرة وآثار بالية وما يتناوب عليها من فصول السنة بحرها اللافح وبردها القارس، وما فيهــا مــن مرتفعات شاهقة ووديان منخفضة انخفاضا شديدا، ومــا يقطــن هــذه الصحراء غير الإنسان البائس من حيوانات أليفة ومفترسة، وما يشغل الناس فيها من انتظار لسقوط الأمطار التى هى أساس حياتهم .. إلــى غير ذلك من أوصافهم الدقيقة للصحراء التى يعيشون عليها وما فيهــا وما ينتابها . يقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى[١] :

كم قطعنا دون سـلمى مهمهــا ∴ نــازح الغــور إذا الآل لمــع[٢]

فى حرور ينضج اللحــم بهــا ∴ يأخذ السائر فيهــا كالصــقع[٣]

وتخطيــت إليهــا مــن عــدى ∴ بزماع الأمــر والهــم الكنــع[٤]

وفــلاة واضـــح أقرابهـــا ∴ باليات مثــل مرفــت القــزع[٥]

---

(١) المفضليات صـــ١٩٣ .

(٢) المهمه: القفر . النازح الغور: البعيد جدا . الآل: السراب .

(٣) الحرور: الريح الحارة التى تهب بالنهار. أما السموم فتكون بالليل والنهــار جميعا. الصقع: حرارة تصيب الرأس.

(٤) عدى: الأعداء. زماع الأمر: الجد فيه. الكنع الذى يلازم ولا يفارق .

(٥) الأقراب: الخواصر، وهى هنا تشبيه. أرد جوانبها وأطرافهــا التــى هــى بمنزلة الخواصر من الناس. المرفت: المتكسر المتحطم. القزع: جمع قزعة، وهى بقايا تبقى من الشعر فى الرأس، شبه بها علامات الفلاة.

يسبح الآل على أعلامها ∴ وعلى البيد إذا اليوم متع[١]

فركبناها على مجهولها ∴ بصلاب الأرض فيهن شجع[٢]

وكما وصفوا الصحراء وتغير العوامل الطبيعية فيها، وصفوا الناقة وصفا دقيقا، ووصفوا الخيل وأكثروا من وصفهم لها فى معرض الفخر بالفتوة والبطولة سواء فى مجال الصيد أو فى مجال الحرب فهى قوية فتية تستطيع الكر والفر ، وتجهز على الصيد كما تجهز على الأعداء دون أدنى تعب ، وقد وصفها امرؤ القيس وصفا دقيقا فى معلقته فيقول:

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ∴ بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا ∴ كجلمود صخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللبد عن حال متنه ∴ كما زلت الصفواء بالمتنزل

---

(١) الأعلام الجبال. البيد: جمع بيداء وهى الصحراء المقفرة. متع اليوم: ارتفعت شمسه ٠

(٢) ركبناها على مجهولها: سرنا فيها على جهل بمسالكها وأعلامها ٠
بصلاب الأرض: بخيل صلاب الحوافر. بذكر الصفة وحذف الموصوف للعلم به. السجع: النشاط الكبير ٠

له أيطلا ظبى وسـاقا نعامـة ∴ وإرخاء سرحان وتقريب تتفـل

كأن سراته لدى البيـت قائمـا ∴ مداك عروس أو صلابة حنظـل

وحين يقترب الحصان من ميدان الصيد يظهر له سـرب مـن البقر الوحشى الذى يتسم ببياض الظهور وسواد القوائم، يدور بعضـه حول بعض وما يكاد سرب البقر يلمح الخيل من بعيـد حتـى يـولى هاربا بأقصى سرعة، ولكن حصان امرئ القيس كان أسـرع، حيـث اندفع فى سرعة خاطفة حتى سد الطريق على أول السـرب، فوقـف بأكمله لا يتحرك. يقول امرؤ القيس فى ذلك:

فعن لنا سـرب كـأن نعاجـه ∴ عذارى دوار فى مـلاء مـذيل

فأدبرن كالجزع المفصل بينـه ∴ بجيد معم فى العشـيرة مخـول

فألحقنـا بالهاديـات ودونـه ∴ جواحرها فى صرة لـم تزيـل

فعادى عداء بين ثور ونعجـة ∴ دراكا ولم ينضح بماء فيغسـل

كأن دمـاء الهاديـات بنحـره ∴ عصارة حنـاء بشـيب مرجـل

وتدور المعركة بين الحصان وبين البقر الوحشـــى ، فيصـــول الحصان ويجول ويضرب الذكور .والإناث منها حتى يصرع الكثيـــر ، دون أن يظهر عليه أثر للتعب أو الجهد ، ودون أن تخرج منه قطـــرة عرق واحدة. وكان من آثار هذه المعركة أن خضب صدر الحصـــان بدماء المتقدمات من القطيع، وهذا يدل عليه البيتـــان الأخيـــران مـــن المقطع السابق . فعادى عداء، وقوله: كأن دماء الهاديات بنحره.

وهذا الشاعر المزرد يصف خيله ذكورا وإناثا وصفا دقيقا فيقول[1]:

إذا الخيل من غب الوجيف رأيتهـــا ∴ وأعينها مثل الصلات حواجـــل[2]

وقلقلتـــه حتـــى كـــأن ضـــلوعه ∴ سفيف حصير فرجته الروامـــل[3]

يرى الشد والتقريب نـــذرا إذا عـــدا ∴ وقد لحقت بالصلب منه الشـــواكل[4]

---

(١) المفضليات .

(٢) الوصف : سير شديد دون العدو . غب: البعد بيوم فأكثر. القـــلات: جمـــع قلت بفتح فسكون وهى نقر أى منخفضات تكون فى الجبل يجتمع فيها الماء. - حواجل: جمع حاجلة . من قولهم: حجلت عينه إذا غارت . شبه عيونها فى الغور بالقلات.

(٣) قلقلته : أذهبت لحمه من كثرة السير. سفيف الحصير: ما سفف منه، أى ما نسج منه . فرجته: جعلت فيه فروجا، أى وسعته، الروامل: جمـــع راملـــة، وهى التى تنسج الحصير .

(٤) الشد : العدو. التقريب: ضرب منه ، أى من العدو. الشواكل : جمع شاكلة، وهى الخاصرة، أراد أنه ضامر .

له طحرعــوج كــأن مضــيغها ∴ قداح براها صانع الكــف نابــل[١]

وصم الحوامي ما يبالي إذا جــرى ∴ أو عث نقا عنت له أم جنــادل[٢]

وسلهبة جرداء باق مريســها ∴ موثقة مثل الهــراوة حائــل[٣]

ولما كان الوصف للطبيعة الصحراوية وما عليها ، فقد وصــفوا غير ما ذكرناه من الناقة والخيل، وصفوا الأسد والذئب والكلب والنسر والنعام وغيرها من الحيوانات والطيور، فلم يتركوا حيوانا ولا طيــرا إلا وقد وصفوه، وكذلك وصفوا أسلحتهم مــن مثــل قــول أوس بــن حجر[٤]:

وإني امرؤ أعددت للحرب بعــدما ∴ رأيت لها نابا من الشــر أعصــلا

---

(١) الطحر: الأضلاع التى ذهب عنها اللحم . المضيغ: اللحم. القداح: السهام . صانع الكف: حاذق الكف لطيف. النابل: صانع النبال أو هو الحاذق.

(٢) صم : صلب . الحوامى : ميامن الحافر ومياسره . الوعث: كل لين ســهل ليس بكثير الرمل. النقا: مثل الكثيب من الرمل. عنت له: عرضــت لــه . الجنادل : الصخور .

(٣) السلهبة: الطويلة من الخيل. الجرداء : القصيرة الشعر. مريسها: شــدتها. يريد أن بها نشاطا على ما بها. موثقة : محكمة الخلق. الهــراوة: العصــا. والحائل: أى التى لم تحمل . وعدم الحمل أصلب لها وأشد .

(٤) شعراء النصرانية صــ٤٩٤ .

أصـــم ردينيـــا كـــأن كعوبـــه ∴ نوى القسب عراضا مزيجا منصـلا[١]

عليه كمصـباح العزيـز يشـبه ∴ لفصح ويحشوه الذبال المفـتلا[٢]

وأملس حوليـا كنهـى قـرارة ∴ أحس بقاع نفح ريـح فـأجفلا[٣]

كأن قرون الشمس عنـد ارتفاعهـا ∴ وقد صادفت طلعا من النجم أعـزلا[٤]

تردد فيه ضـوءها وشـعاعها ∴ فأحصن وأزين لامرئ أن تسـربلا

وأبيض هنـديا كـأن غـراره ∴ تلألؤ برق فـى حبـى تكلـلا[٥]

إذا سل من غمد تآكـل أثـره ∴ على مثل مصحاة اللجين تآكلا[٦]

إلى غير ذلك مما وقعت عليه أعينهم فتأملوه ودققوا النظر فيـه ووصفوه وصفا ظاهريا دقيقا، وربما لم يمعنوا النظر والتأمل إلى أكثر

---

(١) القسب: التمر اليابس. يريد: الصلب الشديد ٠

(٢) الفصح: عيد النصارى . الذبال: جمع ذبالة وهى الفتيلة. يشبه بشعلة ٠

(٣) الحولى: ما أتى عليه حول . النهى : الغـدير. القـرارة : المطمـئن مـن الأرض نفح الريح: هبوبها. أجفل: تحرك واطرد ٠

(٤) قرن الشمس: أعلاها أو أول شعاعها. الطلع : المكان الذى يطلـع منـه . النجم: ما لا ساق له من النبات ٠

(٥) الحبى: السحاب الذى يشرف من الأفق على الأرض، أو الذى بعضه فـوق بعض تكلل السحاب عن البرق: تبسم، وتكلل البرق: لمع خفيفا ٠

(٦) أثر السيف: فرنده تأكل: اشتد بريقه. مصحاة: إناء. اللجين: الفضة٠

من ظاهر الموصوف وحجمه الحسى، وهذا واضح فى أغلب أوصافهم الشعرية ٠

٢ - المدح :

وكان هذا الفن الشعرى من أعظم الأغـراض الشـعرية شـأنا وأكبرها منزلة، وأطولها نفسا ، ومعانيه التى تخـرج مـن وجـدان المادحين منها ما هو صادق الإحساس قوى الروح ، طبعى العبـارة ، ومنها ما هو على سبيل المجاملة وإن كان الممدوح ليس فيه شئ ممـا وصف به ٠

لكن المعروف أن شعراء الجاهلية فـى بدايـة أمـرهم كـانوا يمدحون العظماء منهم إجلالا لهم وإكبارا نتيجة صـنائعهم وأعمـالهم الجليلة فى عقد المؤتمرات وفض المنازعات والحسـم فـى القضـايا الشائكة بين القبائل وقيادة الجيوش والأمم إلى عظـائم الأمـور فـى عهدهم، وأحيانا كانوا يمدحون رغبة فى المنح والهدايا وطلبا للمـال ، وهذا هو التكسب الذى ظهر عند بعضهم فى الجاهلية كالأعشى الـذى مدح الأسود بن المنذر اللخمى بالحزم والشجاعة وقوة الرأى وسـداده وصلة الرحم، وجميع الصفات الحميدة وكان من بين ما قاله فيه [١] :

---

(١) المديح صـ١٧ سامى الدهان طـ٤ دار المعارف ١٩٨٠م٠
التقى : الحذر . أسا الجرح : دواؤه . الصرع : داء يبطل الحس ويمنـع الحركة ، العذرة: المعذرة ٠

عنده الحزم والتقى وأسا الجـر ∴ ح وحمـــل لمضـــلع الأثقـــال

وصلات الأرحام قد علـــم النـــا ∴ س وفك الأسرى مـــن الأغـــلال

وهوان النفس العزيزة للذكـــ ∴ ـــر إذا ما التقت صدور العوالى

وعطـــاء إذا ســـألت إذا العـــذ ∴ رة كانـــت عطيـــة البخـــال

ووفاء إذا أجـــرت فمـــا عـــز ∴ ت جبـــال وصـــلتها بحبـــال

أريحى صلات يظل لـــه القـــو ∴ م ركـــودا قيـــامهم للهـــلال

فالأعشى فى مديحه للأسود اللخمى لا يتورع عن ذكر العطـــاء والوفاء والأريحية للصلات والتحدث عن الكـــرم الـــذى يريـــده مـــن ممدوحه بالإضافة إلى الصفات الأخرى التى يجعـــل الممـــدوح بهـــا منتشيا قوى النفس عالى الهمة مشرئب العنق، فياضا بفضله على هذا الشاعر الذى ألبسه حلل المجد والشهامة والشجاعة وقوة البأس، ولذلك أطال فى مدحه للأسود وجعله غازيا منتصرا فى كل عـــام، لا يبـــالى بأعدائه بل يتدفق عليهم بجيوشه ويسقيهم من كأس مره ، فيبعث الـــذل فى نفوس أعدائه فلا يقوى جيش بأكمله على مواجهته ٠

بل إن الأعشى لا يتورع عن مدح عامة الناس إذا أصاب مـــنهم خيرا ، أو تأمل منهم الخير ، ومن ذلك أنه مدح المحلق بن جشم بـــن شداد لمجرد أنه أنزله ضيفا فقال :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيــرة ∴ إلى ضوء نار فى يفاع تحــرق

تشب لمقــرورين يصــطليانها ∴ وبات على النار الندى والمحلق

رضيعى لبان ثــدى أم تحالفــا ∴ بأسجم داج عــوض لا نتفــرق

يداك يدا صدق فكــف مفيــدة ∴ وأخرى إذا ما ضن بالزاد تنفق

ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه ∴ كما زان متن الهنــدوانى رونــق

وأما إذا ما أوب المحل سرحهم ∴ ولاح لهم من العشيات ســملق

نفى الذم عن آل المحلق جفنة ∴ كجابية السيح العراقــى تفهــق

يروح فتى صدق ويغدو عليهم ∴ بملء جفان من ســديف يــدفق

وعاد فتى صدق عليهم بجفنــة ∴ وسوداء لأيا بــالمزادة تمــرق

ترى القوم فيها شارعين ودونهم ∴ من القوم ولدان من النسل دردق

طويل اليدين رهطة غير ثنيـة ∴ أشـم كـريم جـاره لا يرهـق

كذلك فافعل ما حييـت إلـيهم ∴ وأقدم إذا ما أعين الناس تبرق[١]

ولما كان الأعشى مغرما بالخمر والنساء ، فقد كان فى حاجـة إلى المال دائما لإنفاقه على الخمر والنساء، ولذلك فهو يتنقل فى جميع الأوساط بين الشام والعراق واليمن وربوع الجزيرة العربيـة يمـدح الملوك والأشراف لينال عطاياهم، فمدح آل جفنـة ملـوك غسـان ، والمناذرة ملوك الحيرة ، ومدح إياس بن قبيصة الطائى، وهوذة بـن على الحنفى فى اليمامة ، وقيس بن معد يكرب الكندى ، وسـلامة ذا فائش أحد أمراء اليمن .

(١) تشب : توقد أى النار . المقرور : من أصابه البرد . اصطلى النار استدفأ بها . الندى الكرم . بأسحم داج : الليل المظلم . رونـق السـيف: طلاوتـه وبريقه . متن السيف : صفحته . أوب : أرجع . المحل: القحط . السـرح: الإبل . أرجعوها لأنهم لا يجدون لها مكانا معشبا ترعاه . السملق : القـاع الصفصف المستوى من الأرض. الجابية: الحوض الذى يجبى فيه الماء أى يجتمع . السيح: النهر. فتق الإناء: امتلأ حتى صار يتصبب . الجفان: جمع جفنة وهى القصعة التى يقدم فيها الطعام . السديف : شحم السنام . اللأى : الشدة . وسوداء لأبى : أى يقدم الطعام فى وقت الشدة . تمرق: أى : يزيـد مرقتها . الدردق: الأطفال والصغير من كل شئ . غير ثنية: أى غير قليلين فهم سادة فى أقوامهم. رهقه : اتهمه بشر أو حمله ما لا يطيق . تبـرق: أى تتحير فلا تبصر الحقيقة .

وكانت عادته فى المديح أن يلفت نظر ممدوحه إلى ما يريد منه من طلبه لمكارمه وعطاياه ، فيتحدث عن ناقته وما لاقته من المتاعب والجهد والإعياء فى السفر ، وهو يهون عليها ذلك بما يحصل عليه من عطايا الممدوح وكرمه وسخائه الشديد . بل إنه أحيانا يطلب العطاء صريحا دون تلميح أو تعريض . فحينما مدح قيس بن معد يكرب الكندى أثنى عليه ثناء حارا ثم طلب عطاءه الجزيل فقال (١) :

ونبئت قيسا ولم أبله ∴ كما زعموا خير أهل اليمن

رفيع الوساد طويل النجا ∴ د ضخم الدسيعة رحب العطن

يشق الأمور ويجتابها ∴ كشق القرارى ثوب الردن

فجئتك مرتاد ما خبروا ∴ ولولا الذى خبروا لم ترن

فلا تحرمنى نداك الجزيل ∴ فإنى امرؤ قبلكم لم أهن(٢)

(١) ديوان الأعشى صـ١٣٥ .

(٢) رفيع الوساد: كناية عن سمو مكانته . طويل النجاد : كناية عن طول قامته. والنجاد جمع نجادة وهى حاملة السيف. الدسيعة : الجفنة الكبيرة . وهى كناية عن شدة كرم الممدوح . العطن : المناخ حول مورد الماء . اجتاب الأرض: قطعها . القرارى: الخياط. الردن: الخز، وهو الحرير . ارتاد المكان : مر به طلباً للشئ.

وكان يحب المال حبا جما ويلهث وراءه فى كل مكان ، ومما قاله فى ذلك :

ومازلت أبغى المال مذ أنا يافع ∴ وليدا وكهلا حين شبت وأمردا

وأبتذل العيس المراقيل تغتلى ∴ مسافة ما بين النجير فصرخدا

ويمدح هوذة بن على الحنفى، فيكون صريحا فى إهداء مدحته له مقابل النوال وكرم العطاء ولا يتحرج من هذه الصراحة ، ولذلك فقد ركز فى أغلب قصيدته على كرم الممدوح أكثر من التحدث عن شجاعته. فيقول :

إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتى ∴ أرجى نوالا فاضلا من عطائكا

تجانف عن جل اليمامة ناقتى ∴ وما قصدت من أهلها لسوائكا

ألمت بأقوام فعافت حياضهم ∴ قلوصى وكان الشرب منها بمائكا

فلما أتت آطام جو وأهله ∴ أنيخت وألقت رحلها بفنائكا

ولم يسع فى الأقوام سعيك واحد ∴ وليس إناء للندى كإنائكا

سمعت بسمح الباع والجود والندى ∴ فأدليت دلوى فاستقت برشائكا

فتى يحمل الأعباء لو كان غيره ∴ من الناس لم ينهض بها متماسكا

وأنت الذى عودتنى أن تريشنى ∴ وأنت الذى آويتنى فى ظلالكا

فإنك فيما بيننا فئ موزع ∴ بخير وإنى مولع بثنائكا

وجدت عليا بانيا فورته ∴ وطلقا وشيبان الجواد ومالكا

بحور تقوت الناس فى كل لزبة ∴ أبوك وأعمام هم هؤلائكا

وما ذلك إلا أن كفيك بالندى ∴ تجودان بالإعطاء قبل سوائكا[١]

وهكذا يكيل له ولآله الثناء بالكرم والسخاء ، وطلبه المال واضح وصريح فى هذه المدحة •

ولم يكن الأعشى وحده هو الذى يتكسب بشعره بل كان النابغة الذبيانى وزهير كذلك ، بل كان غيرهم كثيرون ، وإن كان الثلاثة هم أشهر وأكثر من تكسبوا بشعرهم •

فالنابغة الذبيانى كان يكثر من زيارة الملوك والأشراف فى الشام والعراق حيث الغساسنة والمناذرة فيمدحهم ويأخذ رفدهم وعطاياهم •

---

(١) على هو أبو الممدوح: طلق وشيبان ومالك: أعمامه. لزبة : شدة وضيق•

ومن ذلك أنه كان يكثر من زياراته للنعمان بـن المنـذر ملـك الحيرة ويمدحه ويثنى عليه ثناء حارا ويأخذ جوائزه وهداياه . وفـوق هذه الجوائز والهدايا له مكانة ومنزلة عظيمة فى نفس النعمان حيـث كان قريبا من قلبه . ولكن الحاقدين عليه لم يتركوه وشأنه ، بل وشوا به عند النعمان لدرجة ألبت نفس النعمان على النابغة، وداخله البغض له فتوعده وقاطعه . وعلم بذلك النابغة، فقال قصيدته الدالية (المعلقة) يعتذر فيها للنعمان ويمدحه هو وآله من المناذرة فيها، وهى القصـيدة التى يقول فى مطلعها :

يا دار ميـة بالعليـاء فالسـند ∴ أقوت وطال عليها سالف الأمـد

ويقول فى هذه القصيدة موجها خطابه للنعمان :

مهلا فداء لك الأقـوام كلهـم ∴ وما أثمر من مال ومـن ولـد

لا تقذفنى بركن لا كفـاء لـه ∴ ولـو تأثفـك الأعـداء بالرفـد

فما الفرات إذا جاشت غواربـه ∴ ترمى أواذيه العبـرين بالزبـد

يمـده كـل واد مزبـد لجـب ∴ فيه حطام من الينبوت والخضد

يظل من خوفه الملاح معتصما ∴ بالخيزرانة بعد الأيـــن والنجـــد

يوما بأجود منه ســـيب نافلـــة ∴ ولا يحول عطاء اليوم دون غد[١]

فالنابغة هنا يهدئ من روعه وجام غضبه جاعلا فداءه الأقـــوام كلهم، وما أنتجه هو من مال وولد ، موضحا له أن الوشـــايات التـــى وصلته إنما هى من كيد الحاقدين الذين تمالؤوا عليه عنده . ثم يوضح فضل النعمان وكرمه وجوده عليه فى صورة بيانيـــة جميلـــة ، فمـــا الفرات حينما يكون قد بلغ الغاية فى الامتلاء ، وهاجـــت أمواجـــه ، وتراكم فيه الزبد وحطام الأشجار ، وارتفعت أصوات الأمواج عاليـــة فيه ، لدرجة يخاف معها الملاح من خوضه فيعتصم بـــذنب ســـفينته ملاقيا العناء والعنت الشديدين . وما كان نهر الفرات بهذه الصورة من الغناء الوافر بالماء والأمواج المتلاطمة من المخيفة بأكثر جودا وكرما وعطاء من النعمان بن المنذر الذى أصبح العطاء إلفا له وعادة . ولا

---

(١) العلياء: مكان مرتفع من الأرض . السند : المكان المرتفع فـــى الجبـــل . أقوت: خلت من أهلها . الكفاء : المثل . تأثفك الأعداء : التفـــوا حولـــك . فصاروا منك موضع الأثافى من القدر . الرفد : أى يتعاونون على عندك . جاشت: فارت . الغوارب : ما علا منه ، جمع غارب . الأواذى الأمواج . العبران : الشطان المزبد : المملوء . اللجـــب : ذو الصـــوت والأمـــواج المتكاثفة . الينبوت : ضرب من النبات . والخضد مثله . الأين : الإعيـــاء والتعب . والنجد : العرق الذى يتصبب من شدة الخوف والكرب .

يحول عطاؤه فى يوم ألا يعطى فى اليوم الثانى بل فـــى كـــل يـــوم . والنابغة هنا لا يشبه النعمان بالنهر فى الفيض والعطاء بل يجعله أجود وأكرم من النهر فى صورة شعرية جميلة .

ولم يتوقف مدح النابغة على ملوك وأشراف المناذرة فحسب بل إنه مدح ملوك وأشراف الغساسنة أيضا . ومن ذلك أنه مدح عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر الغسانى ، وكان لا يمدح الســوقة ويفخر بأنه يمدح الملوك والأمراء ، يقول فـــى مديحـــه لعمـــرو بـــن الحارث الغسانى :

على لعمرو نعمة بعـــد نعمـــة ∴ لوالده ليست بـــذات عقـــارب[1]

حلفت يمينا غيـــر ذى مثنويـــة ∴ ولا علم إلا حسن ظن بصـــاحب

وللحارث الجفنى ســـيد قومـــه ∴ ليلتمس بالجيش دار المحـــارب

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت ∴ كتائب من غسان غير أشـــائب

بنوعمه دنيا وعمرو بن عـــامر ∴ أولئك قوم بأســـهم غيـــر كـــاذب

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ∴ عصائب طير تهتـــدى بعصـــائب

---

(١) ديوان النابغة ط الهلال ١٩١١م .

يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم ∴ من الضاريات بالدماء الدوارب

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ∴ من الجود والأحلام غير عوازب

محلتهم ذات الإله ودينهم ∴ قويم فما يرجون غير العواقب

تحييهم بيض الولائد بينهم ∴ وأكسية الإضريح فوق المشاجب

يصونون أجسادا قديما نعيمها ∴ بخالصة الأردان خضر المناكب

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ∴ ولا يحسبون الشر ضربة لازب(١)

فالشاعر مدح عمرا بأجل الصفات وأقواها وكان أكثر تركيزه على صفتى الشجاعة والكرم اللتين ورثهما عن آبائه وأجداده الشجعان الأجواد فهو رفيع الدرجة سامى المنزلة عظيم القدر كابرا عن كابر . كما أنه يصفه بالطهارة والعفة ورجاحة العقل، وغير هذه من الصفات الكريمة التى عددها فى هذه القصيدة.

ويروى أنه لما أغار النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبى على بنى ذبيان أخذ منهم وسبى سبيا من غطفان ، وأخذ عقرب بنت النابغة

---

(١) غير ذى مثنوية: غير حانث فيها . العوازب : البعيدة. محلتهم: مسكنهم ، ذات الإله: بيت المقدس . الولائد: الإماء . الإضريج: الحرير الأحمر . المشاجب: جمع مشجب وهو عود ينشر عليه الثوب. الأردان: جمع ردن وهو مقدم كم القميص . الخالص: الشديد البياض . مناكبها خضر : أى أن الثياب خضر وكانت تتخذ لملوكهم. لازب : ثابت ولازم .

الذبيانى ، فسألها: من أنت؟ فقالت أنا بنت النابغة. فقال لها: والله ما أحد أكرم علينا من أبيك ، وما أنفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلاها . ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى بهذا منا ، فأطلق له سبى غطفان وأسراهم . فقال النابغة يمدحه [١] :

لعمرى لنعم الحى صبح سربنا ∴ وأبياتنا يوما بذات المراود[٢]

يقودهم النعمان منه بمحصف ∴ وكيد يعم الخارجى مناجد

وشيمة لا وان ولا واهن القوى ∴ وجد إذا خاب المفيدون صاعد

فآب بأبكار وعون عقائل ∴ أوانس يحميها امرؤ غير زاهد

ويخططن بالعيدان فى مقعد ∴ يخبئن رمان الثدى النواهد

ويضربن بالأيد وراء براغز ∴ حسان الوجوه كالظباء العواقد

غرائر لم يلقين بأساء قبلها ∴ لدى ابن الجلاح ما يثقن بوافد

أصاب بنى غيظ فأضحوا عباده ∴ وجللها نعمى على غير واحد

---

(١) ديوان النابغة قصيدة رقم ٦ ٠

(٢) ذات المراود: موضع بالقرب من المدينة ٠

فلابد من عوجاء تهوى براكب ∴ إلى ابن الجلاح سيرها الليل قاصد

تخب إلى النعمان حتـــى تنالــــه ∴ فدا لك من رب طريفى وتالــــدى

فسكنت نفسى بعدما طار روحها ∴ ولبستنى نعمى ولســـت بشـــاهد

وكنت امرءا لا أمدح الدهر سوقة ∴ فلست على خير أتـــاك بحاســـد

سبقت الرجال الباهشين إلى العلا ∴ كسبق الجواد اصطاد قبل الطوارد

حوت معـــدا ، نـــائلا ونكايـــة ∴ فأنت لغيـــث الحمـــد أول رائـــد

وهذا زهير بن أبى سلمى المزنى أحد أقطاب الطبقة الأولى من طبقات الشعر الجاهلى كما جاء فى طبقات ابن سلام الجمحى .

وأحد الثلاثة الذين اشتهروا بالتكسب أكثر من غيرهم من شعراء الجاهلية وهم : الأعشى والنابغة الـــذبيانى، وزهيـــر، وكـــان أكثـــر الأشراف حظوة بمدائح زهير هو هرم بن سنان، وكان هـــرم كثيـــر العطاء له لدرجة أنه " حلف لا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه، ولا يسلم عليه إلا أعطاه: عبدا أو وليدة أو فرســـا، فاســـتحيا

زهير منه، فكان إذا رآه فى ملأ قال: أنعموا صباحا غير هرم وخيركم استثنيت"[١].

وزوى أن عمر بن الخطاب قال لبعض ولد هرم: أنشدنا بعض مدح زهير أباك فأنشده ، فقال عمر : إن كان ليحسن فيكم القول ، قال ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء ، قال: قد ذهب ما أعطيتموه، وبقى ما أعطاكم.

وقال ﷺ لابن زهير : ما فعلت الحلل التى كساها هرم أباك ، قال: أبلاها الدهر. قال لكن الحلل التى كساها أبوك هرما لم يبلها الدهر[٢].

ولكن ليس العطاء وحده هو الذى جعل زهيرا يكثر من مديحه لهرم بل كان زهير مفتونا بشخصيته وسخائه وكرم أخلاقه، لاسيما فى موقفه بالصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء، إذ تحمل ديات القتلى، هو والحارث بن عوف، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير ، وقد أشاد بهما زهير نتيجة لذلك فى معلقته حيث قال:

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ٧٠ للشيخين أحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى طبعة ٦ سنة ١٩٢٧ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ∴ رجال بنوه من قريش وجـــرهم

يمينا لنعم الســـيدان وجــدتما ∴ على كل حال من سحيل ومبـــرم

تداركتما عبسا وذبيان بعـــدما ∴ تفانوا ودقوا بينهم عطر منشـــم

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا ∴ بمال ومعروف من الأمر نســـلم

فأصبحتما منها على خير مـــوطن ∴ بعيدين فيها من عقوق ومـــأثم

عظيمين فى عليا معد وغيرها ∴ ومن يستبح كنزا من المجد يعظـــم

فهو يقسم بالبيت الحرام – وقسمه به لأنه يعرف قيمته ودرجته من الفضل عند الله – يقسم بأن هذين الرجلين هما أفضـــل الرجـــال كرما وشجاعته ، فقد وقفا بالصلح بين الطرفين المتنـــازعين عـــبس وذبيان وتحملا ديات القتلى التى بلغت ثلاثة آلاف بعير حتـــى تضـــع الحرب أوزارها،وبهذا استباحا كنزا من المجد والسؤدد نتيجـــة لهـــذا العمل الجليل

وقد مدح زهير هرما بقصائد كثيرة منها قوله فيه :

سواء عليـــه أى حـــين أتيتـــه ∴ أساعة نحس تتقـــى أم بأســـعد

ومدره حرب حميها يتقى بـــه ∴ شديد الرجام باللســـان وباليـــد

إذا ابتدرت قيس بن عيلان غايـــة ∴ من المجد من يسبق إليها يسود

سبقت إليها كل طلـــق مبـــرز ∴ سبوق إلى الغايات غير مجلـــد

فلو كان حمدا يخلد الناس لم تمت ∴ ولكن حمد الناس ليس بمخلـــد

فهرم فى هذه الأبيات رجل كريم يعطى فى حالتيه مـــن الغنـــى والفقر، فى السعة والقلة، وهو شجاع يدافع عن قومه بلسانه وسنانه ، وهو صاحب سبق دائما إلى غايات المجد والسؤدد، فما سابقه أحد إلى غاية إلا سبقه إليها، ولو كان حمد الناس يخلد أحدا فلا يمـــوت، فـــإن هرما قد خلده الناس ولكن حمد الناس ليس بمخلد كما يقول زهير.

ويقول فى هرم أيضا :

دع ذا وعد القـــول فـــى هـــرم ∴ خيـــر البـــداة وســـيد الحضـــر

ولنعم حشو الـــدرع أنـــت إذا ∴ دعيت نزال ولـــج فـــى الـــذعر

حدب على المولى الضريك إذا ∴ نابـــت عليـــه نوائـــب الـــدهر

ويقيك ما وقى الأكارم من ∴ حوب تسب به ومن غدر

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ∴ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

والستر دون الفاحشات وما ∴ يلقاك دون الخير من ستر

أثنى عليك بما علمت وما ∴ سلفت فى النجدات والذكر(١)

إلى غير ذلك من مدائحه الكثيرة فى هرم ، حيث تراثى له فى صورة مثالية كريمة جعلته يتوافر عليه بالمدح والثناء، فهو شجاع فى الحرب كريم فى السلم حازم فى مواجهة المصاعب، عاقل فى رأيه، أمين فى نصحه، حكيم فى قوله وفعله، يقرى الضيف، ويغيث الملهوف، ويدافع عن الضعفاء ، ويواجه الملمات بحزم وقوة ... وهكذا كان فى مخيلة زهير وفى شعره .

---

(١) النزال: الحرب . الضريك: الفقير المعدم . الحوب: الإثم . تفرى : تقطع. يخلق : يقدر، يريد أنه إذا عزم على أمر أنفذه .

٣ ـ الفخر

عرف النقاد الفخر بأنه : التغنى بالأمجاد الذاتية أو القبلية أو هما معا . وإذا نظرنا فى المعانى التى طرقها الشعراء فى غرض الفخر وفى العبارة عنها فإننا نجدها لا تبعد كثيرا عن المعانى التى طرقوها فى مديحهم للغير والعبارة عنها، فإذا كان الشاعر يصف الغير فى مديحه له متكسبا أو معجبا بالشجاعة والكرم وسداد الرأى وبعد النظر وإغاثة الملهوف وكرم الضيافة والإحسان إلى الجار، والأخذبيد الضعيف، والدفاع عن الشرف والعرض .. وما إلى ذلك من الصفات الكريمة . فإنه فى فخره يتغنى بنفس هذه الصفات فخرا ذاتيا أو فخرا قبليا . بمعنى أنه يتغنى بها لنفسه أو لقبيلته التى هو منها متعاليا مشرئب العنق . مرتفع الصوت متغاليا فيما يقول. وأحيانا لا تكون بعض هذه الصفات أو غيرها فيه أو فى قبيلته، ولكنه يدعيها وبجهارة صوته لدرجة تجعله يصدق نفسه وتجعل سامعه يثق أنها له، وهذا كثير فى الشعر العربى ، وفى الشعر الجاهلى خاصة، حتى إن الظلم والقهر والإغارة على مقدرات الآخرين كانت من معانيهم التى يتحدثون عنها فى فخرهم لا لأنها ظلم وقهر وجور وتعد على حقوق الآخرين ولكن لأنها رمز للقوة والشجاعة والصلابة . فالقوة عندهم احترام ومهابة والضعف مذلة واستكانة. ولا يحب العربى أن يوصف بالضعف والمذلة. ومن هنا تغنوا بالقوة ولو على حساب ظلم الآخرين كما يقول زهير :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ⁝ ومـــن لا يظلـــم النـــاس يظلـــم

وساعد على التغنى بالأمجاد ، والتفاخر بالأحساب والأنســاب، والجهر بعظيم الصفات وكريم الفعال ، أن ذلك كــان عــادة جاهليــة شهوابها أنفسهم، ورفعوا بها عقيرتهم فى كل المناسبات التى تجمعهــم فى صعيد واحد لأداء واجب من واجباتهم، وأيضا فى غير مناســبات، وفى غير اجتماع عام، كأن يتفاخر شاعران أو يتنافران ويــأتى مــن يحكم بينهما ويفضل أحدهما على الآخر ذاكرا ما له وما عليه . يقــول حنا الفاخورى فى الفخر الجاهلى : " وقد ساعد عليه ما كان هنالك من أسواق تبسط أمام القبائل ميادين القول ، والمفــاخرة. ومــن مواقــف مفاخرة تقوم بأن يدافع شاعر محكم عن أحد سيدين متخالفين فينفــره على خصمه ومنازعه ، ويفضله عليه مبينــا مــا لــه مــن فضــائل وحسنات، ومن مجالس أدب كان العرب يتباهون فيها، ويجتمعون فيها لمناشدة الأشعار، ومبادلة الأخبار، وكانوا يسمونها أندية، وكان لكــل ناد فناء يزدحمون فيه للتناشد والتفاخر "[1].

وحينما ننعم النظر فى أشهر شعر الجاهليين وهى المعلقات نرى منها ما يتضمن الفخر بالقبيلة وأمجاد الأحســاب والأنســاب كمعلقــة عمرو بن كلثوم، ومعلقة الحارث بن حلزة، ومنها ما يتضمن الفخــر الذاتى بالشجاعة والكرم والمروءة والوفاء وغيرهــا مــن الصــفات

---

(١) الفخر والحماسة صـــ١١ ط٤ سنة ١٩٨٠م .

الحميدة كمعلقة طرفة بن العبد ومعلقة عنترة العبسى، ومنها ما يتضمن الفخر بالنوعين معا من الصفات الكريمة الذاتية والقبلية كمعلقة لبيد بن ربيعة.

ولكن الفخر الجاهلى بجليل الصفات وعظيم المحامد لم يتوقف على ما قيل فى المعلقات ، ولا على أصحابها أو غيرهم، بل لم يخل ديوان شاعر جاهلى من الفخر الذاتى أو القبلى، ولم يكن هذا الغرض الشعرى وقفا على شاعر بعينه دون بقية الشعراء . ومن النماذج الكثيرة التى قيلت فى هذا الفن ، ما قاله سويد بن أبى كاهل اليشكرى متغنيا بأمجاد قومه ومحامدهم[1]:

من أناس ليس من أخلاقهم ∴ عاجل الفحش ولا سوء الجزع

عرف للحق ما نعيا به ∴ عند مر الأمر ما فينا خرع

وإذا هبت شمالا أطعموا ∴ فى قدور مشبعات لم تجع

وجفان كالجوابى ملئت ∴ من سمينات الذرا فيها ترع

لا يخاف الغدر من جاورهم ∴ أبدا منهم ولا يخشى الطبع

---

(١) المفضليات صـ١٩٤ .

ومســـاميح بهـــا ضـــن بـــه ∴ حاسر والأنفس عن سوء الطمع

حسنو الأوجـــه بـــيض ســـادة ∴ ومـــــراجيح إذا جـــد الفـــزع

وزن الأحلام إن هـــم وازنـــوا ∴ صادقوا البأس إذا البأس نصـــع

وليـــــوث تتقـــــى عرتهـــــا ∴ ساكنوا الريح إذا طـــار القـــزع

فـــيهم ينكـــى عـــدو وبهـــم ∴ يرأب الشعب إذا الشعب انصدع[1]

عـــادة كانـــت لهـــم معلومـــة ∴ فى قديم الدهر ليســـت بالبـــدع

وهذا طرفة بن العبد يفخر بقومه بكر حين انتصروا على قبيلـــة تغلب يوم التحالق الذى أشار عليهم به الحارث بن عباد ليكون علامة يعرف بها بعضهم بعضا : فيقول[2]:

ســـائلوا عنـــا الـــذى يعرفنـــا ∴ بقوانـــا يـــوم تحـــلاق اللمـــم

---

(١) الخرع : اللين والضعف . شمالا : أى ريح الشمال ، يقصد أوقات القحـــط والمجاعة . مشبعات : مملوءات . الجوابى: جمع جابيـــة وهـــى الحيـــاض الكبار التى يجمع فيها الماء. الذرا: جمع ذروة. والذروة من كل شئ أعلاه. ترع: أى فيها امتلاء وشبع . الطبع: العيـــب. مســـاميح: أجـــواد ، حاســـر والأنفس : كاشفوها. حسنو الأوجه: أى كلهم طهارة وشـــرف . مـــراجيح: راجحو القلوب. نصع : ظهر واتضح . العرة: الأذى. ساكنو الريح: ثـــابتو الروع . القزع: جمع قزعة ، وهى القطع المتفرقة من الســـحاب . نكيـــت العدو: أصبته. الشعب: الصدع والتفرق، يرأب : يصلح ٠

(٢) ديوان طرفة قصيدة رقم ١٤ ٠

يوم تبدى البيض عن أسوقها ؞ وتلف الخيل أعراج النعم

ونكر الخيل فى أدبارها ؞ يوم لا يعطف إلا ذو كرم

أجدر الناس برأس صلدم ؞ حازم الأمر شجاع فى الوغم

كامل يجمع آلاء الفتى ؞ نبه سيد سادات خضم

خير حى من معد علموا ؞ لكفى ولجار وابن عم

يجبر المحروب فينا ماله ؞ ببناء وسوام وخدم[١]

يجرب المحروب فينا ماله ؞ ببناء وسوام وخدم

نقل للشحم فى مشتاتنا ؞ نحر للنيب طراد القرم

نزع الجاهل فى مجلسنا ؞ فترى المجلس فينا كالحرم

وتفرعنا من ابنى وائل ؞ هامة المجد وخرطوم الكرم

---

(١) اللمم : الشعر . البيض : النساء . أسؤقها: جمع ساق . تلفت: تجمع. أعراج: جمع عرج وهو القطيع من الإبل . صلدم: شديد . الوغم : القتال فى الحرب . كامل: تام فى الخلق. الآلاء : النعم . نبه : مرتفع الذكر معروف . خضم : سيد واسع العقل حمول ومعطاء . معد: فرع من عدنان المشهور المعروف . علموا : عرفوا . الكفء: المماثل فى النسب .

من بنى بكـــر إذا مـــا نســـبوا ∴ وبنـــى تغلـــب ضـــرابى الـــبهم

حين يحمى الناس نحمى سربنا ∴ واضحى الأوجه معروفى الكرم

بحســــامات تراهـــــا رســــبا ∴ فى الضربات متــرات العصــم

وقنـــا جـــرد وخيـــل ضـــمر ∴ شزب من طول تعـــلاك اللجـــم

هــــيكلات وفحــــول وقــــح ∴ أعوجيـــات علـــى الشـــأو أزم

أدت الصـــنعة فـــى أمتنهـــا ∴ فهى من تحت مشيحات الحزم[١]

---

(١) يجبر المحروب: يعوض الذى سلف ماله . السوام: المال والإبل. المشـــتاة: موضع الإقامة وقت الشتاء. النيب: جمع ناب وهى المسنة من الإبل . القرم: الشهوة إلى اللحم . ترع الجاهل: كفه وإبعاده ، الحـــرم: المكـــان الطـــاهر المقدس . الخرطوم : مقدم الشئ وأعلاه . ضرابى : صـــيغة مبالغـــة مـــن ضارب، البهم: جمع بهمة. وهو الشجاع الذى لا يغلب . السرب: القطيع من الإبل والماشية والطير وغير ذلك. واضـــحى الأوجـــه: حســـان الوجـــوه. حسامات: جمع حسام ، وهو السيف القاطع. رسبا : جمع راسب وهو الذى يدخل فى الضريبة أى فى الفريسة المضروبة. والضريبات: جمع ضـــريبة وهى المضروبة . متراث : قاطعات ومسقطات. العصم: المعاصـــم: جمـــع معصم، وهو موضع الأسورة فى اليد. القنا: جمع قناة وهى الرمح. جـــرد : جمع جرداء، وهى الطويلة الملساء. شزب: جمع شازب، وهو الضامر . من طول تعلاك اللجم: أى مضغ اللجم جمع لجام، وهذا كناية عـــن اســـتعمال خيولهم الضامرة المدربة كثيرا فى الحـــرب، فلجمهـــا لا تكـــاد تفارقهـــا . هيكلات: إناث طوال. وفحول : جمع فحل وهو الحصان . وقح: جمع وقاح وهو الصلب الحافر . أعوجيات منسوبة إلى أعواج وهو الفحـــل النجيـــب. الأزم: المكبة على الجرى السريعة ٠

إلى آخر ما قال فى فخره ووصفه لبطولات قومــه وأســلحتهم وخيولهم وكان ذلك كله سببا فى انتصارهم على قبيلة تغلب المعاديــة لهم ٠

فهم أصحاب مجد وعز، ورئيسهم ســيد الســادات أى عظــيم العظماء ، رجل معطاء حازم شجاع واسع العقل ، سديد الرأى بعيــد النظر قوى الحجة، حازم فى أموره كلها، وقومه خير القبائل العدنانية، وأكرمهم جودا ومجدا وعطاء ومنزلة وقوة وشهامة، وأسلحتهم أقــوى الأسلحة وأمضاها، وخيولهم كريمة مدربة قوية، صلبة لا تأبه بالأعداء ولا بقوتهم وأسلحتهم ، يقودها أبطال مغاوير، ولذلك فهــم جــديرون بالنصر والتفوق على أعدائهم ٠

وإذا كان طرفة قد افتخر بقومه بكر وانتصارهم على تغلب يوم تحلاق اللمم فإن عمرو بن كلثوم قد افتخر بقبيلته تغلب، وببطــولاتهم، ووصف قوتهم وأسلحتهم وخيولهم فى معلقتــه النونيــة التىاســتهلها بقوله[١]:

ألا هبــى بصــحنك فاصــبحينا ∴ ولا تبقــى خمــور الأنــدرينا

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى صــ١٣٩ صــ١٩٦٦ ٠

فقال من قصيدته هذه مفتخراً :

وقد علـم القبائـل مـن معـد ∴ إذا قبـب بأبطحهـا بنينـا

وأنـا المطعمـون إذ قـدرنا ∴ وأنـا المهلكـون إذا ابتلينـا

وأنـا المـانعون لمـا أردنـا ∴ وأنـا النـازلون بحيـث شـينا

وأنـا التـاركون إذ سـخطنا ∴ وأنـا الآخـذون إذا رضـينا

وأنـا العاصـمون إذا أطعنـا ∴ وأنـا العـازمون إذا عصـينا

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ∴ ويشرب غيرنـا كـدرا وطينـا

ألا أبلـغ بنـى الطمـاح عنـا ∴ ودعميـا فكيـف وجـدتمونا

إذا ما الملك سام الناس خسـفا ∴ أبينـا أن نقـر الـذل فينـا

ملأنا البر حتـى ضـاق عنـا ∴ ومـاء البحـر نملـؤه سـفينا

إذا بلـغ الفطـام لنـا صـبى ∴ تخـر لـه الجبـابر سـاجدينا

ويفخر عمرو بن كلثوم بفرع قبيلته على بقية فـروع القبيلـة، فقومه من فرع قبيلته هو الأيمنون، وبقية عشيرته من غير فرعه كانوا

أهل الشمال، وبينما رجعت الفروع الأخرى من الحرب بالنهاب والسبايا ، عاد قومه وقد أسروا الملوك والأشراف من أعدائهم ، وصفدوهم بالقيود والأغلال . يقول عمرو[١]:

وكنا الأيمنين إذا التقينا .·. وكان الأيسرين بنو أبينا

فصالوا صولة فيمن يليهم .·. وصلنا صولة فيمن يلينا

فآبوا بالنهاب وبالسبايا .·. وأبنا بالملوك مصفدينا

وإذا كان شعر الفخر يعود أغلبه فى الجاهلية إلى القبيلة، حيث يتحدث الشاعر عن أمجاد القبيلة وشرفها ومفاخرها، وما كان لها من أيام ووقائع انتصرت فيها فإن بعض شعراء الجاهلية قد افتخر بنفسه وما كان له من بطولات ، وما قدم من تضحيات وانتصارات فى المعارك مع أبطال القبائل الأخرى، وكيف نال الشرف والسؤدد بأعماله الجليلة بين رجال قبيلته وبقية القبائل . فهذا عنترة بن شداد العبسى فى معلقته الشهيرة التى يستهلها بقوله[٢] :

---

(١) المصدر نفسه صـ١٥٦ .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزنى صـ١٦٢ وما بعدها .

هل غادر الشعراء من متــردم ∴ أم هل عرفت الدار بعد توهم[١]

يتحدث عن شجاعته وجسارته فى الحروب مخاطبا ابنــة عمــه عبلة فيقول:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالــك ∴ إن كنت جاهلة بما لــم تعلمــى

إذ لا أزال على رحالــة ســابح ∴ نهــد تعــاوره الكمــاة مكلــم

طورا يجــرد للطعــان وتــارة ∴ يأوى إلى حصد القسى عرمــرم

يخبرك من شهد الوقيعة أننــى ∴ أغشى الوغى وأعف عند المغــنم

ومدجج كره الكمــاة ــ نزالــه ∴ لا ممعــن هربــا ولا مستســلم

جادت له كفى بعاجــل طعنــة ∴ بمثقف صدق الكعــوب مقــوم

فشككت بالرمح الأصــم ثيابــه ∴ ليس الكريم على القنا بمحــرم

---

(١) المتردم : الموضع الذى يسترقع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهى . التعاور : التداول. النهد: الضخم . العرمرم: الكثير . المدجج : التام السلاح ز الكماة : الأبطال . الإمعان : الإسراع . المثقف : الرمح . صدق الكعوب : صلب الكعوب، شككت : طعنت . بالرمح الأصــم: أى الصــلت. جــزر السباع: أى طعاما للسباع. ينشنه: يتناولنه . والقضم: الأكل. أى أنــه قتلــه فجعله عرضة للسباع فتناولته وأكلته ٠

فتركته جزر السـباع ينشـنه ∴ يقضمن حسن بنانه والمعصـم

... إلى آخر ما تحدث به عن شجاعته مقدما بطولاته مهرا لابنة عمه عبلة التى يخاطبها فى هذه القصيدة .

ولم يتوقف الفخر والتطاول علـى الغيـر بالأمجـاد والتعـالى بالأحساب والأنساب ، والتباهى بالشجاعة والإقدام وذكـر المحاسـن وفعل الخيرات فى سن الشباب ولكن إذا تقدمت سن الشـاعر وعـلاه الشيب إذا به أيضا يتغنى بذكرياته، ويفخر بما قدمـه مـن بطـولات وانتصارات، وبما لقومه من أمجاد وفخار . ومن ذلك ما قاله سـلامة بن جندل السعدى [1] :

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب ∴ أودى وذلك شأو غير مطلـوب

ولى حثيثا وهذا الشيب يطلبـه ∴ لو كان يدركه ركض اليعاقيـب

أودى الشباب الذى مجد عواقبه ∴ فيـه نلـذ ولا لـذات للشـيب

يومان يـوم مقامـات وأنديـة ∴ ويوم سير إلى الأعداء تأويـب

وكرنا خيلنا أدراجهـا رجعـا ∴ كس السنابك من بدء وتعقيـب

---

(١) المفضليات ٢٢ .

والعاديات أسابى الدماء بها ∴ كأن أعقابها أنصاب ترجيب

من كل حت إذا ما ابتل ملبده ∴ صافى الأديم أسيل الخد يعبوب

فى كل قائمة منه إذا اندفعت ∴ منه أساو كفرغ الدلو أثعوب(١)

إلى غير ذلك من التمثيل لغرض الفخر فى الشعر الجاهلى ، سواء أكان فخرا ذاتيا أو قبليا ، وهو من أكبر الأغراض الشعرية إن لم يكن أكبرها على الإطلاق، حيث إن الإعجاب الشديد بالنفس من ناحية، والعصبية القبلية من ناحية أخرى، كلاهما كان متسلطا على كل فرد فى القبيلة وعلى الشاعر أكثر ، بل إن الشاعر هو الذى يعبر عن ذلك بوضوح ، ونزعة التعالى والتفاخر والاعتزاز كانت مسيطرة عليهم جميعا، فليس هناك استثناء ــ تقريبا ــ بينهم من التخلى عن هذه النزعة ، إذ إن العربى فى الجاهلية كان يحب أن يظهر نفسه

---

(١) أودى: هلك ، وأراد: ذهب. ذو التعاجيب: كثير العجب. الشأو: السبق. حثيثا: سريعا. اليعاقيب: جمع يعقوب، وهو ذكر الحجل، وخصه لسرعته . ويقصد باليومين : يوم المقامات والأندية ويوم السير إلى الأعداء، أن حياة الشباب عنده وعند بنى سعد قومه كانت موزعة بين اللهو والرفه ومجالس الأندية والخطابة، بين السير لمحاربة الأعداء والانتصار عليهم . والتأويب: سير يوم إلى الليل. الكر: الرجوع. السنابك: مقادير الحوافر . والكسس: أصله تحات الأسنان ، فاستعار للسنابك، وأراد أنها تثلمت من كثرة السير لثلم الحجارة إياها . من بدء وتعقيب: أى فى الغزو . العاديات: الخيل. الأسابى الطرائق. ترجيب تعظيم . الحت: السريع . ملبد الفرس: موضع اللبد منه. يعبوب : كثير الجرى. الأساوى: الدفعات من الجرى. فرغ الدلو: مخرج الماء منه . أثعوب: سائل منعب : شبه دفعات جريها بانصباب الماء من الدلو فى سهولة .

بمظهر التفوق والتعالى على الآخرين وأن يشاع عنه أنه أعلى شـأنا من غيره فى كل شئ . ويلاحظ : "أن ما قيل فى الناحية القبليـة فـى غرض الفخر يكاد يكون ثلاثة أضعاف ما قيل فى الناحية الشخصـية، وهذا معناه أن العصبية القومية كانت سائدة فى ذلك الحـين ، حتـى استولت على نفوس الشعراء، وسيطرت إلى حد كبير على مشاعرهم، فكان فيها معظم إنتاجهم. ولكن هذا يدلنا من ناحية أخـرى علـى أن الشاعر — فى وسط هذا الشعور الجماعى المتسلط — ما كان لينسـى نفسه: كفرد وقائم بذاته، وكشاعر له إحساسه الخاص، فكان يتحـدث عن نفسه ، ويفتخر بشخصيته، وبطولته، وقوته فى حرية تامة وكيفما شاء"[1].

٤ ـ الرثاء :

الرثاء: مظهر اجتماعى فيه تقدير للمرثى ووفاء له واعتـراف بفضله ونبله، كما أن فيه تفجعا وتوجعا لفقده.

وقد حفل الشعر الجاهلى به — كغيره من الفنون — حيث بكـى الشعراء فى المرثى شجاعته وإقدامه وحكمتـه النافـذة وانتصـاراته العظيمة فى الحروب، وأنه بموته تموت الشجاعة والعزة والكرامة.

---

(١) فى تاريخ الأدب الجاهلى صـ٣٧٣ طبعة دار المعارف .

كما بكوا فيه كرمه وسخاء يده وعفوه وفضله ومروءته، وأنه كان دائما عونا للمحتاجين ، وأن الناس كانوا يقطعون إليه الفيافى ويتجشمون الصعاب رجاء عطائه، ورغبة فى ثوابه٠

ولا يبكى الشعراء وحدهم على فقيدهم ، وإنما يستبكون الثقلين، ويستبكون الرياض والأزهار والأطيار، ويستمطرون الغيث ، ويستنزل المتحفون فيهم الرحمة والمغفرة لموتاهم .. إلى غير ذلك من مظاهر الحزن والحسرة والتفجع على المرثى ٠

هذا هو مظهر الرثاء ونظامه الوارد فى الشعر الجاهلى، وفى شعر العصور الأدبية جميعها٠

والمعروف أن الرثاء والمدح صنوان لا يفترقان فى ذكر الصفات الكريمة للممدوح وفى التفجع على المرثى ٠

فالمدح : إقرار بمآثر الممدوح فى حياته ، وإظهار لفضله وكرمه فى السلم ، وفخر بشجاعته وإقدامه وقوة بأسه فى الحرب، فهو كالبحر فى الكرم وكالأسد فى الشجاعة ٠

والرثاء : هو أن يبكى الشاعر فى المراثى هذه الأمور جميعها ويستبكى معه مظاهر الطبيعة، وأنه بموته قد حرم الأنام من كرمه وشجاعته ، وجميع صفات الخير فيه٠

بيد أن المبالغات – غالبا – تكون فى المدح أكثر من الرثـاء، وبخاصة إذا كان المدح للتكسب، فإن الشاعر قد يلبس ممدوحه حلـلا من التفوق على بنى جنسه ربما لا يكون أهلا لها أو أن تكـون أكبـر من حجمه، وذلك رغبة فى العطاء وأملا فى رضى الممـدوح عنـه وعما قاله فى هذا الشاعر ٠

أما الرثاء فإن المبالغات غير المقبولة تكون عادة قليلـة، فـلا يتعلق بها رجاء ولا ينعقد عليها أمل فى العطاء . وإنما تكون المرثية إما مجاملة لأهل المرثى وذويه ، وإما أن تكون تفجعا وتوجعا وحسرة حقيقية وفى الحالين لا ينتظر ثوابا على قصيدته، اللهم إلا فى النـادر منها ٠

ومما قيل فى الرثاء فى الشعر الجاهلى، ما ورد لسـعدى بنـت الشمردل الجهنية فى رثاء أخيها حيث تقول[١]:

فلتبك أسـعد فتيـة بسباسـب ∴ أقووا وأصبح زادهـم يتمـزع

جاد ابن مجدعة الكمى بنفسـه ∴ ولقد يـرى أن المكـر لأشـنع

ويلمـه رجـلا يليـذ بظهـره ∴ إبـلا ونسـأل الفيـافى أروع

---

(١) الأصمعيات صـ١٠٢ ٠

يرد المياه حضـيرة ونفيضـة ∴ ورد القطاة إذا اسـمأل التبـع

وبه إلى أخرى الصحاب تلفـت ∴ وبه إلى المكروب جرى زعزع

سباق عادية، وهـادى سـرية ∴ ومقاتـل بطـل وداع مسـقع

ذهبت به بهز فأصـبح جـدها ∴ يعلو،وأصبح جد قومى يخشع[١]

فهى تعبر عن حزنها وتفجعها على أخيها البطل الذى قتلته بهز من بنى سليم بن منصور، وتبكى صـفاته الجليلـة وأخلاقـه النبيلـة وعاداته الكريمة ، كما تبكى شجاعته وكرمه ومروءته .. وغيرها من الصفات التى تحلى بها بين أترابه وشباب قومه ٠

وهذا دريد بن الصمة يرثى أخاه حينما لقى حتفـه فـى إحـدى المواقع ، ويعدد صفاته العظيمة وخصاله الكريمة وما تحلى بـه مـن الشجاعة والبطولة. فقال[٢]:

---

(١) أسعد : أخوها . سباسب: جمع سبسب وهى المفازة . أقووا: نزلوا القواء أو نفذ زادهم . يتمزع ينقسم . ابن مجدعة: أخوها أسعد . الكمـى: الشـجاع. أشنع: أشد وأقوى. يليـذ : يحمـى . نسـال: أى سـريع . أروع أكـرم . الحضيرة: النفر يغزى بهم . النفيضة: الطليعة تتقدم الجيش. اسمأل: تقلص وضمر. التبع: الظل، لأنه يتبع الشمس. أخـرى الصـحاب: أواخـرهم . زعزع: شديد، العادية : الخيل تعدو . سرية: السرى وهو السير باليل ، أى يهدى السارية ليلا . مسقع أى المصقع : وهو البليغ . الجد: الحظ ٠

(٢) ديوان الحماسة ج١ صـ٣٣٧ ٠

تنادوا فقالوا أردت الخيل فارسـا ∴ فقلت أعبد الله ذلكـم الـردى ؟

فجئت إليه والرمـاح تنوشـه ∴ كوقع الصياحى فى النسيج الممـدد

فطاعنت عنه الخيل حتى تنفست ∴ حتى علا فى حالك اللون أسـودى

قتال امرئ آسى أخاه بنفسـه ∴ ويعلم أن المـرء غيـر مخلـد

فإن يك عبدالله خلـى مكانـه ∴ فما كان وقافا ولا طائش اليـد

كميش الإزار خارج نصف سـاقه ∴ بعيد من الآفـات طـلاع أنجـد

قليل التشكى للمصيبات حـافظ ∴ من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد[1]

وإن مسه الإقواء والجهد زاده ∴ سماحا وإتلافا لما كان فى اليـد

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه ∴ فلا علاه قـال للباطـل أبعـد[2]

---

(١) تنوشه: تتناوله. الصياصى: جمع صيصة. وهى الشوكة يمررهـا الحائـك على الثوب وقت نسجه. تنفست تكشف. آساه: فداه بنفسه. الكميش: الخفيف السريع. بعيد من الآفات : أى سليم لا داء به . خمـيص الـبطن: خاليهـا. العتيد: المعد. المقدد: الممزق .

(٢) الإقواء: الفقر. صبا: الأول من صبا يصبو بمعنى مال. والثانى من الصباء وهو حداثة السن . أى أنه مال إلى اللهو مدة صغره، فلما وصل سن الشباب ترك الملاهى واللعب، ودخل فى مرحلة الرجولة والشجاعة .

ولما كان عبد يغوث بن الحرث قائد قومه يوم الكلاب الثـــانى، وأسر فى بنى تميم ، أراد أن يفدى نفسه، ولكن بنى تميم أبـــت إلا أن تقتله بالنعمان بن جساس، ولما لم يجد بدا من القتل طلـــب إلـــيهم أن يطلقوا لسانه ليذم أصحابه الذين تخلو عنه وينوح على نفسه، وطلـــب منهم أيضا أن يقتلوه قتلة كريمة، فأجابوه إلى طلبه ، وسقوه الخمـــر ، وقطعوا له عرقا يقال له الأكحل، وتركوه ينزف حتى مات، وقال هـــو قصيدته يفخر فيها بنفسه وشجاعته وكرمه وسخاء يده، وبراعته فـــى قتال أعدائه ، ومن هذه القصيدة قوله[1]:

ألا لا تلومانى كفى اللوم ما بيا ∴ فما لكما فى اللوم خير ولا ليـــا

ألم تعلما أن الملامـــة نفعهـــا ∴ قليل،وما لومى أخى من شماليا

فيا راكبا إما عرضـــت فـــبلغن ∴ نداماى من نجران أن لا تلاقيـــا

أبا كـــرب والأيهمـــين كليهمـــا ∴ وقيسا بأعلىحضرموت اليمانيا

جزى الله قومى بالكلام ملامـــة ∴ صريحهم والآخـــرين المواليـــا

ولوشئتنجتنىمن الخيل نهدة ∴ ترى خلفها الحوالجيـــاد تواليـــا

(١) المفضليات صـــ٣١٥ .

ولكننى أحمـــى ذمــار أبــيكم ∴ وكان الرماح يختطفن المحاميـــا

فإن تقتلونى تقتلوا بـــى سـيدا ∴ وإن تطلقونى تحربونى بماليـــا

أحقا عباد الله أن لست ســامعا ∴ نشيد الرعاء المعزبين المتاليـــا

وقد علمت عرسى مليكة أننـــى ∴ أنا الليث معدوا عليــه وعاديـــا

وقد كنت نحار الجزور ومعمل المـــ ∴ ـــطى وأمضى حيث لاحـــى ماضـــيا

وأنحر للشرب الكرام مطيتـــى ∴ وأصدع بين الصـــينتن ردائيـــا

وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا ∴ لبيقا بتصـــريف القنـــاة بنانيـــا

وعادية سوم الجراد وزعتهـــا ∴ بكفى وقد أنحوا إلـــى العواليـــا

كأنى لم أركب جوادا ولم أقـــل ∴ لخيلى كرى نفسى عن رجاليا[1]

---

(١) الشمال : واحدة الشمائل، أى الخصال الحميدة . أبو كرب: هو بشـــر بـــن علقمة بن الحرب. والأيهمان: هما الأسود بن علقمة بن الحرب، والعاقـــب وهو: عبدالمسيح بن الأبيض. الموالى هنا : الحلفـــاء . النهـــدة : المكـــان المرتفع وتحربونى: من حربه يحربه، أى أخذ ماله وتركه بلا شئ . الرعاء: جمع راع. المعزب: المتنحى بإبله . المتالى: الإبل التى نتج بعضها وبقـــى بعض . أصدع : أشق. القينة المغنية. شمصها : من شمص بمعنى نفـــر . واللبيق: الحاذق الظريف. العادية: الخيل المغيرة سوم الجراد، انتشاره فـــى طلب المرعى. أى أن الخيل كالجراد فى كثرتها . وزعتها: كففتها. أنحـــوا إلى : وجهوا إلى .

ولعل أشهر من عرف بالبكاء وغزارة الدموع وكثرة الرثاء هى الخنساء، فهى أشهر من بكت واستبكت فى الجاهلية حين قتل أخوها معاوية فى بعض غاراته، فما كان منها إلا أن عقدت عليه مأتما ضخما، واشتد بها الحزن، وكثر عويلها على معاوية، فأثار ذلك أخاها صخرا فثأر له ولكنه جرح جرحا عميقا غائرا أدى إلى وفاته. فاشتد حزنها وعلا صوتها بالصراخ والندب والعويل على أخيها صخر أكثر مما كان منها على أخيها معاوية بالرغم من أن صخرا كان أخاها لأبيها، ومعاوية كان شقيقا لها، إلا أن صخرا كان يحبها أكثر ويعينها على حالها، وقد شاطرها وزوجها أمواله مرارا ، ومن هنا حزنت عليه حزنا شديدا وأطالت عليه البكاء والعويل حتى تقرحت مآقيها، وحتى ضرب بها المثل فى الحزن والبكاء وكثرة الرثاء . ومن رثائها لصخر قولها:

يذكر طلوع الشمس صخرا ∴ وأذكره لكل غروب شمس

فلولا كثرة الباكين حولى ∴ على إخوانهم لقتلت نفسى

ولكن لا أزال أرى عجولا ∴ ونائحة تنوح ليوم نحس

هما كلتاهما تبكى أخاها ∴ عشية رزئه أو غب أمس

وما يبكين مثـل أخـي ولكـن ∴ أسـل الـنفس عنـه بالتأسـي

فقد ودعت يوم فـراق صـخر ∴ أبـي حسـان لـذاتي وأنسـي

فيا لهفي عليـه ولهـف أمـي ∴ أيصبح في الضريح وفيه يمسي[١]

وتقول في قصيدتها الرائية المشهورة في رثاء صخر :

قذى بعينك أم بـالعين عـوار ∴ أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

كأن عيني لذكراه إذا خطـرت ∴ فيض يسيل على الخدين مدرار

فالعين تبكي على صخر وحق لها ∴ ودونه من جديد الأرض أسـتار

تبكي خناس وما تنفك ما عمـرت ∴ لها عليه رنـين وهـي مقتـار

تبكي خناس على صخر وحق لها ∴ إذا رابها الدهر إن الدهر ضرار

بكاء والهـة ضـلت أليفتهـا ∴ لها حنينـات: إصـغار وإكبـار

وإن صـخرا لكافينـا وسـيدنا ∴ وإن صخرا إذا نشـتوا لنحـار

---

(١) العجول: المرأة الثكلى. التأسي: الاقتداء. أبو حسان: كنية صخر ٠

وإن صخرا لمقدام إذا ركبــوا ∴ وإن صخرا إذا جــاءوا لعقــار

وإن صخرا لتأتم الهــداة بــه ∴ كأنــه علــم فــى رأســه نــار

حمــال ألويــة هبــاط أوديــة ∴ شهاد أنديــة للجــيش جــرار

لا يمنع القوم إن سألوه خلعته ∴ ولا يجــاوزه بالليــل مــرار [١]

كل هذه المشاعر الصادقة إنما تصدر عن قلــب حــزين ملــئ بمشاعر الأسى والحسرة لموت أخيها الذى يحبها وتحبه والذى طالمــا كان يعطف عليها ويؤازرها ويشاطرها وزوجها ماله وما يملك ، وما يتحلى به من مكارم الأخلاق ونبيل الصفات ولذلك كانــت عاطفتهــا جياشة، وحزنها غائرا عميقا لموت صخر ومن قبله معاوية شــقيقها. وكل ذلك كان فى جاهليتها، فلما أسلمت وتمكنت عقيدة التوحيــد مــن قلبها، خف حزنها وجفت دموعها ، وفوضت أمرها إلى بارئها، وهذا قد اتضح فى وداعها لأبنائها الأربعة الذين شاركوا فى حرب القادسية بين العرب والفرس فى السنة الخامسة عشرة مــن الهجــرة النبويــة الشريفة . حيث أوصتهم بوصاياها وحضتهم على الصبر عند الزحف.

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ١٥٦ للشيخين : أحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى ٠

فلما قتلوا جميعا ، حمدت الله على استشهادهم فى سبيل الله وقالــت : "الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم فى سبيل الله، وأرجو الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته" ولم تحزن عليهم ــ وهم أولادها ــ حزنهــا علــى أخويها ٠

وكان الأسى ومشاعر الحزن العميق تثير شجون القبيلة عنــدما تتذكر من فقدتهم من رجالها الشجعان فى الغارات وفى غيرها، فيرثى شاعر القبيلة حينئذ هؤلاء الأبطال من جديد ، ويعبر عن لوعته وأساه لفقدهم ومن ذلك ما قاله أبو دؤاد الإيادى فى رثاء أبطال قبيلته[1]:

لا أعد الإقتــار عــدما ولكــن ∴ فقد مــن قــد رزئتــه الإعــدام

من رجال من الأقــارب فــادوا ∴ من حذاق هم الرءوس العظــام

فهــــم للملائمــــين أنـــــاة ∴ وعــــرام إذا يـــــراد العـــــرام

وسماح لدى الســنين إذا مــا ∴ قحط القطــر واســتقل الرحــام

ورجال أبــوهم وأبـــى عمـــ ∴ ـــرو وكعب،بيض الوجوه حسام

---

(١) الأصمعيات صـــ١٨٧ ٠

وشباب كأنهم أسد غيل ∴ خالطت فرط حدهم أحلام

وكهول بنى لهم أولوهم ∴ مأثرات يهابها الأقوام

سلط الدهر، والمنون عليهم ∴ فلهم فى صدى المقابر هام

وكناكم مصير كل أناس ∴ سوف حقا تبليهم الأيام

فعلى إثرهم تساقط نفسى ∴ حسرات وذكرهم لى سقام[١]

ولم يكن رثاء الشعراء للموتى والقتلى وقفا على من فقد من الأهل والأقارب ورجال القبيلة، ولكنه أيضا كان لمن مات من رجال عظام كانت تربطهم بهم علاقة حميمة فى حياتهم، ومن ذلك رثاء النابغة الذبيانى للنعمان بن الحارث بن أبىسمر الغسانى حيث يقول[٢]:

فلا يهنئ الأعداء مصرع ملكهم ∴ وما عنقت منه تميم ووائل

---

(١) الإقتار: قلة الماء وضيق العيش. العدم والإعدام: الفقر. فادوا: ماتوا. الملائمون: المخلصون. أناة: من التأنى والرفق. العرام: الشدة استقل: ارتحل. الرهام: الأمطار الخفيفة. حسام: شجعان . غيل: أجمعة، وهى الشجر الكثيف الملتف . الحدة: الغضب الشديد. والأحلام . العقول الراجحة. الهام: جمع هامة. وكانوا يزعمون أن روح الميت تصير هامة فتطير، ويسمون ذلك الصدى ، فنفى الإسلام هذا الزعم .

(٢) ديوان النابغة الذبيانى صـ٨٢ .

وكان لهم ربعيــة يحــذرونها ∴ إذا خضخضت ماء السماء القبائــل

يسير بها النعمان تغلى قــدوره ∴ تجيش بأسباب المنايا المراجــل

يقول رجال يجهلــون خليقتــى ∴ لعــل زيــادا لا أبالــك غافــل

أبى غفلة أنى إذا مــا ذكرتــه ∴ تحرك داء فــى فـؤادى داخــل

وإن تلادى إن ذكرت وشــكتى ∴ ومهرى وما ضمت إلى الأنامل

حباؤك والعيس العتاق كأنهــا ∴ هجان المها تحدى عليها الرحائل[١]

فإن كنت قد ودعت غير مــذمم ∴ أواسى ملــك ثبتتهــا الأوائــل

فلا تبعــدن إن المنيــة منهــل ∴ وكل امرئ يوما به الحال زائــل

فما كان بين الخير لو جاء ســالما ∴ أبــو حجــر إلا ليــال قلائــل

سقى الغيث قبرا بين بصرى وجاســم ∴ بغيث من الوسمى قطــر ووابــل

ولا زال ريحان ومسك وعنبــر ∴ على منتهاه ديمــة ثــم هاطــل

---

(١) عنقت : نجت . ربعية: غزوة . خضخضت : حركت الماء. زيــادا: اســم النابغة الذبيانى . حباؤك : هديتك. العيس: الإبل. الرحائل: السرج .

وينبت حوذانا وعوفا منورا ∴ سأتبعه من خير ما قال قائل

بكى حارث الجولان من فقد ربه ∴ وحوران منه موحش متضائل

قعودا له غسان يرجون أوبه ∴ وترك رهط الأعجمين ووائل[١]

فالشاعر تربطه بالفقيد علاقة حب وود وإخلاص . إذ إن النعمان قد أفاض كثيرا على النابغة فى حياته ، وقد وصله وأعطاه وأهداه، والشاعر يقر بذلك فى قصيدته هذه ، ويعترف بأن أمواله وأسلحته وخيله وكل ما يملك إنما كل ذلك من عطايا الفقيد وهباته ، ولو بقى الفقيد سالما من الموت لعم خيره الناس جميعا، ولكن الموت عاجله، وإذا كان قد مات عن ملك عظيم ورثه عن آبائه وأجداده، فإن هذا الملك قد نهل منه الناس، واستفادوا ، وهم جميعا قد رضوا عنه وبكوه وتألموا لفقده، وختم الشاعر مرثيته بالدعاء للمكان الذى دفن فيه بدوام الخصب وطيب الثرى .

---

(١) أواسى: جمع آسية وهى السارية والدعامة . أبو حجر: كنية النعمان ابن الحارث. آب: رجع. المصلون: أصحاب الصلاة وهم الرهبان وأهل الدين. بعين جلية: أى بخبر يؤكد موته . بصرى وجاسم: موضعان فى الشام. الوسمى: أول المطر . الحوذان والعوف: نباتان عطريان.

إلى غير ذلك من النماذج الكثيرة فى فن الرثاء ، ولا شك أنهـم كانوا يعددون الخصال الحميدة فى المرثى ، وما كان له من صـفات نبيلة وشمائل عظيمة ، وأخلاق كريمة ، وأعمال يتباهون بهـا بـين القبائل من البطولة والفداء، كما أن الشعراء كانوا يشـيدون بهـؤلاء المفقودين وما كان لهم من صفات المودة والوفـاء مـع الأصـدقاء، والشدة والبأس مع الأعداء، والجود والكرم لطالبى الجـود والكـرم ، وفى أوقات الشدة والجدب، وهذه المعانى وغيرها كانت تتـردد فـى الرثاء كما كانت تتردد فى المدح والفخر الجاهلى .

٥ ـ الهجاء :

إذا كان الفخر من أعلى الفنون الشعرية التى احتلت حيزا كبيرا من دواوين الشعراء ونفوسهم وتفكيرهم فى العصر الجـاهلى، حيـث افتخروا بأحسابهم وأنسابهم، وبما قدموه من بطولات وانتصارات فـى ميادين القتال ومن كرم وسخاء وجود كثير في وقت الحاجـة للكـرم والجود، ومن مكارم الأخلاق ونبيل الصفات. إذا كان الأمـر كـذلك فإنهم فى الهجاء والوعيد والتهديد يسلبون القبائل المعادية والأشخاص المناوئين لهم كل هذه الصفات، وما يؤكدونه لأنفسـهم مـن مكـارم ومحامد ترتفع بها هاماتهم بين العرب. أى أن الهجاء "كان على عكس الفخر، يعددون فيه عيوب الخصوم والأعداء، فيذكرون ما فى تاريخهم من مخاز، وما نزل بهم من هزائم، وما حل بهم من خسائر أو عـار،

ويرمونهم بأقبح العادات، وذميم الصفات، وكثيراً ما كان يتخلل هجاءهم وعيد وتهديد ، وقد كان الهجاء يوجه إلى الأعداء فى معرض الفخر ، أو فى ثنايا المدح، لأن فى تحقير الأعداء والحط من شأنهم رفعة للمفتخر أو للممدوح، وكان من أبرز ما هجا به الشعراء فى العصر الجاهلى : الهزيمة فى الحروب، والجبن، والضعف، والفرار من ميدان القتال، والأسر والسبى، ودفع الفدية، والنفى من الموطن، وخسة الأصل ، ولؤم الطبع ، والبخل، والشح والحرص، والاعتداء على الجار واللاجئ ، والهرب من الضيفان ، والحمق، والغدر، وإنكار الجميل، وكفران المعروف ، وأخذ الدية، .. وما كان العدو أو الخصم ليسلم من الهجاء والسب والذم مهما علا شأنه ، ولو كان ملكا"(١).

وكانت لبعض شعراء الهجاء فى الجاهلية طقوس خاصة يلتزمون بها عند إرادة الهجاء. ففى "أخبارهم أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حلة خاصة، ولعلها كحلل الكهان، وحلق رأسه، وترك له ذؤابتين ، ودهن أحد شقى رأسه، وانتعل نعلا واحدة"(٢).

يقول د/ شوقى ضيف فى تعليقه على هذا الخبر : " ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سننهم فى الحج، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التى يصنعها فى حجه وأثناء دعائه لربه أو

(١) فى تاريخ الأدب الجاهلى صـ٣٧٣، ٣٧٤ د/ على الجندى ـ دار المعارف
(٢) أمالى المرتضى ١/ ١٩١ .

لأربابه، حتى تصيب لعنات هجائه خصومه، بكل ما يمكن من ألـوان الأذى وضروب النحس المستمر ، فالهجاء فى الجاهلية كان لا يـزال يقرن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر، ولعلهم مـن أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون، ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا"[١].

وكما هو معروف لم يسلم من الهجاء فـى الجاهليـة ملـك ولا عظيم من عظماء القبائل والأقوام ، وهجاء طرفة والمتلمس مشـهور فى عمرو ابن هند ملك الحيرة ، الذى كان من أقسى الملوك وأعنفهم، وكان لعمرو هذا يوم بؤس، ويوم نعمى، فيوم يركب فى صيده يقتـل أول من لقيه، ويوم يقف الناس ببابه، ينعم عليهم ، وإن اشتاق حـديث رجل منهم أذن له . فهجاه طرفة بقوله [٢] :

فليت لنا مكان الملـك عمـرو ∴ رغوثـا حـول قبتنـا تخـور

من الزمرات أسـبل قادماهـا ∴ وضـرتها مركنـة درور

يشـاركنا لنـا رخـلان فيهـا ∴ وتعلوها الكبـاش فمـا تنـور

---

(١) العصر الجاهلى صـ١٩٧ دار المعارف ط٩ ٠
(٢) ديوان طرفة ٠

لعمرك إن قابوس بن هند ∴ ليخلط ملكه نوك كثير

قسمت الدهر فى زمن رخى ∴ كذاك الحكم يقصد أو يجور

لنا يوم وللكروان يوم ∴ تطير البائسات وما نطير

فأما يومهن فيوم نحس ∴ تطاردهن بالحدب الصقور

وأما يومنا فنظل ركبا ∴ وقوفا ما نحل وما نسير(١)

فطرفة فى هذه الأبيات يتهكم بعمرو بن هند ملك الحيرة ويسخر منه سخرية شديدة ويهجوه هجاء مقزعا، فيتمنى أن لو كان لهم مكان الملك عمرو نعجة رغوثا أى مرضعا تصيح بجوار قبتهم وتدر عليهم اللبن ، وتكون ذات ضرة أى درة كبيرة لها جوانب واسعة مملوءة باللبن على الدوام ، وقد ألفت هذه النعجة الذكور فما تنفر منها أبدا . ويقسم طرفة أن فى حكم هؤلاء المناذرة حمقا كثيرا وجهالة وضلالا عظيما . ولما كان عمرو قد قسم الأيام وجعل له يوم بؤس يقتل فيه

---

(١) الرغوث : النعجة المرضع . تخور: تصوت . الزمرات: القليلات الصوف. أسبل: طال وكمل . قادماها: خلفاها. والضرة : لحم الضرع. مركنة : لها أركان أى جوانب، درور : كثيرة الدر. رخلان: مشى رخل، وهى الأنثى من أولاد الضأن، تعلوها الكباش : تلقحها . تنور: تنفر. النوك: الحمق. يقصد : يتوسط فى الأمر ويعدل . يجور: يظلم. الحدب: ما ارتفع من الأرض وغلظ. ركبا : أى قياما ووقوفا على بابه .

أول داخل عليه، ويوم نعمى، ينعم فيه على من يشتاق لحديثه فيأذن له بالحديث من الواقفين المنتظرين ببابه ، وهو فى الحالين ظالم للنـــاس وللطيور التى يصطادها أيضا، فيوجه له طرفة الاتهام بـــالظلم فيمـــا يفعل، فالناس يظلون منتظرين ببابه فلا يأذن لهـــم بـــالجلوس عنـــده فيكرمهم، ولا يأمرهم بالرجوع فيسيروا إلى حيث شاءوا٠

ومن أمثلة الهجاء أيضا: ما قاله أوس بن غلفاء الهجيمى التميمى فى هجاء يزيد بن الصعق الكلابى حيث يقول [1] :

فاجر يزيد مـــذموما أو انـــزع ∴ علـــى علـــب بأنفـــك كالخطـــام

وإن الناس قد علمـــوك شـــيخا ∴ تهـــوك بالنواكـــة كـــل عـــام

وإنك من هجـــاء بنـــى تمـــيم ∴ كمـــزداد الغـــرام إلـــى الغـــرام

هم منـــوا عليـــك فلـــم تثـــبهم ∴ فتـــيلا غيـــر شـــتم أو خصـــام

وهم ضربوك ذات الرأس حتى ∴ بدت أم الـــدماغ مـــن العظـــام

فإنـــا لـــم يكـــن ضـــباء فينـــا ∴ ولا ثقف ولا ابن أبـــى عصـــام

---

(١) المفضليات ٢٢٨ ٠

ولا فضح الفضـــوح ولا شـــيم ∴ ولا ســلماكم صـــمى صـــمام[١]

وكان الهجاء مصحوبا بالتهديد والوعيد، وأكثر ما يكــون ذلــك حينما تحيق الهزيمة بإحدى القبائل، فتثير غضب فرســانها وغــيظهم فيجمعوا أمرهم ويعزموا على الأخذ بثأرهم ليعيدوا النصر والشــرف لقبيلتهم، ومن ذلك ما حدث يوم الرخم حيث انتصرت فى هــذا اليــوم غطفان على بنى عامر بن صعصعة رهط عامر بن الطفيــل، فأقبــل عامر منهزما، ودخل دار أسماء بنت قدامة الفزارية، ثم تمكــن مــن الفرار فقال[٢] :

ولتسألن أسماء وهـــى حفيـــة ∴ نصحاءها أطردت أم لم أطــرد؟

قالوا لها: فلقد طردنـــا خيلـــه ∴ قلح الكلاب، وكنت خير مطــرد

فلأنعيـــنكم المـــلا وعوارضـــا ∴ ولأهبطن الخيل لابـــة ضــرغد

بالخيل تعثر فى القصير كأنهـــا ∴ حدا تتابع فى الطريق الأقصــد

---

(١) العلب: أن تؤخذ حديدة أو نحوها فتحمى ويكوى بها الأنف حتى يقشر ويبدو العظم . الخطام: حبل يوضع فى أنف البير لإذلاله. النوك. التحير والتردد. النواكة: الحمق. الغرام: الشر الدائم. فتيلا: أدنى شئ . حمى الصمام: يقــال للداهية .

(٢) المفضلية رقم ١٠٧ .

ولأثــــارن بمالــــك وبمالــــك ∴ وأخى المروأة الذى لــم يســند

وقتيــل مـــرة أثـــأرن فإنـــه ∴ فـــرع وإن أخـــاهم لـــم يقصـد

يا اسم أخت بنى فــزارة إننـــى ∴ غاز، وإن المرء غيـــر مخلـد

فيئى إليك فــلا هــوادة بيننـــا ∴ بعد الفوارس إذ ثووا بالمرصـد

إلا بكـــل أحـــم نهـــد ســـابح ∴ وعلالة من كـل أســمر مـذود

وأنا ابن حرب لا أزال أشـــبها ∴ سعرا وأوقـدها إذا لــم توقـد

فإذا تعــذرت الــبلاد فأمحلــت ∴ فمجارهـــا تيمـــاء أو بالإثمـد

فالشاعر هنا يتأجج غضبا وحقدا ويعبر فى ثورة عارمة مهـددا ومتوعدا أعداءه بحرب ضروس يتأثر بها لشرفه وكرامته، ويقـتص بها لقبيلته من هؤلاء الأعداء٠

وكانت القبائل تخشى ألسنة الشعراء وتهديداتهم بذكر مسالبهم فى شعرهم ، حيث كان الشعراء ينشرون مخازيهم وعيـوبهم، وتلوكهـا ألسنة العامة والخاصة من الناس، وتصبح سبة فى وجوههم ويعيرون بها بين القبائل، ولذلك فكانوا يعملون ألف حساب للشعراء لا حبا فيهم

ولكن خوفا منهم. ومما ورد فى التهديـد بالشـعر ونشـر المخـازى والعيوب قول مزود [١] :

فدع ذا ولكن ما ترى رأى عصبة ∴ أتتنـى مـنهم منـديا عضـائل

يهزون عرضى بالمغيب ودونه ∴ لقـرمهم مندوحـة ومآكـل

على حين أن جربت واشتد جانبى ∴ وأنبح منى رهبة مـن أناضـل

وجاوزت رأس الأربعين فأصبحت ∴ قناتى لا يلفى لها الدهر عـادل

فقد علموا فى سالف الدهر أننى ∴ معن إذا جـد الجـراء ونابـل

زعـيم لمنقاذفتـه بأوابـد ∴ يغنى بها السارى وتحدى الرواحل

مذكرة تلقـى كثيـرا رواتهـا ∴ ضواح، لها فى كل أرض أزامل

تكر فـلا تـزداد إلا اسـتنارة ∴ إذا رازت الشعر الشفاه العوامل

فمن أرمه منها ببيت يلح بـه ∴ كشامة وجه، ليس للشام غاسل

---

(١) المفضلية رقم ١٧ .

كذاك جزائى فى الهــدى وإن أقــل ∴ فلاالبحرمنزوحولاالصوتصــاحل[١]

فهو هنا يتوعد أعداءه بشعر ينشر فيــه فضــائحهم ومخــازيهم ويجعل الرواحل تسير به والناس يتناقلونها ويلقونها فى كــل مكــان ، وفى هذا إهانة لهم وتنقيص من شأنهم ، وإهدار لكرامتهم٠

ولما كان الشاعر لسان قومه وحامى حماهم ، يسره مــا يســر قومه، ويضره ما يضر قومه، فكان لقومه الحارس الأمــين، الغيــور على شرفهم وأعراضهم وكرامتهم . وكان يغضبه غضــبا شــديدا أن يرى من يدبر لقومه لينال منهم . ومن ذلك ما حدث مع لقيط بن يعمر الإيادى ، فقد كان كاتبا فى ديوان كسرى، فعلم أن كسرى مجمع على غزو إياد ، فكتب إلى قومه إياد شعرا ينذرهم به، ليعدوا العــدة لهــذا الغزو ، ولكن كتابه وقع فى يد كسرى، فقطع كسرى لسان لقيط وغزا إيادا. وكان مما كتبه لقيط فى ذلك[٢]:

بل أيها الراكب المزجى مطيته ∴ إلى الجزيرة مرتــادا ومنتجعــا

---

(١) المنديات : المخزيات. العضائل: الشدائد. يهزون : يقطعون . القرم: الأكل بمقدم الفم . أنبح منى: أى صيرته ينبح كالكلب. المعن : المعترض. الجراء: الجرى. النابل: الحاذق فى أموره. الأوابد: جمع آبدة. وهى الغريــب مــن الكلام ، ويقصد القصائد التى يهجوهم بها. ضواح: بارزة ظاهرة . أزامل: جمع أزمل، وهو كل صوت مختلط . تكر: تعاد كرة بعــد كــرة . رازت : جربت. العوامل: النواطق بالشعر ٠

(٢) مختارات ابن الشجرى قصيدة رقم ١ ٠

أبلغ إيادا وخلــل فـــى ســـراتهم ∴ إنى أرى الرأى، أن لم أعص قد نصـــعا

يا لهف نفسى إن كانت أموركم ∴ شتى وأحكم أمر الناس فاجتمعا

إنى أراكم وأرضا تعجبون بهـــا ∴ مثل السفينة تغشى الوعث والطبعا

ألا تخـــافوا قومـــا لا أبـــالكم ∴ أمسوا إليكم كأمثال الدبا ســـرعا

أبناء قوم تأووكم علـــى حنـــق ∴ لا يشعرون أضـــر الله أم نفعـــا

أحرار فارس أبناء الملوك لهم ∴ من الجموع جموع تزدهى القلعا

فهم سراع إليكم: بـــين ملـــتقط ∴ شوكا، وآخر يجنى الصاب والسلعا

لو أن جمعهم رامـــوا بهدتـــه ∴ شم الشماريخ من ثهلان لانصدعا

فى كل يوم يسنون الحـــراب لكـــم ∴ لا يهجعـــون إذا مـــا غافـــل هجعـــا

خزر عيـــونهم كـــأن لحظهـــم ∴ حريق غاب ترى منه السنا قطعا

لا الحرث يشغلهم، بل لا يرون لهم ∴ من دون بيضتكم ريا ولا شـــبعا

وأنتم تحرثون الأرض عن سفه ∴ فى كل معتمل تبغون مزدرعـــا

يا قوم إن لكم من إرث أدلكم ∴ مجداقدأشفقت أن يفنى وينقطعا

ماذا يريد عليكم عز أولكم ∴ إن ضاع آخره أو ذل واتضعا[١]

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا ∴ على نسائكم كسرى وما جمعا

يا قوم بيضتكم لا تفجعن بها ∴ إنى أخاف عليكم الأزلم الجذعا

هو الجلاء الذى يجتث أصلكم ∴ فمن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعا

إلى أن يقول فى ختام قصيدته :

لقد بذلت لكم نصحى بلا دخل ∴ فاستيقظوا، إن خير العلم ما نفعا

هذا كتابى لكم والنذير لكم ∴ لمن رأى فيه منكم ومن سمعا

---

(١) الارتياط والنجعة : طلب الكلأ . التخليل: التخصيص. السراة: جمع سرى، وهو الشريف. الوعث: الأرض المسترخية الرطبة. الطبع: الوسخ. الدبا: الجراد. السرع: السريع. القلعا: السحاب العظيم. الهدة: الصوت الشديد. الشماريخ: رءوس الجبال، ثهلان: سم جبل، الخرز: كسر العين بصرها والبيضة هنا: كناية عن عقر الدار . نميرا أى عيورين. الأزلم الجذع: الدهر ويقصد به هنا كسرى. الدخل : الغش .

وهكذا كان الشعر سلاحا ماضيا، استخدمه الشعراء فى رفع أقوامهم وإعلاء شأنهم ، وكذا فى الثورة على أعدائهم ، وإنزال قدرهم. والنيل منهم ، وشواظا عليهم فى كثير من الأحايين ٠

٦. الغزل :

هو غرض شعرى شائع بين الشعراء الجاهليين، تخرج معانيه من وجدان الشاعر المحب ليعبر بها عن حبه وهيامه وعشقه وغرامه بمحبوبته التى يصف فى شعره عيونها وخدودها وعذارها وقدها وردفها وخصرها، كما يصف منها بياض الوجه وسواد الشعر . ثم يصف ما كان منها من قرب وإقبال أو صد وهجر ويستتبع ذلك الحديث عن الواشى النمام والرقيب المحتال ٠

ثم مناجاة الطيف وذكر ديار الأحبة، واستنشاق رائحتها التى هبت من معطرة الوادى مع الرياح، ثم يحدث البرق ، ويطلب من النسيم أن يحمل السلام للأحبة ، ويخاطب الرعد، ويطلب من الأمطار سقيا لديار الأحبة .. إلى غير ذلك من المعانى الغزلية التى طرقها الشعراء الجاهليون، واستعذبوها وافتتحوا بها قصائدهم فتحا لشهيتهم وشهيات السامعين جميعا وتهيئة لنفوسهم وجذبا لانتباههم لما يلقى

إليهم من موضوعات القصيدة المتعددة وبخاصة الغـرض الرئيسـى فيها٠

وقد كان الغالب على حديث الشاعر عن المرأة أنه لـيس فـى غرض شعرى مستقل، وإنما يأتى الغزل الصريح أو الحـديث عـن الأطلال وبكاء الديار البوالى والدمن الخوالى ضمن مجموعة أغراض من ضمنها الغرض الرئيسى فى القصيدة الواحدة، تربطهـا العوامـل النفسية والفنية التى تؤلف بين معانيها كمـا تؤلـف بـين أغراضـها المتعددة، والمنهج المتبع فى طريقة العرض لكل شاعر٠

على أن بعض النقاد كانوا يطلقون على هذه الافتتاحية: الغـزل، والتشبيب، والنسيب، وكل يطلق التسمية التى يراها مناسبة لما يريـده منها، ولكن البعض منهم حاول أن يفرق بينها فقال:

" الغزل: هو الاشتهار بمودة النساء، وتتبعهن ، والحديث إليهن، والعبث بذلك فى الكلام، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة٠

والتشبيب: ذكر المرأة فى مطالع الكلام، وما يتصل بذلك مـن ذكر الرسوم، ومساءلة الأطلال، توخيا لتعليق القلوب، وتقييد الأسماع قبل المفاجأة بغرضه من الكلام، وقد يذكر فيه ما يحاول المتيمون من العشاق ستره من المحبوبة كالوعد واللقاء٠

والنسيب: هو أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى وما يصفه من التجنى، وما يعرض له من ذكر محاسن النساء"(١).

ولما كانت الأطلال تمثل جزءا كبيرا من افتتاحياتهم فى قصائدهم الشعرية فقد تحدث الدكتور / على الجندى عن هذه الظاهرة معللا لها فيقول: " وقد سار الشعراء الجاهليون جميعا على تقليد التزموه فى قصائدهم، هو افتتاحها دائما بالحديث عن الأطلال، والوقوف عندها والبكاء لديها، بسبب ما تثيره من الذكريات التى تثار لدى الشعراء عندما يرون ما أصبحت عليه ديار صبيانهم بعد أن هجرتها، وقد كان لهم فيها معهن أوقات حلوة، لا ينسيها مر الزمن، ولا تغيب ذكرياتها عن البال، وإن تغيرت الديار إلى رسوم وأطلال. ولئن أردنا تعليلا لهذه الظاهرة، فربما كان ذلك لأن رؤية الخراب بعد العمار ، والخمود بعد الحركة ، والوحشة بعد البهجة ، مما يحرك العواطف والوجدان، ويثير الأحزان والأشجان ، وتبعث على تذكر ما كان لها ، وما حدث فيها، فتهيج الذكريات، وتتمثل أمام القلب صور الماضى الحلوة، فتطرب لها النفس وتهش، وتستعيد مالها من لذة

---

(١) فى تاريخ الأدب العربى صـ ٤١٤ .

وبهجة، فإذا الهدوء النفسى يعود، والعين تكف عن الدموع ، وتتــدفق الشاعرية، وينطلق اللسان، حاكيا ما يرى القلب من صور الجمال"[١].

ويندر أن نجد قصيدة غزلية كاملة مستقلة لشاعر جاهلى، ــ كما قلت ــ وإنما الشائع أن تأتى فى افتتاحيات القصائد سواء أكانت تعبر عن حب حقيقى أم كانت تقليدا والتزاما فنيا متعارفا فيما بينهم، وسواء أطالت هذه الافتتاحية أم قصرت. المهم أنها وجدت التزاما وتقليدا.

ومن ذلك قصيدة طرفة بن العبد التى اسـتهلها بغـزل جميـل يتحدث فيه عن جمال المحبوبة، وعن حبه للقرب منهـا، وإحساســه باللوعة والأسى عند البعد عنها فيقول[٢] :

أصحوت اليوم أم شاقتك هــر ∴ ومــن الحــب جنــون مســتعر

لا يكــن حبــك داء قــاتلا ∴ ليس هذا منــك مــاوى بحــر

كيف أرجو حبها مــن بعــدما ∴ علق القلــب بنصــب مســتمر

أرق العــين خيــال لــم يقــر ∴ طاف والركب بصــحراء يســر

(١) المرجع نفسه ٤١٤ .

(٢) ديوان طرفة قصيدة رقم ٥ .

جـــازت البيـــد إلـــى أرحلنـــا ∴ آخـــر الليـــل بيعفـــور خـــدر

ثم زارتنـــى وصـــحبى هجـــع ∴ فى خلـــيط بـــين بـــرد ونمـــر

تخلس الطرف بعينـــى برغــز ∴ وبخـــــدى رشـــــأ آدم غـــــر

وعلـــى المتنـــين منهـــا وارد ∴ حسن النبت أثيـــث مســـبكر[١]

ويستمر فى الوصف الحسى لمحبوبته ولمواطن الجمـــال فيهـــا، كما يصف هيامه بها وعذابه فى فراقها٠

ولطرفة أيضا شعر كثير فى المرأة، يتحدث فيه عن هيامه بهـــا وشوقه لها، وأرقه من أجلها، وسهره للتفكير فيها ، ومن ذلك قوله:

بلغـــا خولـــــة أنـــــى أرق ∴ ما أنام الليل مـــن غيـــر ســـقم

---

(١) صحوت: تركت الصبا والباطل. شاقتك: هاجتك. هر: اسم امرأة. مستعر: شديد الملتهب. ماوى: مرخم: ماويه وهو اسم امرأة. بحر: أى ليس هذا من فعل الحر الكريم . النصب: التعب والعناء. مستتر: مكتتم . لم يقر: لم يهدأ. يسر: اسم موضع قريب من اليمامة . جازت: سارت . يعفور: ظبى تعلـــوه حمرة . خدر: فاتر العظام. هجع: نائمون. برد: ثوب مخطط . نمر: جمـــع نمرة، وهى حبرة أو شملة بها خطوط بيض وسود. تخلس الطرف:تسرق= =النظر. برغز: ولد البقرة، شبه عينها بعينه فى السعة. الرشـــأ : الغـــزال. آدم: أبيض البطن، أسمر الظهر. غر: غافل: لحداثة سنه. المتنان: ما اكتنف الصلب من اللحم. وارد: شعر منسدل ساقط على المتنين . أثيث: ملتف كثير الأصول، مسبكر: ممتد طويل ٠

كلمـــا نـــام خلـــى بالـــه .·. بـــت للهـــم نجيـــا لـــم أنـــم

منع التغمـــيض منـــى ذكرهـــا .·. فهى همى وحـــديثى وســـدم[١]

ويصف الأعشى ميمون بن قيس حبيبته وصفا حسيا ، متحـــدثا عن جمالها ، وجمال أعضاء جسدها فيقول:

ودع هريرة إن الركـــب مرتحـــل .·. وهل تطيق وداعا أيهـــا الرحـــل؟

غراء،فرعاء،مصـــقول عوارضـــها .·. تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحـــل[٢]

كأن مشيتها من بيت جارتهـــا .·. مر السحابة لا ريث ولا عجـــل

تسمع للحلى وسواسا إذا انصـــرفت .·. كما استعان بريح عشـــرق زجـــل

ليست كمن يكره الجيران طلعتهـــا .·. ولا تراها لسر الجـــار تختتـــل

يكاد يصرعها لـــولا تشـــددها .·. إذا تقوم إلى جاراتهـــا الكســـل

إذا تلاعب قرنا ســـاعة فتـــرت .·. وارتج منها ذنوب المتن والكفل

---

(١) سدم: سقم ٠

(٢) الركب: الإبل . الغراء: البيضاء الواسعة الجبين . فرعاء: طويلة، مصقول عوارضها: أى نقية العوارض، والعوارض: الرباعيات والأنياب . الوجى: الذى يشتكى من ألم حافره المجروح، ومع هذا فهو يسر فى الوحل، وهـــذا أشد عليه ٠

صفر الوشاح وملء الدرع بهكنة ∴ إذا تأتى يكاد الخصـر ينخـزل

إذا تقوم يضوع المسك أصورة ∴ والزنبق الورد من أدرانها شمل

ما روضة من رياض الحزن معشبة ∴ خضراء جاد عليها مسـبل هطـل

يضاحك الشمس منها كوكب شـرق ∴ مـؤزر بعمـيم النبـت مكتهـل

يوما بأطيب منها نشر رائحـة ∴ ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل[١]

وإذا كان الوصف الحسى لجمال المرأة ومفاتن جسمها هو الأمر الشائع فى الغزل الجاهلى، فإن هناك من الشعراء الجاهليين من أعجب

---

(١) الريث: البطء . العجل: العجلة والسرعة . الحلى: واحد يؤدى عن جماعة. الوسواس: جرس الحلى. إذا انصرفت: أى إذا انقلبت إلـى فراشـها. كما استعان بريح عشرق زجل: أى كعشرق ضربته الريح والعشرق: شجيرة لها أكمام، فيها حب صغار، إذا جفت فمرت بها الريح، تحرك الحـب فأحـدث صوتا، فشبه صوت الحلى بهذا الصوت . تختتل: تنشر السر. ذنوب المتن: العجيزة . أى ضخمة الردف . صفر الوشاح: أى أنها خميصة البطن، دقيقة الخصر. والبهكنة : الكبيرة الخلق. ينخزل: يتثنى: وقيل ينقطع. يضـوع : ينتشر وتذهب ريحه. أصورة: تارات . والزنبق: ما كـان يضـرب إلـى الحمرة. والزنبق الورد بتقديم الصفة على الموصوف ، أى الورد الأحمـر. والأردان: جمع ردن وهى أطراف الأكمام، وشمل: أى طيبها شامل، شرق: أى ريان ممتلئ ماء . ومؤزر : مفعل من الإزار. والعمـيم التـام السـن. ومكتهل: قد انتهى فى التمام. واكتهل الرجل: إذا انتهـى شـبابه . النشـر: الرائحة الطيبة . والأصل: جمع أصيل، وهو الوقت من العصر إلى العشاء. وإنما خص هذا الوقت. لأن النبت يكون فيه أحسن ما يكون ، لتباعد الشمس والفئ عنه ٠

بجمال المرأة الخلقى وصفاتها المعنوية، وكـريم خصـالها وحسـن طبعها، وجمالها فى كل صفاتها، لدرجة تصل من وجهة نظـره إلـى الكمال فى كل شئ، وإن كان فى هذا شئ من المبالغة، لكن هذا هـو رأيه فيها. ومن ذلك ما قاله الشنفرى يصف جمال جارته التـى هـى محبوبته(١):

فيا جارتى وأنت غيـر مليمـة ∴ إذا ذكـرت، ولا بـذات تقلـت

لقد أعجبتنى، لا سقوطا قناعها ∴ إذا ما مشـت، ولا بـذات تلفـت

تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها ∴ لجارتهـا إذا الهديـة قلـت

تحل بمنجاة من اللـوم بيتهـا ∴ إذا ما بيـوت بالمذمـة حلـت

كأن لها فى الأرض نسيا تقصه ∴ على أمهـا وإن تكلمـك تبلـت

أميمة لا يخزى نثاهـا حليلهـا ∴ إذا ذكر النسوان عفت وجلـت

إذا هو أمسى آب قـرة عينـه ∴ مآب السعيد لم يسل أين ظلـت

---

(١) المفضليات صـ١٠٩ .

فدقت وجلت واسبكرت وأكملــت .:. فلو من إنسان من الحسن جنت[١]

وإذا كان الشعراء الجاهليون قد أكثروا من الغزل وأطالوا فيــه فى افتتاحيات قصائدهم الشعرية لدرجة أنهم جعلوا هــذه الافتتاحيــات عادة لهم أو ضرورة لتهيئة أنفسهم وجذب انتباه السامعين، فإنهم أيضا أكثروا من استهلالهم القصائد بالحديث عن الأطلال والدمن البــوالى. والبكاء عند آثار المحبوبة، وذكر آيامها واللقاء بها فى تلك الأمــاكن التى أصبحت أثرا بعد عين، ويتحدث عن مزارها البعيد ، ويستبعد أن يحدث اللقاء بها مرة أخرى بعد رحيلها مع أهلها إلى الأماكن البعيــدة وأنى له ذلك . يقول عنترة فى افتتاحية معلقته[٢]:

هل غادر الشعراء من متــردم؟ .:. أم هل عرفت الدار بعــد تــوهم

يا دار عبلــة بــالجواء تكلمــى .:. وعمى صباحا دار عبلة واســلمى

---

(١) مليمة: أى لا تأتى بما تلام عليه. تقلت: تبغض . أى لا تأتى بشئ تــبغض من أجله. ولا بذات تلفت: لا تكثر التلفت. الغبوق: مــا يشــرب بالعشــى. النسى: الشئ المفقود المنسى. تقصه: تتبعه وتبحث عنه. أمها: بفتح الهمزة، قصدها. تبلت : تقطع كلامها وتنظر فى الأرض ولا ترفع رأسها وهى تتكلم حياء. الثنا: ما تتحدث به عن الرجل من حسن أو سيئ. حليلها: زوجهــا . آب: رجع. اسبكرت: طالت وامتدت. وأكملت: أى كمــل جســمها حســنا وجمالا٠

(٢) شرح المعلقات للزوزنى صـــ١٦٢ وما بعدها ٠

فوقفت فيهـا نـاقتى وكأنهـا ⁖ فدن لأقضـى حاجـة المتلـوم

وتحل عبلة بـالجواء وأهلنـا ⁖ بـالحزن فالصـمان فـالمتثلم

حييت من طلل تقـادم عهـده ⁖ أقوى وأقفـر بعـد أم الهيـثم

حلت بأرض الزائرين فأصبحت ⁖ عسرا على طلابك يابنة مخـرم

كيف المزار وقد تربـع أهلهـا ⁖ بعنيـزتين وأهلنـا بـالغليم؟[1]

إلى آخر ما تحدث به عن حبيبته وبعد الموضع الذى تقـيم بـه عنه وتأثره بذلك ٠

---

(١) المتردم : الموضع الذى يسترفع ويستصلح. والتردم أيضا مثل الترنم وهو ترجيع الصوت مع الحزن . الجواء: اسم موضع. الفدن: القصر. المتلـوم: المتمكث. الحزن والصمان والمتثلم: أسماء مواضـع. الإقـواء والإقفـار: الخلاء. أم الهيثم: كنية عبلة . الزائرون: الأعداء، جعل توعدهم وتهـددهم يشبه زئير الأسد. العنيزتان، والغيلم أسماء مواضع ٠

النثر الفنى فى العصر الجاهلى

طبعى أن يكون للجاهليين نثر فنى كما أن لهم شعرا موزونا مقفى وإن كان الشعر الجاهلى قد نال درجة أسمى وأكثر تفوقا ورواجا وذلك لأن الشعر له موسيقى شجية تتلقفها الأذن العربية وتألفها وتطرب لها ، وتتأثر بها القلوب، وتعشق معانيها المشاعر والأحاسيس ومن ثم فكان الشعر له رواج أكثر من النثر.

والنثر الفنى يشهد بفصاحة العرب وإظهار بلاغتهم وقوة بيانهم، فوصفوا بأنهم أمة الفصاحة والبلاغة ، وتحداهم القرآن الكريم ببيانه وقوة أدائه وحسن لفظه وجمال عبارته وعظمة بلاغته لدرجة أن شهد له أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان حينما قرئ عليهم وطربوا له وتأثروا ببلاغته وأعجبوا بقوة عبارته وجمال معانيه.

وإذا كان النثر الفنى فى العصر الجاهلى أسبق من الشعر كما قلنا قبل ذلك، فإنه لابد أن يكون كثيرا ، ويفوق فى الكم ما كان لهم من الشعر ، إلا أن الشعر له قوة تمكين فى النفس وفى الذاكرة من النثر بما له من موسيقى تطرب إليها الأذن وتهفو إليها النفوس ويعشقها الوجدان، ومن ثم فإنه أسهل حفظا وأكثر علوقا بالذاكرة من النثر، ورواته أكثر من رواة النثر لخصائصه الموسيقية التى توافرت له دون

النثر، ولذلك فإن ما وصلنا من الشعر الجاهلى أكثر مما وصلنا من النثر، وإن كانت فنون النثر كثيرة وهى: الخطابة والوصايا والحكم والأمثال، وسجع الكهان، وبعض الكتابات الرسمية القليلة. يقول د/على الجندى: "ونثر الجاهليين لا شك أنه كان كثيرا ، يفوق فى الكم ما كان لهم من شعر ، ولكن سنة الكون دائما تجعل الشعر أوفر حظا من العناية والاهتمام، فيحفظ ويتناقل، ويروى على مر الأجيال أكثر من النثر، ولهذا نتوقع أن يكون ما حفظ لنا من نثر الجاهليين أقل بكثير مما حفظ لنا من شعرهم .

وإذا كان فى الشعر قافية موحدة ، ومقاطع موسيقية منتظمة تجعله أسهل علوقا بالذهن وأكثر دواما بالذاكرة، فإن ذلك أيضا جعله يثبت فى الحفظ ، ويتناقل من جيل إلى جيل بنفس الألفاظ والعبارات اللهم إلا فى القليل النادر . فيغلب على الظن حينئذ أن عدم وجود هذه الخاصية فى النثر قد أثرت فى حفظه وفى روايته، فكان أشق فى الحفظ، وأقل دواما فى الذاكرة، ثم كان عرضة للتغيير أو التحوير، مع المحافظة على المعنى المقصود بطبيعة الحال. ومن هنا لا شك أن النثر الجاهلي كان من الصعب على الرواة أن يحفظوه كله، وإذا حفظوا بعضه، فالغالب أنه قد ضاعت منهم بعض ألفاظه، ولكن مهما

يكن فمن المؤكد أنه بقيت نصوص منه كان لها حظ الرعاية والاهتمام، فظلت سليمة كما صنعها أصحابها، حتى تسلمتها بطون الكتب وأمهات المراجع، فوصلتنا صحيحة سليمة"(١).

ومما يدل على صحة قول الجندى من أن النثر الفنـــى الجـــاهلى كان كثيرا جدا إلا أنه قد ضاع أكثره، ما نسبه الجاحظ إلـــى الريـــاش الذى يقول: "ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت بـــه من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره"(٢).

هذا، وقد رجحنا قبل ذلك القول بأولية النثـــر الفنـــى الجـــاهلى وأسبقيته على الشعر الجاهلى، وذكرنا آراء كثيرة فى هذا الشأن ومنها قول ابن رشيق : "كان الكلام كله منثورا، فاحتاجت العرب إلى الغنـــاء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصـــالحة، وفرســـانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم .. فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهـــم وزنه، سموه شعرا، لأنهم شعروا به أى فطنوا"(٣).

---

(١) فى تاريخ الأدب الجاهلى صـــ٢٥٨ ، دار المعارف.
(٢) البيان والتبيين للجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون ١/ ٢٨٧ .
(٣) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق، تحقيق الشيخ محمد محيىالدين عبدالحميد ١/ ٢٠ .

وأيضا قول النهشلى: "أصل الكلام منثور .. ولما رأت العــرب المنثور يند عليهم، وينفلت من أيديهم، ولم يكن لهــم كتــاب يتضــمن أفعالهم تدبروا الأوزان والأعاريض فأخرجوا الكلام، أحســن مخــرج بأساليب الغناء، فجاءهم مستويا ورأوه باقيا على مر الأيام فألفوا ذلــك وسموه شعرا"[١].

إلى غير ذلك من الأقوال والآراء والدلائل الكثيرة على أن النثــر الفنى الجاهلى أسبق من الشعر الجاهلى، وقد ذكرنا هذا كله فى كتابنــا هذا سابقا.

دواعى النثر الفنى فى العصر الجاهلى والغرض منه:

النثر بمعناه العام، فنيا كان أو غير فنى هو الكلام المرسل غيــر المقيد بوزن وقافية، وهو الإبانة عما فى النفس من أفكار ومعان فــى جميع مناحى الحياة، كتابة أو مشافهة.

وقد قسم صاحبا الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه كلام العرب قسمين: نثرا ونظما. وعرفا النظم بأنه الكلام الموزون المقفى، والنثــر هو : ما ليس مرتبطا بوزن ولا قافية.

---

(١) الممتع فى علم الشعر للنهشلى صــ١١، ٢٤ تحقيــق: المنجــى الكعبــى، تونس.

ثم قسما النثر ثلاثة أقسام: المحادثة ــ الخطابة ــ الكتابة ·

ثم تحدثا عن هذه الأقسام بقولهما:

"الأصل فى الكلام أن يكون منثورا: لإبانته مقاصد النفس بوجــه أوضح، وكلفة أقل . وهو إما حديث يدور بين بعض الناس وبعض فى إصلاح شئون المعيشة، واجتلاب ضروب المصالح والمنافع وذلك مــا يسمى (المحادثة) أو (لغة التخاطب)·

وإما خطاب من فصيح نابه الشأن يلقيه على جماعة فى أمر ذى بال وهذا ما يسمى (الخطابة)·

وإما كلام نفسى مدلول عليه بحروف ونقوش لإرادة عدم الــتلفظ به، أو لحفظه للخلف، أو لبعد الشقة بين المتخاطبين ، وذلك ما يســمى (بالكتابة)·

فأقسام النثر ثلاثة: محادثة، وخطابة، وكتابة، وكلها: إما أن تكون كلاما خاليا من التزام التقفية فى أواخر عباراته، وذلك ما يسمى (النثر المرسل)، وإما أن تكون قطعا ملتزما فى آخر كل فقرتين منها أو أكثر

قافية واحدة، وهذا ما يسمى (السجع) ، وهو نوع من الحلية اللفظية، إذا جاء عفوا ولم يتعمد التزامه، ولحسن وقعه فى الأسماع، وحوكه فى الطباع، كان أكثر ما يستعمل فى الخطابة، والأمثال والحكم والمفاخرات والمنافرات وتخرصات الكهان، والكتابة التى من هذا الوجه"[١].

فالمؤلفان هنا ذكرا الأقسام النثرية فى العصر الجاهلى، وخصائص كل قسم أو نوع نثرى، ولم يجعلا قسما للحكم وقسما للأمثال لاشتمال الخطابة والكتابة عليهما. والخطابة أكثر لأن الكتابة لم تكن شائعة فى هذه الأمة الأمية .

وهنا نقف بالدراسة على أقسام النثر الفنى فى العصر الجاهلى:

أولا : الكتابة والتدوين فى العصر الجاهلى

بالرغم من غلبة الأمية على عرب الجزيرة العربية قبل الإسلام واشتهارهم بها، وقد شهد القرآن الكريم بذلك فقال الله تعالى: ﴿هُوَ

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ٢١ ط٦ دار المعارف بمصر ١٩٢٧م للشيخين: أحمد الإسكندرى، ومصطفى عنانى.

الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

إلا أنهم منذ جاهليتهم ومع غلبة الأمية عليهم قد اشتهروا أيضا بالفصاحة والبلاغة والبيان، وكانوا بسليقتهم وفطرتهم العربية شعراء وخطباء تنثال على ألسنتهم المعانى البليغة والكلمات الفصيحة والحكم والمواعظ والأمثال العربية التى تدل على تجربة فى الحياة وخبرة ودربة . فضلا عن العلوم والمعارف المختلفة التى اشتهروا بها والتى تتصل بالأنساب والطب والأنواء والقيافة والفراسة ... وغيرها من المعارف المختلفة التى لا تقوم على البحث والتحليل والاستقصاء بقدر ما تقوم على التجربة والممارسة والخبرة، وهى على كل حال علوم ومعارف بسيطة لا تخضع لقوانين أو مقاييس منظمة، وإنما تخضع للتجربة القاصرة، كما يقول ابن خلدون فى مقدمته: "وللبادية من أهل

---

(١) سورة الجمعة آية ٢ .

العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص : ومتوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه. وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى"[١].

وهذا الكلام لا يكون خاصا بالطب وحده ولكنه ينسحب على غيره من معارف العرب وعلومهم ، إلا أنه يدل على نوع ولو بسيط من الحضارة والرقى على كل حال.

ولكن اشتهارهم بالأمية لا يلغى معرفة بعضهم القراءة والكتابة، وقد ذكر البلاذرى : "أن الإسلام قد جاء وفى مكة سبعة عشر كاتبا، وفى المدينة أحد عشر كاتبا"[٢].

وإن كان المظنون أن عددهم فى هاتين المدينتين كان أكبر من ذلك[٣] . إذ يذكر ناصر الدين الأسد عددا غير قليل منهم فى الجاهلية وأكثرهم من الشعراء والأدباء الذين كتبوا لأنفسهم ولغيرهم، وربما دونوا بعض شعرهم. منهم: عدى بن زيد العبادى الذى كان كاتبا بالعربية والفارسية على السواء، ومنهم لقيط بن يعمر الإيادى والمرقش

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ .
(٢) فتوح البلدان ص٤٧١ طبعة أوربا .
(٣) راجع المصادر الأدبية واللغوية فى التراث العربى ص١٣ د/ عزالدين إسماعيل ط٣ دار المعارف المصرية، ونشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ص:٢٣ د/ حسين نصار .

الأكبر وأخوه حرملة، وسويد بن صامت الأوسى، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك الأنصارى، والربيع بن زيد العبسى، والزبرقـان بـن بدر، والنابغة الذبيانى، وكعب بن زهير، ولبيد بن ربيعـة العـامرى، وأمية بن أبى الصلت، ومسروق بن عبدالرحمن، وشريح بن الحـارث الكندى.. وغيرهم كثيرون[١]٠

وبعد استقراء من الدكتور الأسد للشعر الجاهلى ودراسة عميقـة متأنية أفردها للكتابة وأدواتها وآلاتها وما يكتب عليـه وموضـوعات الكتابة توصل إلى عدة نتائج ٠

" **الأولى:** قدم الكتابة فى بلاد العرب ، فقد استبان لنـا بالـدليل المادى الملموس المتمثل فى النقوش الحجريـة المكتشـفة أن عـرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القـرن الرابـع الميلادى، وكتبوا بهذا الخط العربى ثلاثة قرون قبل الإسلام على أقـل تقدير"٠

و**الثانية:** معرفة عرب الجاهلية بالكتابة معرفة فيها شـئ مـن الانتشار يبعد عنهم ما وصموا به من الجهل بها٠

---

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلى : ص١١٤ د/ ناصر الدين الأسد ٠

والثالثة: اتساع ميدان الكتابة وتشعب موضوعاتها .. [١]٠

ومعنى هذا أن الكتابة كانت معروفة لبعض العرب فى الجاهلية، إلا أن المعرفة كانت محدودة فى حواضر العرب وأقل من ذلك فى بواديهم التى غالبا ما تكون راحلة، فلم يتيسر لها تدوين آثارها على المتعسر من ألواح الكتابة وهى: الحجارة والعظم والخشب والجلد والعسيب والقماش، بأقلام خشبية أو أدوات النحت والنقش٠

ولذلك ما دون من آثارهم الأدبية كان أحادا لا يبرر تعميم الأمية عليهم، وعدم تدوينهم لتراثهم فى سجلات مكتوبة لقصور أدوات الكتابة وألواحها فى عهدهم ، ولعدم نضجهم فى هذه الناحية. ولذلك "قصروا تدوينهم على ما اقتضته الضرورات الاجتماعية والاقتصادية، من الصكوك والعهود والأحلاف والمواثيق، والرسائل المقتضبة، والكتب الدينية ، والقليل من الشعر ، أما كثرته الغالبة فكان مجال حفظها الذاكرة والرواية"[٢]٠

ولذا فإن ما كتب كان يحمل فى طياته نوعين من الكتابة فى عهدهم: الكتابة الساذجة اليسيرة التى استخدموها فى حياتهم وتجاربهم٠

---

(١) نفسه : ص١٠٧ ٠
(٢) دراسة فى مصادر الأدب ، الطاهر أحمد مكى ص١٣ ط ١٩٨٦ دار المعارف ٠

والكتابة الراقية التى دونوا بها شعرهم وبعض آثارهم. وهذا ما ذهب إليه ناصر الدين الأسد حين قال: "إن عرب الجاهلية قد عرفوا من الكتابة صورتها الساذجة اليسيرة حين كتبوا رسائلهم، وصكوك حسابهم وعهودهم ومواثيقهم، ونقشوا خواتيمهم وشواهد قبورهم. وهذه كلها لا تتجاوز فى حجمها صحيفة واحدة قد تنقص قليلا أو تزيد قليلا.

وقد عرفوا من الكتابة صورة أخرى أرقى من هذه الصورة الساذجة وأكبر حجما، وأشد تعقيدا، وهى التدوين. والفرق بين الصورتين واضح إذ إن الأولى لا تعنى أكثر من مجرد التقييد العابر لما يعرض من شئون الحياة، ولكن التدوين إنما يعنى جمع الصحف وضم بعضها إلى بعض حتى يكون لنا منها ديوان ، وهو مجتمع الصحف. ولابد للتدوين من أن يكون عملا مقصودا متعمدا يرمى إلى هذه الغاية، لا عملا عابرا عارضا[1].

ومما يقوى هذا الرأى ما ورد فى الشعر الجاهلى من ذكر الكتاب والكاتب كثيرا ، ومن ذلك قول معقل بن خويلد الهذلى — وهو شاعر جاهلى أدرك الإسلام .

فإنى كما قال مملى الكتا ∴ ب فى الرق إذ خطه الكاتب

(١) مصادر الشعر الجاهلى ص١٠٧ ، ١٠٨ .

"يرى الشاهد الحاضر المطمئن .·. من الأمر ما لا يـــرى الغائـــب"

وقول بشر بن أبى خازم ــ وهو شاعر جاهلى لم يدرك الإسلام:

وجدنا فـــى كتـــاب بـــن تمـــيم .·. "أحق الخيل بـــالركض المعـــار"

ويعلق الأسد على بيت بشر فيقول: "فبشر يذكر فى وضوح أنـــه وجد فى كتاب بنى تميم أن أحق الخيل بالركض المعار" .

ثم يقول : " فما هو كتاب بنى تميم إذن ؟ الذى نراه أن كل قبيلة من القبائل كانت تجمع شعر شـــعرائها، وحكـــم حكمائهـــا، وأقـــوال خطبائها، وأخبارها ومفاخرها ومآثرها، وأنسابها فـــى كتـــاب . وقـــد احتفظ العرب بهذه التسمية لكتب القبائـــل بعـــد ذلـــك فـــى العصـــور الإسلامية لتدل على هذا نفسه الذى قدمنا"(١).

ولكنه مع هذا التتبع لمعارف العرب وتـــدوينهم لمـــآثرهم. فـــإن بعضا من الدارسين والباحثين يبدى فى حديثه ملامح النفـــى لتـــدوين العرب شيئا من معارفهم وآثارهم متكئا فى ذلك علـــى غلبـــة الأميـــة والبداوة وغموض الحياة وعدم استقرارها عندهم فلم يتركـــوا ســـوى بعض النقوش القليلة فى بعض المناطق من أطراف الجزيرة العربيـــة، أما فى باطنها فلم تسعفهم الصحارى التى عاشوا عليها لشئ من ذلـــك.

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٣، ١٦٤ .

وفى هذا يقول عمر الدقاق: " لم يكن للعرب فى فترة ما قبل الإسلام ثقافة مدونة وعلوم مسجلة، فقد غلبت عليهم البداوة ، واستغرق فى حياتهم التنقل، ففشت فيهم الأمية، ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبئ عما كان لهم من دور حضارى، حتى إن هذه النقوش لم تكن متوافرة إلا فى بعض المناطق العربية كجنوبى جزيرة العرب وشماليها حيث توجد الأحجار والصخور، على حين كان باطن الجزيرة وأكثر ربوعها سهوبا وصحارى لم تسعف سكانها العرب فى ترك مياسمهم على الأرض التى عاشوا فيها أحقابا مديدة[١]٠

ويرى شوقى ضيف أن معرفة العرب للقراءة والكتابة فى الجاهلية كانت محدودة: " فلم يكتبوا بها كتبا ولا قصصا ولا رسائل أدبية وإنما كتبوا بها بعض أغراض تجارية، وأخرى سياسية، ولذلك لم يكن غريباً أن تشيع فى مكة لأنها كانت مركزا تجاريا عظيما[٢]٠

كما يرى أن الكتابة المعروفة فى العصر الجاهلى لم تكن تؤدى بمقاييس الكتابة فى العصر الحديث، وإنما كانت : "الكتابة ساذجة أدت أغراضا خاصا فى عصرها وانتهت بانتهاء الغرض"[٣]٠

---

(١) مصادر التراث العربى . عمر الدقاق ص٧ مكتبة دار الشروق بيروت٠
(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ١٩ شوقى ضيف ٠
(٣) نفس المرجع والصفحة ٠

وهناك من يقف موقفا وسطا فى هذه القضية بين من يثبت نضج العرب الفنى وتدوينهم لبعض شعرهم ومآثرهم، وبين من يرجح نفى ذلك وقصور الكتابة على أغراض التجارة والعهود والمواثيق وغيرها

ومن هؤلاء المستشرق الفرنسى (بلاشير) الذى لا يشك فى تدوين بعض العرب لبعض قصائدهم الشعرية فى بعض المراكز الحضارية آنذاك . ولكنه يقلل حجم التدوين بالنسبة للرواية الشفوية التى كانت أكبر حجما وأوسع انتشارا وبعدا فيقول: " لا شك فى أن بعض الرواة فى بعض المراكز الحضرية قد دونوا كتابة بعض القصائد الهامة، ولكن ذلك يعوزه الدليل. حتى لو سلمنا بصحة وقوع ذلك فإن التدوين لم يشمل إلا جزءا من آثار الشعراء الحضريين ، أما البقية فقد سارت فى الصحراء عن طريق الرواية الشفوية .

وخلاصة القول: فإن الرواية الشفوية وحدها تؤلف الطريقة الأساسية لنشر الآثار الشعرية، منذ اللحظة التى قذف فيها الشاعر ورواته تلك الآثار فى خضم الجماهير"[1].

وبالفعل فإن الطريقة التى سادت فى انتشار الشعر وغيره من الآثار الأدبية بل وغيرها من معارف العرب كانت الرواية الشفوية

(١) تاريخ الأدب العربى . بلاشير ترجمة إبراهيم الكيلانى ١/ ١٢٠ ، طبعة دمشق ١٩٧٣م .

التى كانت لهم بمثابة مدرسة يتعلمون فيها نظم الشعر وصياغة الكلام والتمرس على فنونه بحيث يصبح الراوية شاعرا له من الخصـــائص الفنية ما لسابقه ولاحقه[1] . أو قريب من ذلك ، والأمثلة علـــى ذلــك كثيرة من واقع حياة الشعراء الجاهليين وشعرهم . إذ كان زهيــر بــن أبى سلمة راوية أوس بن حجر. وكان كعب بــن زهيــر والحطيئــة راويتى زهير، وكان هدبة بن خشرم العذرى راوية الحطيئة، وجميــل بثينة راوية هدبة ، وكثير عزة راوية جميل ... وهكذا ٠

ويتحدث الطاهر مكى عن دور الراوى فى حفظ شعر الشــاعر والرواية عنه بأنه كان أكثر اهتماما ورواية وحفظا لشعر الشاعر مــن قبيلة الشاعر نفسها، وذلك لأن قبيلة الشاعر تحفظ من شعره ما يعلــى قدرها ويرفع شأنها ويسمو بها بين القبائل وتتناسى منه ما يمس شرفها وينزل من قدرها، بالإضافة إلى أن رجال القبيلة الواحدة ليسوا علــى قدم وساق فى الحفظ والرواية لشاعرهم . وإنما يحفــظ الشــيوخ مــن شعره الحكمة والرثاء والفخر والمديح، ويحفظ الرجال المحاربون منه الحماسة والفخر، ومديحهم وهجاء غيرهم، ويحفظ الشباب منه الغــزل وما يتعلق بعواطفهم . ولكن الراوية يحفظ هذا كله ويرويه عنه ٠

---

(١) راجع: دراسة فى مصـــادر الأدب ـــ الطـــاهر أحمــد مكـــى ١٣ ط٦ دار المعارف ١٩٨٦م٠

يقول فى ذلك الطاهر مكى : " وقد اضطلع الشعراء أنفسهم بدور هام فى الرواية، فكانت لهم المدرسة التى يتعلمون فيها صوغ الشعر ونظمه والتمرس بأساليب الكلام وفنون القول، ومن أراد أن يصبح شاعرا لزم واحدا من فحولهم، يحفظ عنه، ويروى له، ويترسم خطاه ... ويصبح دور الراوى أكثر أهمية بعد وفاة الشاعر، لأنه يتعدى مهمة نشر قصائده إلى جمعها : وإظهار الظروف والمناسبات التى أوحت بها ، وتفسير الإشارات التاريخية التى تتضمنها ، ويصبح بحكم الواقع أمينا على تراث حياة صانعه، ومناط اهتمام القبيلة التى تنسب فيها.

وكان شعراء كل قبيلة وأفرادها يروون شعر أسلافهم، وظهور شاعر كبير فى القبيلة مدعاة للفخر، والاحتفاظ بآثاره شئ تفرضه العصبية، وضياعها أمر يمس شرف القبيلة، وأصدقاء الشاعر يستظهرون بعضا من قصائده. وثمة فارق بين حفظ القبيلة وحفظ الراوية، القبيلة تحفظ من قصيد شاعرها ما يعلى شأنها، ويسجل أمجادها، فإذا تعرض لحرب هزمت فيها تناست ذلك الشعر، أو ما يمسها منه على الأقل، وروايتها له لا تجرى على نسق واحد، وإنما ترتبط بأعمار أفراد القبيلة وأمزجتهم ، يحفظ منه الشباب ما كان غزلا

يمس العواطف، ويردد الرجال ما كان حماسة تلهب المشاعر، ويتمثل الشيوخ ما كان حكمة ترضى العقل. أما الراوية المحترف فيحفظ ذلك كله ، الغزل والحماسة والحكمة ، والرثاء والهجاء والفخر، ما بلغ فيه الشاعر القمة أو قصر عن الإجادة"[١] ٠

وهكذا كانت الرواية أكبر حجما وأكثر انتشارا من كتابة الشعر وتدوينه، ولكنها لا تلغى الكتابة كلية وإن كانت ضئيلة ومتناثرة هنا وهناك . إذ إن كلتيهما كان لها دورها فى التدوين فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث الهجرى ٠

---

(١) دراسة فى مصادر الأدب ص١٤ ٠

أدلة التدوين فى العصر الجاهلى:

ومما يدل على وجود الكتابة واستخدامها فى تدوين الشعر وغيره فى العصر الجاهلى وأن التدوين العام فى نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث الهجريين قد قام عليها، بالإضافة إلى الرواية الشفهية، أمور كثيرة منها:

حديث بن مناذر الشاعر مع خلف الأحمر، حين قال بن مناذر لخلف: " يا أبا محرز: إن يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا، فهذه أشعارهم مخلدة، فقس شعرى إلى شعرهم، واحكم عليها بالحق ، فغضب خلف ... [1] ، ولابد أن تكون هذه الأشعار مكتوبة، إذ أن تخليدها لا يكون بروايتها فقط ، لأن الرواة يضيع بموتهم علم وأدب كثير .

وما روى من أن أبا عبيدة وأبا حاتم السجستانى كانا يتدارسان الشعر الجاهلى فى كتب ــ وكلاهما عاش فى القرن الثانى الهجرى ــ قال أبو حاتم : "جئت أبا عبيدة يوما ومعى شعر عروة بن الورد، فقال لى : ما معك؟ فقلت: شعر عروة. قال : فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير"[2].

---

(١) معجم الأدباء ٣/ ١٧٣ .
(٢) المزهر ١/ ١٦١ .

وقصة ابن الأعرابى "أبى عبدالله محمد بن زياد ١٥٠ ـ ٢٣١هـ" الذى كان كثير القراءة والمدارسة فى الكتب والأخذ منها والنظر فيها . يقال إنه : "لما بعث إليه أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع غلاما من غلمانه يسأله المجيئ إليه، عاد إليه الغلام فقال: قد سألته ذلك فقال لى عندى قوم من الأعراب، فإذا قضيت أربى معهم أتيت. قال الغلام : وما رأيت عنده أحدا، إلا أنى رأيت بين يديه كتبا ينظر فيها، فينظر فى هذا مرة وفى هذا مرة[١].

وهذا الأصمعى "عبدالملك بن قريب ١٢٣ ـ ٢١٦هـ" قد قرأ بعض دواوين الشعر الجاهلى على شيوخه . قال الأصمعى: "قرأت شعر الشنفرى على الشافعى بمكة"[٢] . وقال أيضا: قرأت على أبى عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبيانى[٣]، وقال أبوحاتم السجستانى: قرأ الأصمعى على ابن عمرو بن العلاء شعر الحطيئة[٤] ، وقرئ يوما على الأصمعى فى شعر أبى ذؤيب: بأسفل ذات الدير أفرد جحشها. فقال أعرابى حضر المجلس للقارئ: ضل ضلالك أيها القارئ، إنما هى "ذات الدبر" وهى ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعى بذلك فيما بعد"[٥].

---

(١) معجم الأدباء ٣/ ٢٠٤ .
(٢) المزهر للسيوطى ١/ ١٦٠ .
(٣) الموشح للمرزبانى : ٤٢ .
(٤) المزهر ٢/ ٣٥٥ .
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢٩ .

أضف إلى هذا وغيره من أدلة وجود الكتابة والتدوين فى العصر الجاهلى. تلك المعلقات السبع أو العشر الطوال التى استجادها العـــرب فكلفوا بها وفضلوها على غيرها من شعرهم. وبلغ من اهتمامهم بهـــا وتفضيلهم إياها "أن عمدت جماعة من رجالاتها إلـــى ســـبع قصـــائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجـــة وعلقتها فى أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير .. والمذهبات السبع، وقد يقال لها المعلقات"[1].

ومن ذلك أيضا الصحيفة التى كتبها القرشيون فى مقاطعة بنـــى هاشم وبنى عبدالمطلب حين اجتمعوا عليهم وتعاهدوا على مقـــاطعتهم فلا يبيعونهم ولا يشترون منهم، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون مـــنهم ، ولا يكلمونهم ولا يردون عليهم .. وبلغ من المـــؤمنين الجـــوع مبلغـــا عظيما فلجئوا إلى شعب أبى طالب . وظلت الصحيفة التـــى كتبوهـــا وعلقوها فى جوف الكعبة دهرا من الزمان إلى أن أخبر النبى ﷺ بأن الأرضة أكلت حروف الكلمات فى الصحيفة ولم تدع منها إلا أســـماء الله.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٦/ ١١٩ .

يقول ابن هشام : " وذكر بعض أهل العلم : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأبى طالب : يا عم ! إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا، فهلم إلى صحيفتكم، فإن كانت كما قال ابن أخى، فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذبا دفعت إليكم ابن أخى، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هى كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ فزادهم ذلك شرا، فعند ذلك صنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ما صنعوا"(١).

ومن دلائل وجود الكتابة والتدوين كذلك فى العصر الجاهلى ما ذكره الفرزدق فى شعره من أن دغفلا النسابة ـ وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ـ كان يكتب الأنساب ويدونها فى الصحف، وهذا ما أشار إليه الفرزدق فى قوله :

أوصى عشية حين فارق رهطه ∴ عند الشهادة فى الصحيفة دغفل

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٧ .

أن ابن ضبة كان خيرا والـــدا ∴ وأتم فى حسب الكرام وأفضل[١]

وفى قصيدة الفرزدق هذه ما يفيد بأن بعض الشعر الجاهلى كان مكتوبا وأن الفرزدق قد قرأه عنهم فى هذه . ومن ذلك قوله :

والجعفرى وكان بشـــر قبلـــه ∴ لى من قصائده الكتاب المجمل[٢]

وقوله :

دفعوا إلـــى كتـــابهن وصـــية ∴ فـــورثتهن كـــأنهن الجنـــدل[٣]

ومن ذلك أيضا ما روى من أن لبيد بـــن ربيعـــة العـــامرى — الشاعر الجاهلى الذى أسلم وحسن إسلامه — أرسل إليـــه عمـــر بـــن الخطاب يطلب منه ما قاله فى الإسلام من الشعر فكتب إليه لبيد سورة البقرة فى صحيفة ثم أتى بها فقال أبدلنى الله هذه فى الإســـلام مكـــان الشعر[٤] .

وما روى من أن النابغة الذبيانى وعدى بن زيد العبادى والربيع ابن زياد العبسى وغيرهم كانوا يكتبون القصائد ويرسلونها إلى بـــلاط المناذرة معتذرين عاتبين[٥].

---

(١) النقائص ١/ ١٨٩ .
(٢) النقائض ١/ ١٨٩ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) خزانة الأدب للبغدادى ٢/ ٢١٥ .
(٥) مصادر الشعر الجاهلى ص١٦١ ناصر الدين الأسد .

وما يروى عن حماد الراوية من قوله : " أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج ــ قال : وهى الكراريس ــ ثم دفنها فى قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبى عبيد قيل له: إن تحت القصر كنزا ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار[١] .

ومن ذلك أيضا ما يشير إليه ابن هشام فى السيرة النبوية من أن سويد بن الصامت كان يحمل صحيفة فيها حكمة لقمان ــ وهو من أشهر حكماء العرب فى الجاهلية ــ وأنه ذهب بها إلى الرسول ــ ﷺ ــ فقرأها عليه، فقال له الرسول : إن هذا الكلام حسن، والذى معى أفضل من هذا ــ قرآن أنزله الله تعالى على، هو نور وهدى[٢].

وفى الفهرست لابن النديم أنه وجد كتاب فى خزانة الخليفة العباسى المأمون بخط عبدالمطلب بن هاشم . وأن الكتاب كان فى جلد أدم وقد جاء فيه: "حق عبدالمطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان ابن فلان الحميرى من أهل صنعا، عليه ألف درهم فضة كيلا بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه: شهد الله والملكان"[٣].

(١) الخصائص لابن جنى ١/ ٢٩٣ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٨ .
(٣) الفهرست ص ١٣، ١٤ .

ومن ذلك أيضا ما روى عن المفضل الضبى " المتوفى سنة ١٦٨ أو ١٧٨هـ" ، قال له العباس بن بكار: ما أحسن اختيارك للأشعار، فلو زدتنا من اختيارك . فقال المفضل: والله ما هذا الاختيار لى، ولكن إبراهيم بن عبدالله استتر عندى فى "نحو سنة ١٤٥هـ" فكنت أطوف وأعود إليه بالأخبار، فيأنس ويحدثنى، ثم عرض لى خروج إلى ضيعتى أياما، فقال لى: اجعل كتبك عندى لأستريح إلى النظر فيها، فتركت عنده قمطرين فيهما أشعار وأخبار، فلما عدت وجدته قد علم على هذه الأشعار، وكان أحفظ الناس للشعر، فجمعته وأخرجته، فقال الناس: اختيار المفضل[١].

وهنا دليل قاطع على احتواء خزانة المفضل على شعر مكتوب ومدون عن الجاهليين والإسلاميين إذ إن المختارات المنسوبة إليه تتضمن شعرا للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين[٢].

وكذلك كانت مختارات الأصمعى المسماة بالأصمعيات على غرار المفضليات اختار من شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ما سجله فى كتاب نسب إليه وسمى باسمه ، وهذه المختارات من شعر العرب المكتوب والمروى[٣].

---

(١) المزهر للسيوطى ٢/ ٣١٩ ، وراجع : مقاتل الطالبين للأصفهانى ص٣٧٣
(٢) راجع المفضليات والأصمعيات ٠
(٣) المصدر نفسه ٠

كذلك حين ننظر فى جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى الذى عاش — على أرجح الأقوال — فى النصف الثانى من القرن الثالث وشهد طرفا من القرن الرابع الهجرى[١] وفى تقسيم الشعراء فى هذا الكتاب إلى سبع طبقات: وهم أصحاب المعلقات وأصحاب المجمهرات ، وأصحاب المنتقيات ، وأصحاب المذهبات، وأصحاب المراثى ، وأصحاب المشوبات — أى التى شابها الكفر والإسلام، لأن أصحابها من المخضرمين الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام ، — وأصحاب الملحمات — أى الملتحمة فى نظمها.

كل هذه الأدلة القاطعة تشهد بوجود التدوين فى العصر الجاهلى واتساع حركته فى العصور التالية له، وكلما تطلبت الحاجة إليه .

ومن ذلك أيضا ما كان من أمر أسرى بدر إذ إن رسول الله — ﷺ — جعل فداء بعض أسرى قريش فى بدر ممن تعلموا الكتابة أن يعلموها عشرة من صبيان المدينة[٢]، أى أن كل واحد من الأسرى الذين يقرءون ويكتبون يفدى نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة . وهذا دليل على أن كثيرا من العرب قبل الإسلام وفى مستهل الدعوة المحمدية كانوا يعرفون القراءة والكتابة

---

(١) راجع : المصادر الأدبية واللغوية فى التراث العربى — عزالدين إسماعيل صـ٨٠، ٨١ .

(٢) راجع : فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص:١٧٠ ، حياة محمد للدكتور/ محمد حسين هيكل ص٤٩ ط ١٦ دار المعارف .

وينتفعون بذلك فى حيـــاتهم وتـــدوين معـــارفهم ، وكتابـــة عهـــودهم ومواثيقهم، وأغراضهم التجارية ٠

وحينما نزل الوحى على رسول الله ـــ ﷺ ـــ كتـــب لـــه آيـــات القرآن الكريم جماعة من الرجال الذين أسلموا وكانوا فـــى جـــاهليتهم يعرفون القراءة والكتابة ويسجلون بها حاجاتهم ومتطلبـــات حيـــاتهم. وعرف هؤلاء بكتاب الوحى ، وكان على رأسهم : عثمان بن عفـــان، وعلى بن أبى طالب ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وخالـــد بـــن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان .. وغيـــرهم ممـــن كتـــب الوحى والمعاهدات والوثائق ، وغيرها من حوائج النبى ـــ ﷺ ـــ٠

إلى غير ذلك من الشواهد الدالة على وجود الكتابة فى العصـــر الجاهلى بصورة ليست بالقليلة ، وإن كانت لا تخالف التعمـــيم بـــأنهم كانوا أمة أمية كما حكى القرآن الكريم ذلك . لكنها على كل حال تـــدل على وجود التدوين وبداياته الفعلية بصورة مبسطة منذ العصر الجاهلى وقبل مرحلة التدوين العام الذى كان فى نهاية القـــرن الثـــانى وبدايـــة القرن الثالث الهجرى، والتى شملت جميع العلوم والمعارف آنذاك٠

ثانيا: المخاطبة الشفهية:

لما كانت الأمية قد غلبت على العرب فى الجاهلية، وفى الوقت نفسه كانوا فى حاجة إلى العبارة عما فى أنفسهم، وعن حاجاتهم المعيشية فكان لابد من القول، وليس القول المكتوب لقلة الكتابة والتدوين فى عصرهم وحياتهم، فكان القول مشافهة هو الأعم الأغلب.

ولما كان للعرب مناسباتهم واجتماعاتهم الخاصة والعامة، وبينهم منافسات ومفاخرات ومنافرات وذكر للأمجاد وفعال الأحساب والأنساب، وأيضا كانت الخصومات والعداوات والغارات ومشاكل الحياة لا تنتهى بينهم ، فكان المعبر عن هذا كله والذين يستمع إليهم ويؤخذ بكلامهم وآرائهم هم شيوخ القبائل والأفذاذ من خطبائها.

كما أن تفرق العرب فى شكل قبائل مستقلة وعشائر صغيرة يجعلهم يجتمعون فى صعيد واحد للتشاور فيما بينهم فى مهام الأمور ويستمعون إلى كلمة خطيبهم وحكمة حكيمهم ومشورة شيخهم، وبخاصة عندما تشن الغارات وتجرد السيوف من أغمادها وتعلو أصوات المحاربين وجلبة الخيول، ويعلو غبار القتال ولو لأتفه الأسباب، وينبرى الجميع للدفاع عن النفس والعرض والمال. وأداتهم فى ذلك فصاحة اللسان وقوة البيان، وبلاغة القول، وأصحاب القول

الفصل فيهم ساداتهم وكبراؤهم وأولو النجدة فيهم، وكل ذلك يكون من دواعى النثر الفنى وأغراضه المهمة فى عصرهم٠

أيضا كان الفراغ الشديد وطول الوقت يجعلهم يجتمعون للســمر وسماع الأحاديث المحببة إليهم عن أمجاد آبائهم وأجدادهم وما كان لهم من مغامرات وانتصارات ومواقف مشرفة يتباهون بها بين القبائل وكل ذلك بلغة النثر الفنى الجميل٠

كذلك كان سمرهم بسماع القصص التى يرويها القصاص علــيهم وهى وإن كانت قصص يغلب عليها الخيال إلا أنها كانــت تســمرهم وتسعدهم وتسليهم وتقتل فراغهم الشديد٠

ولعل أكثر الألوان شيوعا على ألسنتهم ما كان من حكاياتهم عــن أيامهم وحروبهم وما سجله أبطالهم فيها مــن انتصـــارات وبطــولات عظيمة، وما كان من بعض الهزائم المنكرة التى منيت بها القبائل٠

وقد ذكر د/ شوقى ضيف عددا غير قليــل مــن أيــام العــرب وحروبها فى الجاهلية والتى كانوا يجعلون منها مادة لقصصهم غير ما يذكرونه من قصص العرب والفرس وغيرها مــن قصــص الســمر والتسلية فيقول: "وتسمى هذه الأيام والحروب غالبــا بأســماء البقــاع والآبار التى نشبت بجانبها مثل: يوم عين أباغ ، وكان بــين المنــاذرة

والغساسنة، ومثل يوم ذى قار، وكان بين بكر والفرس، ويــوم شــعب جبلة، وكان بين عبس وأحلافها من بنى عامر وذبيان وأحلافهــا مــن تميم، وقد تسمى بأسماء ما أحدث اشتعالها مثل: حرب البسوس وحرب داحس والغبراء "[١].

وذكر كثيرا من أيامهم وحــروبهم التــى يجعلــون منهــا مــادة لقصصهم وسمرهم تسلية لهم وحفزا لهممهم، وربمــا أثــار بعضــها ضغائنهم فنشبت الحرب بينهم حينما تذكرهم هذه القصص بما كان بين بعض قبائلهم وغيرها من القبائل المجاورة من حروب وإحــن قديمــة وأيضا هناك القصص الكثيرة التى رويت لهم وتحاكوا بها فى مجالس سمرهم. مثل قصة المثل العربى "كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك"؟! الذى يعبر عنه بخرافة الحية والفأس، والتى رواها الضــبى حيــث يقــول: "زعموا أن أخوين كانا فيما مضى فى إبل لهمــا، فأجــدبت بلادهمــا، وكان قريبا منها واد فيه حية قد حمته من كل أحــد، فقــال أحــدهما للآخر: يا فلان : لو أنى أتيت هذا الوادى المكلئ فرعيت فيــه إبلــى وأصلحتها، فقال له أخوه: إنى أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحدا لم يهبط ذاك الوادى إلا أهلكته، قال: فوالله لأهبطن، فهبط ذلــك الــوادى فرعى إبله به زمانا، ثم إن الحية لدغته فقتلته، فقال أخوه: ما فى الحياة بعد أخى خير، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتــبعن أخــى، فهــبط ذلــك الوادى، فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أنى قتلت أخاك، فهــل

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) صـــ٦٥ طبعة ٩ دار المعارف.

لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادى، فتكون به، وأعطيك ما بقيت دينارا في كل يوم؟ قال : أفاعلة أنت؟ قالت: نعم، قال: فإنى أفعل، فحلف لها وأعطاها المواثيق، لا يضيرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا، فكثر ماله ، ونمت إبله، حتى كان من أحسن الناس حالا، ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان؟ فعمد إلى فأس فأخذها ، ثم قعد لها، فمرت به، فتبعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر ، فرمى الفاس بالجبل فوقع فوق جحرها فأثر فيه، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه، ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم، فقال لها: هل لك فى أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه، فقالت: كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر، لا تبالى بالعهد؟" [١].

وهكذا صار حديث الحية والفأس مثلا مشهورا من أمثال العرب يضرب في الغدر وخلف الوعد ، ولذلك مثل به النابغة الذبيانى فى (قصيدة يعاتب فيها بنى مرة) فقال:

وإنى لألقى من ذوى الضغن منهم ∴ وما أصبحت تشكو من الوجد ساهرة [٢]

كما لقيت ذات الصفا من حليفها ∴ وما انفكت الأمثال فى الناس سائرة

---

(١) أمثال العرب للضبى ص١٠٦ ٠

(٢) ديوان النابغة الذبيانى صـ١٥٤ تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ــ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م٠

وإذا كانت هذه قصة المثل العربى الشهير الذى أطلقوا عليه خرافة الحية والفأس، وكانوا يتحاكون بهذه القصة فى سمرهم وأماكن أنسهم، فقد تحاكوا أيضا بقصص المتيمين، من أمثال : المرقش الأكبر وأسماء بنت عوف، والمرقش الأصغر وفاطمة بنت الملك المنذر، وعنترة العبسى وابنة عمه عبلة ... وغيرهم من المتيمين.

على أن هذه القصص وأمثالها التى اكتسبت لغة الحكاية للسمر والتسلية فى العصر الجاهلى، لم تكن مادتها كلها من صميم الحقائق، وإنما اتسع الخيال فيها اتساعا كبيرا نتيجة الروايات الكثيرة والمتضاربة، ونتيجة البعد الشاسع بين عصر الرواية وعصر التدوين، وما أدخله الرواة على هذه القصص، بل على كثير من الأدب الجاهلى من انتحالات كثيرة، ومن هذه القصص التى رواها صاحب الأغانى وغيره فى كتبهم قصة المرقش الأكبر وحبيبته أسماء بنت عوف "وما كان من عشقه لها وهو غلام، ومحاولته خطبتها من أبيها، واعتذار الأب له بحداثة سنه وأنه لم يعرف بعد بشجاعة، وما كان من انطلاق المرقش إلى بعض الملوك، ومدحه له وبقائه عنده زمنا، وفى هذه الأثناء أصاب عوفا زمان (فقر) شديد، فأتاه رجل من قبيلة مراد، فأرغبه فى المال فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى

أهله، وقال إخوة المرقش لا تخبروه بخبرها حين يرجع، بل قولوا لـــه إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشا، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه، فلمـــا قــدم المرقش قالوا له: إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظـــل مدة يعود قبر الكبش ويزوره، وخرج المرقش يطلــب أســماء، وبعــد مغامرات يتعرف على راعى زوجها ، ويتوسل إليه أن يحدثها عنـــه، فيقول له: إنى لا أستطيع أن أدنو منها، ولكن تأتينى جاريتها كل ليلـــة، فأحلب لها عنزا فتأتيها بلبنها، فقال له، مرقش: خذ خاتمى هـــذا فـــإذا حلبت فألقه فى اللبن فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيرا لم يصـــبه راع قط إن أنت فعلت ذلك، فأخذ الراعى الخاتم، ولما راحت الجاريـــة بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به، وتركته بين يدى أسماء، فلما سكنت الرغوة أخذته فشربته، فقرع الخاتم ثنيتها، فأخذته واستضاءت بالنار، فعرفته، فقالت للجارية ما هذا الخاتم؟ قالت: مالى به علم، فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فزعا، فقال لها لم دعوتنى؟ قالت له: ادع عبدك راعى غنمك، فدعاه، فقالت: سله أين وجد هذا الخاتم؟ قال: وجدته مع رجل فى كهف خبـــان، فقـــال لـــى: اطرحه فى اللبن الذى تشربه أسماء، فإنك مصيب بـــه خيـــرا، ومـــا أخبرنى من هو، ولقد تركته بأخر رمق، فقال لها زوجها : ومـــا هـــذا

الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش، فأعجل الساعة فى طلبه، فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طرقاه من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما، فمات عند أسماء وقال قبل أن يموت:

سرى ليلا خيال من سليمى ∴ فأرقنى وأصحابى هجود

فبت أدير أمرى كل حال ∴ وأذكر أهلها وهم بعيد

سكن ببلدة وسكنت أخرى ∴ وقطعت المواثق والعهود

فما بالى أفى ويخان عهدى ∴ وما بالى أصاد ولا أصيد

ثم مات ودفن فى أرض مراد"(١).

وهذه القصص وإن كانت ثقة النقاد فيها ليست كبيرة من حيث صحة كل عناصرها إلا أنها وجدت ورويت ، وربما كان لوجودها أصل من الصحة تزيد الرواة فيها بعد ذلك. يقول د/ شوقى ضيف : "ومن غير شك كان يفيض القاص على قصصه من خياله وفنه حتى يبهر سامعيه، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام، ومن الضحك إلى الجد، وعيونهم تلمع فى وجوههم السمر، وقلوبهم تخفق من آن إلى آن، وليس بين أيدينا شيء من أصول هذا

---

(١) الأغانى – طبعة دار الكتب المصرية ٦/ ١٢٩ وما بعدها ، وانظر: تاريخ الأدب (العصر الجاهلى) د/ شوقى ضيف ص٤٠٠، ٤٠١ ، ط٩ – دار المعارف.

القصص الذى كان يدور بينهم، غير أن اللغويين والرواة فى العصر العباسى دونوا لنا ما انتهى إليهم منه، وطبعى أن تتغير وتتحرف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم، وظلت تنبض بروحه وحيويته"[١].

وكانت القصة محببة إلى نفوسهم يتسلون بها ويقطعون بها أوقات فراغهم الطويل، فيقصون كثيرا عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة وملوك الدولة الحميرية وعن أبطالهم وشجعانهم ومن عاصروهم ومارسوا الشجاعة معهم، وكذلك ما كان من قصصهم عن الجن والعفاريت والشياطين، وأيضا عن ملوك الأمم من حولهم مما يجدون فيه صورا مبهرة من الشجاعة والبطولة، فكانت أقرب إلى نفوسهم وأكثر جاذبية لانتباههم وإثارة لحميتهم من أى شىء آخر، وكانوا يميلون إلى الأسلوب القصصى كل الميل، وبخاصة فى سهراتهم فى الليل الطويل.

وهذا الواقع الذى عاشوه فى جاهليتهم قد امتد معهم حتى فى أول عصر صدر الإسلام "يدل على ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن

---

(١) العصر الجاهلى صـ٣٩٩ طبعة ٩ دار المعارف.

النضر بن الحارث كان من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسـول الله ﷺ ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملـوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكـان إذا جلـس رسـول الله ﷺ مجلسا، فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم مـن نقمة الله خلفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يـا معشـر قـريش أحسن حديثا منه، فهلم إلى، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحـدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ..." [١].

ولا شك أن القصص التى رويت عنهم، والتى تسلوا بهم وقطعوا بها أوقات فراغهم ، واستمدوا من بعضها حماسهم، وشجاعتهم، كانت على سبيل الحكاية الشفهية، ولم تكن مكتوبة مدونة، إذ لم يعرف عنهم التدوين لآثارهم الأدبية والفنية، ولم تكن الكتابة قد ارتقت ليدون بها فى عهدهم شعر ونثر، وإنما اقتصر التدوين علـى المكاتبـات الرسـمية فحسب، ومن هنا كان الشك فى كثير من المـروى عـنهم، والقـول بانتحال آثارهم، وإن كان ما بقى لهم وروى عنهم منه، يصور طبيعـة هذا المروى ويفصح عن ملامحه بصورة لا تجعله منكـرا كلـه، وإن تحفظ النقاد فى أحكامهم على كثير منه.

---

(١) المرجع نفسه صـ٤٠٠ .

الخطابة:

معروف سلفا أن الأمة العربية فى العصر الجاهلى قد حباها الله تعالى فصاحة الكلمة وبلاغة التعبير وقوة المعانى وجزالة الأسلوب ومتانته، لدرجة أن كانت فى موقف التحدى، حيث تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن أو حتى بمثل أقصر سورة منه فعجزوا ومعنى ذلك أنهم وصلوا إلى درجة الكفاءة فى التعبير العربى لغة ومعنى وأسلوبا، وكان ذلك فى الشعر والنثر على السواء۰

على أن أشهر أنواع النثر الفنى وأقواها فى العصر الجاهلى هى الخطابة، وهى التى يراد بها التعبير مشافهة عما تكنه النفس وتنطوى عليه المشاعر من معان قوية جيدة، يقصد بها إثارة المشاعر وإلهاب العواطف نحو المعنى المراد والعمل الجاد، كما أنها "سبيل الإقناع وعدة التأثير، لما فيها من حضور المتكلم بشخصه ودفاعه عن رأيه بنفسه، وإفاضته فى كل ما يؤيد مذهبه، ومن طبيعة القبائل المتبدية التى تعمها الأمية، ولا يربطها قانون عام، ولا تضبطها حكومة منظمة، ولا تضمها راية سلطان واحد ــ كما كانت الأمة العربية فى جاهليتها ــ أن تكون الخطابة لها ضرورية، وفيها فطرية"[١]۰

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ٢٣، ٢٤ للشيخين:أحمد الإسكندرى، ود/ مصطفى عنانى سنة ١٩٢٧م مطبعة المعارف بمصر۰

ويتحدث الشيخان: أحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى عن دواعى الخطابة والحافز عليها فى الجاهلية فيقولان:

"فمن الدواعى الطبعية للخطابة فى الجاهلية ما يأتى:

١ - غلبة الأمية على العرب غلبة ألجأتهم إلى الاستعانة باللسان أداة القول بدل القلم أداة الكتابة.

٢ - تملكهم زمام الفصاحة وانقيادهم لسلطان البلاغة واستجابة خاصتهم وعامتهم لدعاء سادتهم وكبرائهم وأولى النجدة فيهم عند الأمر الحافز والخطب الداهم لما بين الداعى والمدعو من وحدة الجنس واللسان، وتوافر أسباب التفاهم والبيان.

٣ - تفرقهم قبائل مستقلة وعشائر صغيرة، وفئات مقاتلة بحيث يتيسر لكل جمهور منهم الاجتماع فى صعيد واحد، والاستماع إلى خطيب فرد.

٤ - تعذر طرق التواصل المنظمة بينهم: كبريد يحمل رسائل ضافية وكتبا مطولة، أو برق يوصل أخبارا هامة، أو صحف تنشر حوادث عامة، فكانت الداعية شديدة إلى رسول موفد نابه الشأن، فصيح اللسان قوى الحجة.

٥ - شن الغارات لأوهى الأسباب ، وإفضاء ذلك إلى الـدفاع عـن النفس والعرض والمال، ثم إلى الانتقام، لفراغ أكثرهم مما يشغل الخواطر والجوارح من صناعة وزراعة وتجارة، وللخطابة فى ذلك المثل الأعلى، والقدح المعلى"[١].

هذا وقد كانت الأغراض والمعانى التى دارت حولها الخطابة فى الجاهلية كثيرة ومنها:

١ - الحث على قتال الأعداء والأخذ بالثأر، ومن ذلك خطبة هانئ بن قبيصة الشيبانى المشهورة التى قالها يحرض بها قومه على قتال الفرس فى وقعة ذى قار :

"يا معشر بكر، هالك معذور خير من ناج فـرور، إن الحـذر لا ينجى من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنيـة، يـا معشر بكر: استقبال الموت خير من استدباره، الطعن فى ثغر النحـور أكرم منه فى الأعجاز والظهور، يا آل بكر: قاتلوا فمـا للمنايـا مـن بد"[٢].

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ٢٤ .
(٢) الأغانى ٢٠/ ١٣٧ .

وهكذا كانوا يدعون أقوامهم إلى الحرب والقتال، والأخذ بالثـأر، وبعث الموجدة والحمية فى نفوس قبائلهم، ودفعهم إلى الترامى فى أوار الحروب دفعا قويا. يقول أبوزبيد الطائى[١]:

وخطيــب إذا تمعــرت الأو ∴ جه يوما فى مــأقط مشــهود[٢]

ويقول عامر المحاربى فى مديح قومه[٣]:

وهم يدعمون القول فى كل موطن ∴ بكل خطيب يترك القــوم كظمــا

يقوم فلا يعيا الكــلام خطيبنــا ∴ إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما[٤]

٢ - وإذا كان هناك من خطبوا فى الحض والحث على القتــال وسفك الدماء والأخذ بالثأر وهم كثير، فإن هناك أيضا من توسطوا فى الخير وخطبوا داعين إلى السلم وأن تضع الحرب أوزارها بينهم وفــى إصلاح ذات البين حقنا للدماء بــين القبائــل والعشــائر المتخاصــمة والمتصارعة، كما هو الحال فى خطبة قيس بن خارجة التى قالها إثــر حرب داحس والغبراء، وإن كانت هذه الخطبة لم تصلنا شأن كثير من تراث الجاهليين[٥].

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٧٦ .
(٢) تمعرت: تغيرت واصفرت، المأقط : موضع القتال.
(٣) المفضليات . القصيدة ٩١ .
(٤) الجبس: اللئيم .
(٥) البيان والتبيين ١/ ٣٤٨ .

يقول ربيعة بن مقروم العينى:

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة .·. خطباؤنا بين العشـيرة يفصـل

ومن ذلك أيضا خطبة مرثد الخير أحد أقيال حمير فى الصلح بين سبيع بن الحارث أخى ذى جدن، وميثم بن مثوب بن ذى رعين حـين تنازعا الشرف وتشاحنا حتى خيف أن يقع بين حييهما شـر فيتفـانى جذماهما ـ أصلاهما ـ فقال:

"إن التخبط، وامتطاء الهجاج[١]، واستحقاب اللجـاج[٢] سـيقفكما على شفا هوة فى توردها بوار الأصيلة[٣]، وانقطاع الوسيلة، فتلافيـا أمركما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقـد، وتشـتت الألفـة، وتبـاين السهمة[٤]، وأنتما فى فسحة رافهة[٥]، وقـدم واطـدة[٦]. إن المـودة مثرية[٧]، والبقيا معرضة[٨]، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع،ورأيتم مـا

---

(١) كناية عن عدم التروى .
(٢) التمسك بالخصومة.
(٣) هلاك الأصل .
(٤) السهمة: القرابة .
(٥) رافهة: ناعمة.
(٦) واطدة : ثابتة.
(٧) مثرية: متصلة .
(٨) البقيا معرضة: ممكنة.

آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور[١] أمورهم، فتلافوا القرحة[٢] قبل تفاقم الثأى[٣]، واستفحال الداء، وإعواز الدواء، فإنه إذا سفكت الدماء، استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت[٤] عرى الإبقاء، وشمل البلاء"[٥].

٣ - ومنها خطب الوفود فى محافل الأمراء ومجالس الملوك، إذ يقف رئيس الوفد وهو أحد عظماء قومه إن لم يكن عظيمهم بين يدى الأمير أو الملك محييا ومتحدثا بلسان قومه، مفاخرا بقومه وعشيرته، أو مهنئا لهذا الملك بانتصاراته ومناسباته السعيدة أو مشاركا له فى أحزانه لأمر جلل قد حدث له أو لقومه، وهذه كانت سنة شائعة بين العرب فى الجاهلية، وهى من المشاركات الاجتماعية فى السراء والضراء بينهم. يقول أوس بن حجر فى رثاء فضالة بن كلدة:

أبا دليجة من يكفى العشيرة إذ ∴ أمسوا من الخطب فى نار وبلبال

أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا ∴ لدى الملوك ذوى أيد وأفضال

---

(١) صيور: عاقبة.
(٢) القرحة: الجرح.
(٣) الثأى: الإفساد.
(٤) تقضبت : تقطعت.
(٥) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ٢٨ .

ومن أشهر هذه الخطب: خطبة أكثم بن صيفى أمام كسرى يقول فيها: "إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجـال ملـوكهم، وأفضـل الملوك أعمهم نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقهم، الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صـعب، والعجز مركب وطئ، آفة الرأى الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخيـر الأمور الصبر، حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى. من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء، شر البلاد بلاد لا أمير بها، شر الملوك من خافه البرئ، المرء يعجز لا المحالة[١]، أفضل الأولاد البررة، خير الأعوان من لم يـراء بالنصيحة، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل، حسبك من شر سماعه، الصمت حكم[٢] وقليـل فاعلـه، البلاغة الإيجاز، من شدد نفر، ومن تراخى تألف"[٣].

ومنها أيضا خطبة قبيصة بن نقيم حين قدم مع وفد من قبائل بنى أسد على امرئ القيس بن حجر الكندى بعد مقتل أبيه يسألونه العفـو: "إنك فى المحل والقدر، والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثـه أيامـه

---

(١) المحالة: الحيلة .

(٢) حكم أى حكمة .

(٣) الوسيط فى الأدب العربى صـ٣٢ .

وتنتقل به أحواله، بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعـظ، ولا تبصـير من مجرب ، ولك من سؤدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصـلك فى العرب محتد يحتمل ما حمل عليه، من إقالة العثرة والرجوع عـن الهفوة، وقد كان الذى كان من الخطب الجليل الذى عمت رزيته نزارا واليمن ، ولم تخصص بذلك كندة دوننا، فأحمد الحالات فـى ذلـك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث..."٠

فبكى امرؤ القيس ساعة، ثم رفع رأسه فقال: "لقد علمت العـرب أنه لا كفء لحجر فى دم، وأنى لن أعتاض به جملا ولا ناقة، فأكتسب به سبة الأبد، وفت العضد[1]، وأما النظرة فقد أوجبتهـا الأجنـة فـى بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سببا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل فى القلوب حنقا، وفوق الأسنة علقا[2]٠

إذا جالت الخيـل فـى مـأزق ∴ تصافح فيـه المنايـا النفوسـا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلـى الاجترار[3]، لحرب وبلية، ومكروه وأذية، ثم نهضوا عنه ، وقبيصـة يقول متمثلا:

---

(١) فت العضد: الضعف والوهن٠
(٢) العلق: دم غليظ٠
(٣) الاجترار: ما يجره الإنسان على نفسه من سوء عمله، ومنه: الجريـرة: أى الذنب٠

لعلك أن تستوخم الورد إن غـدت ∴ كتائبنا فى مأزق الموت تمطـر

فقال امرؤ القيس: لا، والله لا أستوخمه ، فرويـدا ينكشـف لـك دجاها عن فرسان كندة، وكتائب حمير، ولقد كان ذكر غير هذا أولـى بى، إذ كنت نازلا بربعى، ومتجرما بزمامى، ولكنك قلت فأجبت ، قال قبيصة: إن ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب، قال امـرؤ القـيس: فهو ذاك.

وفى ذلك يقول عبيد بن الأبرص:

يا ذا المخوفنـا بقتـل أبيـه إذلالا وحينـا

هلا على حجر بن أم قطام تبكـى لا علينـا

نحن الألى فاجمع جموعك ثم وجههم إلينـا

نحمى حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا

٤ – ومنها خطب المفاخرات والمنافرات: وذلك لأن العرب فى الجاهلية كانوا قد جبلوا علـى حـب التفـاخر والتعـاظم بالأحسـاب والأنساب وإبراز المناقب والمآثر، وكانت المفاخرات والمنافرات كثيرة وذائعة فيهم وعنهم، وأشهرها منافرة علقمة بن علاثـة وعـامر بـن الطفيل اللذين تنافسا على الرياسة فى بنى عامر وأخذ كلاهمـا يعـدد مناقبه ومفاخره، قال علقمة: "الرياسة لجدى الأحوص، وإنما صـارت

إلى عمك أبى براء من أجله، وقد استسن[١] عمك وقعد عنها فأنا أولى بها منك، وإن شئت نافرتك. قال عامر: قد شئت، والله لأنا أشرف منك حسبا، وأثبت منك نسبا، وأطول قصبا[٢].

قال علقمة: أنافرك: وإنى لبر وإنك لفاجر، وإنى لولود وإنك لعاقر، وإنى لواف وإنك لغادر، قال عامر : أنافرك: وإنى أنشر منك أمة، وأطول قمة، وأحسن لمة[٣]، وأجعد جمة[٤]، وأبعد همة. قال علقمة: أنا جميل وأنت قبيح، ولكن أنافرك، أنا أولى بالخيرات منك، فخرجت أم عامر وقالت نافرة: أيكما أولى بالخيرات؟ ففعلوا على مائة من الإبل، وحكموا هرما الفزارى فلم يفضل أحدهما على الآخر حتى لا تكون فتنة بين الحيين"[٥].

٥ - ومنها: خطب النصح والإرشاد والموعظة والتأمل فى الحياة والكون، وهذا لم يكن إلا من المتحنفين والكتابيين، ومن لهم بصيرة نافذة وتجارب كثيرة وقوية وآفاق واسعة، وأكثرهم من المتقدمين فى السن وقد خبروا الحياة وتأملوا فى كل ما يحيط بهم،

(١) استسن: كبر سنه.
(٢) أطول قصبا: أطول قامة.
(٣) اللمة: الشعر المتجاوز شحمة الأذن .
(٤) الجمة: مجتمع شعر الرأس.
(٥) الأغانى ١٥/ ٥١ .

وكان اعتمادهم لا على نبى مرسل ولكن على بصيرتهم وسعة آفـاقهم وكثرة تجاربهم فى الحياة المحيطة بهم، ولا شـك أن الوثنيـة كانـت الغالبة عليهم فى الجاهلية، وكانوا فى حاجة إلى من يلفـت أنظـارهم ويأخذ بأيدهم إلى الروحانية الخالصة والتأمل فى ملكوت الله عزوجـل وتفرده بالقدسية سبحانه ٠

وكانت أشهر الخطب التى هى من هذا النوع خطبـة قـس بـن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ . وقد تحدث عنـه الشـيخان: أحمـد الإسكندري ومصطفى عنانى حيث يقولان عن قس بن سـاعدة: "هـو خطيب العرب قاطبة، والمضروب به المثل فـى البلاغـة والحكمـة والموعظة الحسنة، كان يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث، ويدعو العـرب إلى نبذ العكوف على الأوثان، ويشدهم إلى عبادة الخـالق، ويخطـبهم بذلك فى المحافل العامة، ومواسم الأسواق، ويقال: إنه أول من خطـب على شرف، وأول من قال فى خطبه (أما بعد) وأول من اتكـأ علـى سيف أو عصا فى خطابته، وكان الناس يتحاكمون إليه فيقضى بيـنهم بسديد رأيه، وصائب حكمه. وهو القائل : (البينة علـى مـن ادعـى واليمين على من أنكر) وكان قس يفد على قيصر ويزوره ، فقال لـه يوما: ما أفضل العقل؟ قال معرفة المرء بنفسه، قال: فما أفضل العلم؟

قال: وقوف المرء عند علمه. قال : فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه. قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قضى به الحقوق ... وقد كان مهذب الألفاظ ، قوى التأثير، بعيدا عن الحشو واللغو في كلامه وسجعه"[١].

ويقول الجاحظ: "ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله ﷺ هو الذى روى كلام قس بن ساعدة، وموقفه على جمله بعكاظ، وموعظته، وهو الذى رواه لقريش وللعرب، وهو الذى عجب من حسنه، وأظهر من تصويبه، وهذا إسناد تعجز عنه الأمانى، وتنقطع دونه الآمال"[٢].

يقول قس بن ساعدة الإيادى فى خطبته المشهورة والتى اشتهر بها، والتى رواها النبى ﷺ حيث يقول: "رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول .." ورواها عنه ﷺ : "يقول قس : "أيها الناس . اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ،

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ٣٠ .
(٢) البيان والتبيين ١/ ٥٢ .

أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه: إن لله دينا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكرا، ويرون أن قسا أنشأ بعد ذلك يقول:

فى الذاهبين الأولين :. من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا :. للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها :. تمضى: الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضى إلى :. ولا من الباقين غابر

أيقنت أنى لا محا :. لة حيث صار القوم صائر"(١)

ومن هذا النوع أيضا خطبة كعب بن لؤى التى تنبأ فيها بمقدم الرسول ﷺ ، ودعا العرب إلى اعتناق الدين الذى سيظهر فيقول : "زينوا حرمكم وعظموه، وتمسكوا به ولا تفارقوه، فسيأتى له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبى كريم"(٢).

٦ – ومنها خطب المصاهرة أو الإملاك أى النكاح، وكان لها أصول معينة وآداب معروفة فيما بينهم يلتزمون بها فى هذه المناسبات، حيث كان من عاداتهم فى المصاهرة أن يتقدم سيد من

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ٢١٢/ ١ طبعة ١٣٣١ المطبعة الأميرية.
(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ١/ ٢١١ .

أشراف العشيرة نيابة عن الخاطب، فيخطب باسمه الفتاة التـي يريـد الاقتران بها، ومن ذلك خطبة أبى طالب السيدة خديجة للرسول ﷺ حيث وقف يخطب بلسان قومه وباسم محمد ﷺ فيقول: "الحمد لله جعلنا مـن ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما، وبيتا محجوجـا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبدالله ابن أخـي مـن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا، وكرمـا وعقـلا، ومجدا ونبلا، وإن كان فى المال قلا[١] فإنما المال ظل زائل وعاريـة مسترجعة، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، ومـا أحببتم من الصداق فعلى"[٢].

ويقول الجاحظ: "كانت خطبة قريش فى الجاهلية ــ يعنى خطبـة النساء ــ "باسمك اللهم ذكرت فلانة، وفلان بها مشغوف، باسمك اللهم، لك ما سألت، ولنا ما أعطيت"[٣].

ويقول الجاحظ أيضا: "كان من عادة العرب فى هذه الخطبـة أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب"[٤].

---

(١) أى قليل المال.
(٢) السيرة الحلبية ١/ ١٢٣ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٤٠٨ .
(٤) البيان والتبيين ١/ ١١٦ .

ويقول أيضا عن خطابة العرب عامة: "اعلم أن جميــع خطــب العرب من أهل المدر والوبر، والبدو والحضر علــى ضــربين منهــا الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه، ومن الطوال ما يكون مستويا فى الجــودة، ومتشــاكلا فــى اســتواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان، والنتف الجيــاد، ووجــدنا عــدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع"[١].

عادات العرب فى الخطابة:

كان للخطباء العرب فى الجاهلية مجموعة من العادات والســنن التى اتبعوها فى خطابتهم، حيث كانوا يخطبون علــى رواحلهــم فــى الأسواق والمجامع الكبار والمناسبات العظيمة، ولم يعرف عنهم أنهــم كانوا يخطبوا جلوسا إلا فى خطبة النكاح. يقول الهيثم بن عــدى: "لــم تكن الخطباء تخطب قعودا إلا فى خطبة النكاح"[٢].

وكانوا يلوثون العمائم على رءوسهم، وفى أثناء خطــابتهم، كمــا كانوا يمسكون بالعصى والمخاصر والقضبان والقنا والقسى راكبين أو واقفين على ربوة من الأرض، يقول فى ذلك لبيد بن ربيعة العامرى:

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٧ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٨ .

ما إن أهاب إذا السرادق عمـــه ∴ قرع القسى وأرعـــش الرعديـــد

وقد عاب الشعوبيون على خطباء الجاهلية عادة الإشارة بالعصـــا والمخاصر، ولكن الجاحظ رد عليهم مبينا فوائد الإشارة بالعصا فقال: "إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العـــرب، ومقصـــور علـــيهم، ومنسوب إليهم، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصـــر بأيـــديهم إلفا لها، وتوقعا لبعض ما يوجب حملها، والإشارة بها"[١].

وكان العرب يمدحون في الخطيـــب ثبـــات الجنـــان، وحضـــور البديهة، وقوة الحجة، والترفع عن الخصوم ، والابتعاد عن الابتـــذال، والتنحنح، والتلفت والارتعاش والتعثر في الكلام والحصر. يقول النمر بن تولب:

أعذني رب من حصـــر وعـــي ∴ ومن نفس أعالجهـــا علاجـــا[٢]

ويقول أبو العيال الهذلي:

ولا حصـــــر بخطبتـــــه إذا ∴ مـــــا عـــــزت الخطـــــب[٣]

---

(١) البيان والتبيين ٣/ ١١٧ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٠.

(٣) السابق.

وكانوا يمدحون الجهير الصوت من الخطباء، ويذمون الضـــئيل الصوت ولذلك تشادقوا فى الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذموا صغيره .

يقول الشاعر فى عمرو بن سعيد الأشدق:

تشادق حتى مال بالقول شدقه ∴ وكل خطيب لا أبالــك أشــدق[1]

ولكن لما كان بعضهم يتزيد فى جهارة الصوت وسعة الأشــداق، وهدل الشفاة ذموهم بذلك، وقال الرسول ﷺ فى ذلك : "إياى والتشادق" وقال: "أبغضكم إلى الثرثارون والمتفيهقون"[2].

كما ذموا فى الخطيب أيضا: كثرة مسه لذقنه وشواربه ولحيتــه، وكأنما رأوا فى ذلك ضربا من الخرق فى استخدام الجــوارح، يقــول معن بن أوس المزنى فى بعض هجائه:

إذا اجتمع القبائل جئــت ردفــا ∴ وراء الماســحين لــك الســبالا

فلا تعطى عصا الخطباء فــيهم ∴ وقد تكفى المقــادة والمقــالا[3]

إلى غير ذلك من عاداتهم وطرائقهم المحمودة والمذمومــة فــى خطابتهم فى العصر الجاهلى، والتى وقف عندها النقاد طويلا، وذكــر الجاحظ منها الكثير والكثير .

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٢٠، ١٢١ .
(٢) البيان والتبيين ١/ ١٣ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٣٧٢ .

وإذا كان الشاعر فى الجاهلية له منزلته ومكانته وأنه كان أحـد ثلاثة أشياء يهنأ بها العرب "ولد يولد، أو فرس تنتج، أو شاعر ينبـغ" كما ورد فى كتب الأدب. وذلك لأنه كان يتحدث بلسان قبيلته، معـددا مآثرها، مدافعا عن أمجادها وكرامتها، مفتخرا بانتصـاراتها، رافعـا لواءها ، هاجيا خصومها فإن الخطيب أيضا كانت له منزلته ومكانتـه، حيث كان يفاخر وينافر ويحض على القتال، ويتحدث عن أمجاد قبيلته وعزها وانتصاراتها ، كما كانت تحتكم إليه القبائل فـى مفاوضـاتها، وكانت له الكلمة المسموعة، وأيضا كان يدعو إلى السلم ويحض علـى الفضائل ومكارم الأخلاق، ويتولى النصح والإرشاد فى قومه وفى غير قومه.

يقول أبوعمرو بن العلاء : "كان الشاعر فى الجاهلية يقدم علـى الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد علـيهم مـآثرهم، ويفخـم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم، فيراقب شاعرهم، فلما كثـر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسـبة، ورحلـوا إلـى السـوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"[1].

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٤١ .

ويقول الجاحظ: "كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر"(١).

ويعلل د/ شوقى ضيف لمنزلة الخطيب التى تحدث عنها أبوعمرو بن العلاء والجاحظ بقوله: "وربما كان من أسباب ذلك — أى عظم قدر الخطيب ومكانته ومنزلته التى تفوق بها على الشاعر — أن الشاعر — إذا استثنينا زهيرا — كان هو الذى يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالثأر، أما الخطيب فكان غالبا يدعو إلى السلم، وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها، وكثيرا ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنابذا بالألقاب والأحساب والمآثر والمعايب"(٢).

وهذا يدل دلالة قاطعة على ازدهار الخطابة ونهضتها فى العصر الجاهلى، وعلى تعدد أنواعها وكثرة أغراضها وموضوعاتها، فخطبوا فى الحروب والانتصارات والمفاخرات والمنافرات، وفى مصاهراتهم ووفادتهم، وفى النصح والإرشاد .. وغير ذلك مما يستلزم الخطابة فى العصر الجاهلى.

---

(١) البيان والتبيين ٤/ ٨٣ .

(٢) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) صـ٤١٦ دار المعارف ط٩ .

وقد ذكر الجاحظ حشدا هائلا من خطباء القبائل فى الجاهلية، كما ذكر مقاطع وفقرا كثيرة من أقوالهم.

ومن هؤلاء : قيس بن شماس فى يثرب، وابنه ثابت أحد خطباء النبى ﷺ ، ومن خطباء الأنصار: سعد بن الربيع، وهو الذى اعترضت ابنته النبى ﷺ، فقال لها: من أنت؟ قالت: ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع[١]، ومن خطباء مكة: هاشم، وأمية، ونفيل بن عبدالعزى جد عمر بن الخطاب ﷺ ، وعتبة بن ربيعة، وسهيل بن عمرو الأعلم، وهو الذى قال فيه عمر للرسول ﷺ : "يا رسول الله : انزع ثنيته السفليين حتى يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا" فقال الرسول ﷺ : "لا أمثل فيمثل الله بى، وإن كنت نبيا، دعه يا عمر، فعسى أن يقوم مقاما تحمده"[٢].

ومن خطباء تميم المفوهين: أكثم بن صيفى وضمرة بن ضمرة، ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زرى عليه للذى رأى من دمامته وقصره، وقلته، فقال للنعمان: "تسمع بالمعيدى لا أن تراه" فقال: أبيت اللعن. إن الرجال لا تكال بالقفزان، ولا توزن بالميزان، وليست

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٥٨، وانظر: تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) د/شوقى ضيف صـ٤١٣ .
(٢) البيان والتبيين ١/ ٣١٧ .

بمسوك يستقى بها، وإنما المرء بأصغريه: بقلبـــه ولســـانه، إن صـــال صال بجنان، وإن قال قال ببيان"(١).

ومن خطباء تميم، عطار بن حاجب بن زرارة خطيب وفدها أمام الرسول ﷺ فى العام التاسع للهجرة النبوية الشريفة والذى يسمى بعـــام الوفود. ومنهم: عمرو بن الأهتم المنقرى، ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه، ويروى أن الرسول ﷺ سأله عن الزبرقان بن بـــدر فقال : "مانع لحوزته، مطاع فى أدنيه"، فقال الزبرقان: "أما أنه قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدنى شرفى" فقال عمرو : "أما لإن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر، زمر المروءة، لئيم الخال، حـــديث الغنى، فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول، ورأى الإنكـــار فى عينى رسول الله ﷺ قال : "يا رسول الله . رضيت فقلت أحسن مـــا علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت فى الأولـــى، ولقـــد صدقت فى الآخرة" فقال الرسول ﷺ : "إن من البيان لسحرا"(٢).

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٧١. والقفزان: جمع قفيـــز، وهـــو مكيـــال عراقـــى، والمسوك: جمع مسك وهو الجلد.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٥٣ .

ومن خطباء بنى منقر التميميين أيضا: قيس بن عاصم الذى قـــال فيه الرسول ﷺ حين رأه: "هذا سيد أهل الوبر"[١].

وهو الذى قال فيه عبدة بن الطبيب حين مات:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ∴ ولكنــــه بنيـــان قـــوم تهـــدما[٢]

وممن اشتهروا بالخطابة فى القبائل أيضا: قس بن ساعدة فى إياد وهو الذى روى عنه الرسول ﷺ خطبته المشهورة : "أيها الناس: مـــن عاش مات، ومن مات فات، ... إلى آخره" ومنهم : عامر بن الظـــرب فى عدوان، وربيعة بن حذار فى أسد، وحنظلة بن ضرار فى ضـــبة ، وعمرو بن كلثوم فى تغلب، وهانئ بن قبيصة فى شيبان ، وزهير بـــن جناب فى كلب وقضاعة، ومن الخطباء الشعراء النابهين أيضا: لبيد بن ربيعة العامرى. ومن قوله:

وأخلف قسا ليتنى ولـــو اننـــى ∴ وأعبى على لقمان حكم التدبر[٣]

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٣٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ١/ ١٨٩ وانظر البيان والتبيين فى مواضع كثيرة منه، وانظر كذلك تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) د/ شوقى ضيف صـــ٤١٠ وما بعدها .

وكثير جدا من الخطباء المشاهير وغير المشاهير فـــى العصـــر الجاهلى .

وهذا دليل واضح على كثرة الخطابة وكثرة الخطباء فـــى هـــذا العصر وعلى شهرتهم ومكانتهم وعلو منزلتهم التى لا تقل عن مكانـــة الشاعر ومنزلته عندهم، بل ربما زادت وسمت على مكانة الشاعر فى بعض الأوقات، ولأسباب جديرة بالقبول. يقول أبوعمر بن العلاء فـــى ذلك : "كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول علـــى عـــدوهم، ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهـــابهم شاعر غيرهم، فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشـــعراء واتخـــذوا الشعر مكسبة رحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس، صـــار الخطيب عندهم فوق الشاعر"[١].

ويقول الجاحظ : "كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليـــه أحوج لرده مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثـــر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر"[٢].

ويقول د/ شوقى ضيف بعد أن ذكر كثرة هائلة من خطباء القبائل فى الجاهلية، وقطعا من خطابة كثير منهم: "وواضح أن هذه كثرة مـــن

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٤١ .

(٢) البيان والتبيين ٤/ ٨٣ .

الخطباء الجاهليين، إن لم يصح ما أثر عنهم من خطب فإن من المحقق أنهم خطبوا كثيرا فى أقوامهم وقبائلهم، وإلا ما اشتهروا بالبراعة فـــى هذا اللون من ألوان اللسن والبيان، وكان مما بعـــثهم علـــى إحســـانه حاجتهم إليه فى مواطن ومواقف عدة، وكان قلما يرتفع نجم سيد مـــن سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته، وسجية من سجاياه، حتى تساق له القلوب بأزمتها، وتجمع له النفوس المختلفة من أقطارها، وكل شىء يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر"[١].

ولما كانت الخطابة شائعة فى الحضر أكثر مما تكون فى البادية، وفى الموضوعات والمواقف المختلفة والتى تمس حياتهم مســا قويـــا، كأن تكون فى المفاخرات والمنافرات، وفى التحريض على القتال، وفى الدعوة إلى السلم وأن تضع الحرب أوزارها بـــين القبائـــل والعشـــائر المتقاتلة، وفى المصاهرة، وفى النصح والإرشاد ... وغير ذلـــك مـــن الموضوعات التى طرقوها فى خطابتهم فإن الملاحظ على أساليبهم فى خطابتهم سهولة الألفاظ مع جزالتها، ووضوح المعـــانى مـــع قوتهـــا وعمقها، وأن السجع كان سمة بارزة فى الغالب الأعظـــم مـــن هـــذه الخطب لدرجة أن المتهم بالانتحال مـــن هـــذه الخطـــب مـــن حيـــث

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) صـــ٤١٥ ط٩ دار المعارف.

الموضوع والصياغة والمعانى، لم يتهم بأنــه مســجوع، وذلــك لأن المنحول منها صيغ على طريقة السليم منها إمعانا فى إحكام التقليــد٠ والشك الذى تطرق إلى نفوس الأدباء والنقاد فى كثير من الوارد إلينــا من هذه الخطب، إنما سببه المدة الطويلة الفاصلة بــين زمــن القــول وزمن التدوين٠

يقول الدكتور/ شوقى ضيف فــى ذلــك: "وإذا ذهبنــا نســتنطق النصوص عن أساليب خطابتهم، وهل كانوا يعمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى الأسلوب المسجع وجدنا أنفسنا بإزاء تــراث مــتهم لا يمكن الاعتماد عليه، فى الاستنتاج، لما قلنا مرارا من أن حقبا متطاولة تفصل بين العصر الذى دونت فيه تلك الخطب، والآخر الــذى قيلــت فيه. ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة، نلاحــظ أن مــن نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رويت لهم، فإذا لاحظنــا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم روى مسجوعا كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوا الجاهليين هذه المفاخرات والمنافرات أنهم كــانوا يســجعون فيها"[١].

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) صـــ٤١٧ ٠

ويرى الجاحظ: أن العرب كانوا يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة، بينما كانوا يستعملون المنثور المرسل فى خطب الصلح وسل السخيمة، وعند المعاقدة والمعاهدة، وكأنهم عرفوا فى الجاهلية لونين من الخطابة لونا مسجوعا ولونا مرسلا"[١].

وقد ذكرنا نماذج كثيرة من خطبهم فى أغراض وموضوعات مختلفة والغالب عليها السجع وقصر الجمل فى أغلب عباراتها.

ومن النثر المرسل: قول أبىجبيل قيس بن خفاف البرجمى لحاتم فى دماء[٢] تحملها : "إنى حملت دماء عولت فيها على مالى وآمالى، فأما مالى فقدمته، وكنت أكبر آمالى، فإن تحملتها فكم من حق قضيت وهم كفيت، وإن حال دون ذلك حائل، لم أذم يومك ولم أيئس من غدك"[٣].

ويذكر الشيخان: أحمد الإسكندرى، ومصطفى عنانى الخصائص الفنية للنثر الجاهلى، والخطابة على وجه الخصوص، ومنها:

---

(١) المرجع نفسه صـ٤١٨، وانظر البيان والتبيين ١/ ٢٩٠ .
(٢) دماء: جمع دم، والمراد به: الدية.
(٣) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ٢٢ ط٦ ـ ١٩٢٧م.

١ - قلة تأنقهم فى انتقاء الألفاظ المتناسبة الوزن، المتشابهة فى النغم والجرس، وإنما يعمدون فى تأدية المعنى إلى ألفاظ تطابقه على ما يتفق ، وكما يكون٠

٢ - قلة استعمالهم الجمل والعبارات المتواردة على معنى واحد كما يفعل الجاحظ وأشباهه من المولدين٠

٣ - قلة ولوعهم بالتكلف فى صوغ عباراتهم وأساليبهم وسجعهم اللهم إلا ما وقع من سجع كاهن أو عراف٠

٤ - قصر الجمل، أو توسطها، وكثيرا ما يلتزمون ذلك فى الحكم والأمثال والوصايا٠

٥ - ميلهم إلى الإيجاز من غير إخلال بالمعنى٠

٦ - كثرة استعمالهم الكناية القريبة المنال، اتقاء للتصريح بما يستهجن ، أو تحريكا للنفس فى استحضار صورة المكنى عنه بذكر أخص صفاته٠

٧ - قلة تعمقهم فى استخراج المعانى البعيدة، وفى استقصاء الأفكار العويصة التى تحتاج إلى كد خاطر أو درس علم"[1]٠

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ٢١، ٢٢ ٠

وهكذا كانت الخطابة فى العصر الجـاهلى، وفـى الأغـراض والموضوعات الخاصة بهم، والتى تعارفوا عليها ، ومنها: المفاخرات والمنافرات فى الحرب والسلم، وفى النصح والإرشاد .. وفى غير ذلك من الموضوعات الخطابية، وكان لها رجالها المعروفون فى كل قبيلة، وكانت لهم مكانتهم ومنزلتهم التى كانوا يتفوقون فيهـا أحيانـا علـى الشعراء كما ذكر أبوعمرو بن العلاء والجاحظ فى أقوالهما السابقة.

كما كان لها خصائصها الفنية التى تحدثنا عنها فيما ذكرنا.

الوصايا:

الوصايا جمع وصية. والوصية: قول بليغ مأثور، ينم عن حـب وإخلاص من الموصى للموصى أو الموصين ، كما ينم عـن طـول تجارب ودربة وخبرة بالحياة، وتتضمن الوصية ـ غالبا ـ الحث على السلوك الطيب النافع للموصى، والنصح والإرشاد والتوجيه له ، رغبة فى رفعة شأنه، وجلب الخير له، وتكون ـ عـادة ـ مـن الأب والأم لأولادهما، كما تكون من كبار القوم وعقلائهم لذويهم وعشائرهم ومـن يهمهم أمرهم ومستقبلهم، وغالبا أيضا ما تكـون فـى خريـف عمـر الموصى، أو فى آخر حياته، وموضـوعاتهم هـى: حسـن الخلـق، والتضامن والترابط الاجتماعى، والتماسك الأخوى والعائلى، والمروءة

فى التعامل فيما بينهم وبين بعضهم البعض، وفيما بينهم وبين النـــاس، حتى يظل الناس معهم رابطة واحدة، وأيضا بالدفاع عن مصــالحهم ، ومصالح أقوامهم، والذود عن حياضهم ... وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة التى يوصى بها، والنماذج الواردة من العصر الجاهلى كثيــرة فى هذا الشأن. ومنها:

ـ وصية ذى الأصبع العدوانى لابنه أسيد حيث يقول:

"يا بنى: إن أباك قد فنى وهو حى، وعاش حتى سئم العيش، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته، فاحفظ عنـى: ألـن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعـوك، وابسـط لهـم وجهـك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، واسمح بمالك، واحم حريمك، وأعزز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضـيفك، وأسرع النهضة فى الصريخ[١]، فإن لك أجلا لا يعدوك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا، فبذلك يتم سؤددك"[٢].

ومنها: وصية أمامة بنت الحارث لابنتها فى ليلة عرسـها تقـول لها:

---

(١) أى عند الاستغاثة.
(٢) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه صـ٢٩، ٣٠ ط٦ .

"أى بنية: إن الوصية لو تركت لفضل أدب، أو مكرمة فى حسب لتركت ذلك منك، ولزويته عنك، ولكن الوصية تذكرة للعاقل، ومنبهـة للغافل. أى بنية: إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتها إليها، كنت أغنى الناس عن الزوج، ولكن للرجال خلقت النساء، كما لهـن خلق الرجال، أى بنية: إنك قد فارقت الحواء[1] الذى منـه خرجـت، والوكر الذى منه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك ملكا، فكونى له أمة يكن لك عبدا، واحفظى عنى خصـالا عشرا، تكن لك دركا وذكرا.

فأما الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالقناعة، وحسن السـمع لـه والطاعة، فإن فى القناعة راحة القلب، وفى حسن السمع والطاعة رأفة الرب، وأما الثالثة والرابعة: فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح. واعلمى أى بنية: أن الماء أطيب الطيب المفقـود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود ، وأما الخامسة والسادسة: فالتعهـد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النومة مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالاحتفاظ بماله، والرعاية على حشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التدبير، والرعاية علـى

---

(١) أى المكان الذى احتواك.

الحشم والعيال من حسن التقدير، وأما **التاسعة والعاشرة**: فلا تفشى لـه سرا، ولا تعصى له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غـدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، واتقى الفرح لديـه إذا كـان ترحـا[١]، والاكتئاب عنده إذا كان فرحا، فإن الأولى من التقصير، والثانية مـن التكدير، واعلمى أنك لن تصلى إلى ذلك منه حتى تؤثرى هواه علـى هواك، ورضاه على رضاك، فيما أحببت وكرهت، والله يخيـر لـك، ويصنع لك برحمته"[٢].

ومنها: الوصايا الجامعة للأقوام عامة. مثل وصـية عـامر بـن الظرب لقومه، حيث يقول: "يا معشر عدوان: لا تشـمتوا بالذلـة، ولا تفرحوا بالعزة، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى، ومن ير يومـا يـر به، وأعدوا لكل أمر جوابه، إن مع السفاهة الندم، والعقوبة نكال، وفيها ذمامة ولليد العليا العاقبة، وإذا شئت وجدت مثلك ، إن عليك كمـا أن لك، وللكثر الرعب، وللصبر الغلبة ومن طلب شيئا وجده، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه" .

وكثير جدا من الوصايا الجامعة لأبواب الخير تشتمل عليها الكتب التراثية التى عنيت بجمع التراث وتصنيفه، وهذه الوصايا متنوعـة ــ

---

(١) أى غاضبا.

(٢) المعمرون والوصايا لأبى حاتم السجستانى صـ٢١٧ ــ ٢١٩ ت/عبدالمنعم عامر . طبعة ١٩٦١م الناشر: عيسى البابى الحلبى ــ القاهرة.

كما رأينا ــ منها وصايا الآباء لأبنائهم والأمهات لبناتهم وكبار الأقوام وعقلائهم لأقوامهم. وهى كما قلنا: نتيجة التجارب الكثيرة والخبـرات الطويلة والملاحظات الدقيقة، والعقول الواعيـة، يسـديها الموصـى للموصى ويدفع إليه بها، حبا وإخلاصا ومودة، راجيـا العمـل بهـا، والتوفيق لها٠

الحكم والأمثال:

الحكم : جمع حكمة وهى: القول الصائب والحكم الصحيح المسلم به .

وهو الذي يُنقل بنصه من المورد إلى المضرب في موقفين متشابهين

والأمثال: جمع مثل وكلاهما: الحكمة والمثل يأتيان فى قالب قصير وعبارة بليغة، ولكنهما غاية فى تأدية المعنى المراد منهما ، وكلاهما يأتى شعرا ويأتى نثرا، ولكن دورانهما فى النثر أكثر، ولذلك يعدان فى النثر . وهما ثمرة التجارب الطويلة والعقول الواعية الناضجة، والآراء السديدة الراجحة.

وأغلب من تصدر عنهم الحكم والأمثال هم المعمرون من أمثال: أكثم بن صيفى، وعامر بن الظرب العدوانى، وربيعة بن حذار، وهرم بن قطبة، ولبيد بن ربيعة، وهانئ بن قبيصة الشيبانى، وغيرهم . وإن كان أكثرهم شهرة فى هذا الشأن: أكثم بن صيفى ،وعامر بن الظرب ، وهانئ بن قبيصة ، وكانت الخطابة الواردة عن كليهما، تشتمل على الكثير من الحكم والأمثال من مثل قول أكثم بن صيفى فى خطبته أمام كسرى: الصدق منجاة، والكذب مهواة ـ الحزم مركب صعب، والعجز مركب وطئ ـ آفة الرأى الهوى ـ حسن الظن ورطة وسوء

الظن عصمة ـــ خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ـــ حسبك من شر سماعه ـــ البلاغة الإيجاز ـــ من شدد نفر، ومن تراخى تألف.

ومن مثل قول هانئ بن قبيصة فـــى خطبتـــه لآل بكـــر: هالـــك معذور، خير من ناج فرور ـــ إن الحذر لا ينجـــى مـــن القـــدر ـــ إن الصبر من أسباب الظفر ـــ المنية ولا الدنية ـــ استقبال الموت خير من استدباره ـــ الطعن فى ثغـــر النحـــور: أكـــرم منـــه فـــى الأعجـــاز والظهور.."

والأمثال الواردة عنهم كثيرة ومنها أيضا: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها[١] ـــ ما يوم حليمة بسر[٢] ـــ تفرقوا أيادى سبأ[٣] ـــ أمنع مـــن عقاب الجو[٤] ـــ أسمع جعجعة ولا أرى طحنا ـــ الحر حر وإن مســـه الضر ـــ لكل جواد كبوة ـــ كالمستجير من الرمضاء بالنار ـــ لا تلـــد الحية إلا حية ـــ أجود من حاتم ـــ يخبط خبط عشواء ـــ وقـــد يأتيـــك بالأخبار ما لم تزود ـــ لا تكن رطبا فتعصر ولا يابسا فتكسر ـــ المنية ولا الدنية ـــ رب قول أنفذ من صول ـــ مواعيد عرقوب ـــ الحـــديث

---

(١) يضرب فى صيانة الحر نفسه عن المكاسب الرخيصة.
(٢) يضرب للتعبير عن الشهرة.
(٣) يضرب للتعبير عن تشتت الشمل.
(٤) يضرب للدلالة على القوة والمنعة.

ذو شجون ــ كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك ــ الصيف ضيعت اللبن ــ إنك لا تجنى من الشوك العنب ... إلى آخره.

وكل مثل له مورد ومضرب، أى أنه يضرب فى المواقف المتشابهة مع مورده. ولكل مثل من هذه الأمثال وغيرها قصة تذكر مع مورده .

وقد عنى بجمعها وشرحها وذكر مواردها والقصص الناجم عنها عدد غير قليل من الأدباء القدامى. ومنهم: صحار العبدى أحد النسابين الذى ألف كتابا فى الأمثال فى أيام معاوية بن أبىسفيان ، كما ألف فيها بعده عبيد بن شرية كتابا أيضا فى حوالى خمسين ورقة، كما ذكر ذلك ابن النديم فى الفهرست، ثم أخذ التأليف يكثر بعد ذلك فى الأمثال: جمعا وشرحا وذكرا للمورد والمضرب، ودراسة أدبية ولغوية وتاريخية. فكان هناك كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى. وألف أبوعبيد القاسم بن سلام كتابا فى الأمثال شرحه أبوعبيد البكرى فى كتاب سماه: "فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبىعبيد القاسم بن سلام" وألف أبوهلال العسكرى كتابه "جمهرة الأمثال"، ثم جاء الميدانى فألف كتابه : "مجمع الأمثال".

وتتوالى الكتب التى تعنى بالأمثال العربية وتكثر ، وتكثر الدراسات المتنوعة عليها أدبيا وبلاغيا ولغويا وتاريخيا وأخلاقيا .. وغير ذلك •

إلا أن المشكلة التى تواجه الدارسين أن معظم من جمعوا هذه الأمثال وألفوا فيها وأقاموا عليها دراسات فى الأدب القديم كانوا يرتبونها ترتيبا هجائيا وفقا للحروف الهجائية بغض النظر عن أنها جاهلية أو إسلامية . "وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها فى كثير من الأحيان ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها، وهى تتخذ عندهم طريقين:

الطريق الأول: أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره، أو أن يساق هو فى أثناء قصة جاهلية ، كتلك الأمثال التى نقرؤها فى قصة الزباء من مثل: "لا يطاع لقصير أمر" و"لأمر ما جدع قصير أنفه" و"بيدى لا بيد عمر" ... ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية، كالذى زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمى ابتنى قصرا له يسمى "الخورنق" بناه له رومى يسمى "سنمار"، فلما أتمه قال له سنمار: إنى أعرف موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله، فقال له

النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ فقال: لا، فقال: لا جـرم لأدعنهـا ومـا يعرفها أحد ، ثم أمر به فرمى من أعلى القصر إلى أسـفله فتقطـع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا: جزاء سنمار .

وأما الطريق الثانى: فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين، فحينئـذ يتعين زمنه وتاريخه"[1].

وهناك أمور يجب الوقوف عندها وملاحظتها فى الحكم والأمثال وهى:

أولا: أن العرب قديما وحديثا حينما ينطقـون بالحكمـة العربيـة والمثل العربى لا يعينون القائل. وذلك لأن المهم عندهم هـو التمثـل بالقول والإفادة منه، وليس بصاحبه، وبخاصة أن بعض أصحاب الحكم والأمثال كانوا من عامة الناس ، ومن غير المعروفين المشهورين.

ثانيا: أن كثيرا ممن ينطقون بالمثل ـ وبخاصة فـى العصـور المتأخرة ـ ربما لا يعرفون قصة مورده، ولكـنهم سـمعوا الأمثـال وحفظوها وتشبعوا بها، وحينما يصادفون موقفا مشابها فيما يتخيلـون إذا بهم ينطقون به ويتمثلون بمعناه للعظة والعبرة.

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) صـ ٤٠٥ د/ شوقى ضيف.

ثالثا: أن الأمثال لا تتغير من حيث النطــق بهــا، ولا تخضــع لقواعد النحو والتصريف، وإنما تظل على حالها التــى وردت عليهــا نطقا وكتابة٠

فيقال: "الصيف ضيعت اللبن" بكسر التاء، ويخاطب بهذا المثــل على حاله الواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجماعة. ويقال: "أعــط القوس باريها" بتسكين الياء فى باريها، والقياس فتحها٠

ويقال: "أجناؤها أبناؤها" جمع جان وبــان، والقيــاس : "جناتهــا بناتها" لأن فاعلا لا يجمع على أفعال ... وهكذا٠

ولكن هذه المخالفة الجائزة عند النحاة ليست قاعدة مضطردة فى جميع الأمثال العربية . إذ إن هناك الخطباء المفوهين المشــهود لهــم بفصاحة الكلمة وبلاغة القول، واطراد الحكم والأمثــال فــى خطــبهم فوصفوا بحكماء العرب مثل: أكثم بن صيفى، وعــامر بــن الظــرب العدوانى وهانئ بن قبيصة الشيبانى، وقس بــن ســاعدة الإيــادى .. وهؤلاء الحكماء البلغاء قد وردت الحكمة كما ورد المثل فى خطــبهم صحيحا فصيحا لا مخالفة ولا لحن فيه. كــذلك مــا ورد فــى شــعر الشعراء من الحكم والأمثال، ورد صحيحا فصيحا ليس فيه شىء مــن

المخالفات الإعرابية. وإذا كانت هناك مخالفات نحوية أو صرفية في الشعر فلا تحسب على الحكم والأمثال، وإنما هي منها براء.

رابعا: نلاحظ أن اللحن الموسيقى واضح فيما ورد من الحكم والأمثال العربية ــ وبخاصة الجاهلية ــ سواء أكانت فى جملة نثرية أو فى شطر من بيت شعر، أو فى بيت منه، من حيث السجع وتوازن الكلمات والفواصل، ومن حيث جمال التعبير وبهاء التصوير. ولذلك يقول النظام عن الأمثال: "إنها: نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية"[1].

ويذكر الدكتور شوقى ضيف مجموعة من الأمثال العربية التى وردت فى العصر الجاهلى ثم يقول: "فإنك تحس جمال الصياغة، وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنغيم الموسيقى للفظه، فإذا هو يسجع فيه، أو إذا هو ينظمه شطرا من بيت، وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة، ليجسم المعنى ويزيده حدة وقوة، والحق أن كل شىء يؤكد أن العرب فى الجاهلية عنوا بمنطقهم، واستظهار ضروب من الجمال فيه، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا"[2].

---

(١) مجمع الأمثال للميدانى ١/ ٥ .
(٢) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) صــ٤٠٩ .

سجع الكهان:

هناك نوع من أنواع النثر يطلق عليه (سجع الكهان) وهو لطائفة من الرجال والنساء سكنوا بيوتات الأصنام والأوثان وأحاطوا أنفسهم بهالة دينية كبيرة واعتقد الجاهليون فيهم وفيما يقولون، وقد اصطنعوا السجع أداة لهم فى جميع تعبيراتهم. وكان الجاهليون يحكمونهم فيما بينهم ويستشيرونهم فى أمورهم وفيما يعن لهم، ويعتقدون فيهم وفيما يقولون لهم اعتقادا جازما، وقد عرف هؤلاء بالكهنة وأن التابع للكاهن يسمى (رئيا)٠

وكانوا يعتقدون أن الكهان بمالهم من منزلة دينية وثنية عندهم وأنهم خدمة الآلهة وهم الأصنام ، يعتقدون أنهم يوحى إليهم بل كانوا يطلقون عليهم أنهم أرباب، وهذا واضح فى قصة الكاهن مع بنى أسد كما جاء فى كتب التاريخ والأدب ، فقد روى أن حجرا أبا امرئ القيس رق لبنى أسد فبعث فى إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة، فقال لبنى أسد: "يا عبادى: قالوا لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلاب غير المغلب، فى الإبل كأنها الربرب[1]، لا يعلق رأسه الصخب، هذا دمه

---

(١) الربرب: القطيع من الظباء٠

ينثعب[١]، وهذا غدا أول من يسلب، قالوا من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية، فركبوا كل صعب وذلول، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته وقتلوه"[٢].

وهذا دليل قاطع على أن اعتقاد الجاهليين فى كهانهم ليس اعتقادا عاديا، ولكنه اعتقاد الألوهية المستمد – فى نظرهم – من خدمتهم وتبعيتهم لأوثانهم وأصنامهم ، ومن ثم كانت شهرة الكاهن تتجاوز – أحيانا – آفاق قبيلته إلى قبائل متباعدة .

وكان الكاهن يزعم أن له تابعا من الجن يسمى (رئيا) يطلعه على أمور الغيب. يقول الجاحظ: "وكانوا يدعون الكهانة، وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن، مثل حازى جهينة، ومثل شق وسطيح وعزى سلمة وأشباههم، وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع"[٣].

وهؤلاء الكهان كانوا كثيرين فى العصر الجاهلى، وجمهورهم كانوا يمنيين، وكانوا يتمتعون بنفوذ عظيم، وشهرة فائقة، وكانت

---

(١) ينثعب: يسيل.
(٢) الأغانى ٩/ ٨٤ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٨٩ .

خطبهم وآراؤهم، وأحكامهم فى الخلافات والمنافرات تدوى فى الآفاق والقبائل المجاورة لقبائلهم٠

ومن أشهرهم: سطيح الذئبى، وشق بن مصعب الأنمارى، وقد فزع إليهما نصر بن ربيعة ملك اليمن لتفسير رؤيا له[١]، وقد حاك حولهما القصاص العدد من القصص الخيالية، فقالوا عن سطيح: بأن وجهه كان فى صدره، ولم يكن له عنق، ولم يكن فيه عظم سوى جمجمته، أما شق فقالوا عنه: إنه كان نصف إنسان (طوليا) له عين واحدة، ويد واحدة، ورجل واحدة ٠

ومنهم أيضا خنافر بن التوأم الحميرى، وسواد بن قارب الدوسى، وقد أدر هذا الإسلام. وقيل إنه أسلم بمشورة تابعة (شصار)، ومنهم أيضا: عوف بن ربيعة الأسدى وسلمة الخزاعى، وعزى سلمة، وهو أكهنهم جميعا . يقول الجاحظ: "أكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبىحية، وهو الذى يقال له عزى سلمة"[٢] ومن قوله[٣]: "والأرض والسماء ، والعقاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نفر المجد بنى العشراء للمجد والسناء"[٤]٠

---

(١) الكامل لابن الأثير ٠

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٥٨ ٠

(٣) المصدر نفسه ٠

(٤) الصعقاء: الشمس، البقعاء: ماء أو موضع، نفر: حكم بالغلبة، بنو العشراء: عشيرة من فزارة. السناء: الرفعة٠

وإلى جانب هؤلاء الكهان من الرجال، كانت هناك جماعــة مــن الكاهنات ومن أشهرهن: الشعثاء، وكاهنــة ذى الخلصــة، والكاهنــة السعيدية، والزرقاء بنت زهير، والغيطلة القرشية، وزبراء كاهنة بنـــى رئام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: "واللوح الخافق، والليــل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطــارق، والمــزن الــوادق، إن شجرالوادى ليأدو ختلا، ويحرق أنيابا عصلا، وإن صخر الطود لينذر ثكلا، لا تجد عنه معلا"[١].

وهؤلاء الكهان قد عرفوا بسجعهم الذى كان أســمى ســمة لهــم وعلامة على ما يقولون وما يخطبون، لدرجة أنهم لا يتكلمون إلا كلاما مسجوعا بجمل قصيرة وألفاظ مبهمة. والدليل على ذلك ما جــاء فــى الحديث المروى عن أبىهريرة ﷺ أنه : "اقتتلت امرأتان مــن هــذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما فى بطنها، فاختصموا إلــى رسول الله ﷺ ، فقضى رسول الله أن دية جنينها غرة عبد أو وليــدة، وقضى بدية المرأة عاقلتها[٢] ... فقال حمل بن النابغــة الهــذلى: يــا

(١) الأمالى ١/ ١٢٦ ، اللوح هنا: الريح، الوادق: الممطر، يأدو: يختل. يحرق أنيابا عصلا: كناية عن الغضب والشر، عصلا: معوجــة. الطــود: الجبــل. المعل: الملجأ .

(٢) عاقلة المرأة: عشيرتها الذين يتضامنون معا فى دفع الدية.

رسول الله: كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل[١]، فمثل ذلك يطل[٢]، فقال رسول الله ﷺ : إنما هذا من إخوان الكهان، من أجل سجعه الذى سجع"[٣].

وهذا السجع الذى كان من خصائص كلامهم جعل الأمر يختلط على القرشيين فى بداية الدعوة الإسلامية حينما سمعوا من المسلمين الأوائل ومن رسول الله ﷺ القرآن الكريم وما فى نهايات كثير من آياته من فواصل مساوقة لدرجة أن التبس على كثير منهم الأمر فقرنوا القرآن الكريم بسجع الكهان، وبخاصة أن كثيرا منهم كانوا مغرضين وكانوا يلبسون الحق بالباطل، فرد الله عليهم مزاعمهم ودافع عن قرآنه ورسوله الكريم بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥].

(١) استهل: صاح .
(٢) يطل: يهدر دمه.
(٣) صحيح مسلم ٥/ ١١٠ .
(٤) سورة الطور آية ٢٩ .
(٥) سورة الحاقة آيات من ٤٠ إلى ٤٣ .

ويلاحظ على الكهان فى سجعهم أنهم كانوا يعمدون إلى استخدام ضروب من الألفاظ الغامضة المبهمة، والصيغ الغريبة، وإلى التلويح دون التصريح بما يريدون، ظنا منهم أن كلامهم يفقد تأثيره إذا هم آثروا الوضوح والإبانة عن القصد، "وحتى يتركوا فسحة لدى السامعين كى يؤول كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه، ومن ثم دخل الرمز فى كثير من أقوالهم، إذ يومئون إلى ما يرويدون إيماء، وقلما صرحوا أو وضحوا، بل دائما يأتون بالمعانى من بعيد، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا فى وضوح معنى، ويتخذوا له أشباحا واضحة من اللفظ تدل عليه، لأن ذلك يتعارض مع تنبئهم الذى يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التى تخدع السامع وجوها من الخدع، ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة، وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل...".

ثم يضيف د/ شوقى ضيف: "وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذى يضاف إليهم، فإنه يلاحظ عليه أيضا: كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجى والصبح المنير ، والأشجار والبحار، وكثير من الطير ، ومن أجل ذلك يحلفون بها

ليؤكدوا كلامهم، وليبلغوا ما يريدون من التأثير فـــي نفـــوس هـــؤلاء الوثنيين"[١].

ويقول د/ على الجندى: "فالذى لا ريب فيه أن لغة الكهانة تنبثــق من شعور بالفوق، والأفضلية والسمو الروحى على من يستصـــيحون بهديها، فهى فى نظر أصحابها، ونظر من يــدين بهـــا لغـــة خاصـــة مختارة، لها سند من قوة علوية ملهمة، وتتخذ منها أداة لفــض أختـــام الغيوب، وهتك أستاره، ومن ثم كان لابد لها أن تســتعين بـــه (كديـــة الزار) من التأثير فى النفوس الضعيفة المستسلمة ، لتشـــل تفكيرهـــا، وتخدر تعقلها، وتلهيها عن تبين التدليس والتلبـــيس ، وتســوقها إلـــى الإذعان والقبول، مستغلة تشوقها إلى معرفة أسرار الغــد، ومطالعـــة صحف المجهول، لذلك نراها تعتمد على المواربة والرمـــز والإبهـــام، والاستغلاق مرة، وعلى القسم والطنين والجلجة والتهويل والإغـــراب أخرى، حتى تتحقق الغاية المقصودة منها"[٢].

وإذا كان جل النقاد ومؤرخى الأدب لا يطمئنون إلى كل ما ورد عن العصر الجاهلى من شـــعر ونثـــر (خطابـــة وأمثـــال ــ وحكـــم، وقصص) فإن عدم الاطمئنان بل الشك والاتهام إلى سجع الكهان أولى

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) صـــ٤٢٣ د/ شوقى ضيف.
(٢) صور البديع ١/ ٤٠، ٤١ .

وأكثر، وبخاصة أن الإسلام قد حرم الكهانة والدجل والشعوذة ، وحرم أساليب الكهان والدجالين. ومعنى هذا أن سجع الكهان لم ينقل بعد ظهور الإسلام لا كتابة ولا رواية من شخص لآخر، ونقله الإخباريون فى عصر التدوين بما فيه من شك قاطع واتهام واضح، وذلك لبعد المسافة بين العصر الذى قيلت فيه، والعصر الذى دونت فيه أى حوالى قرنين من الزمان. وهذه الحقبة من الزمان بالإضافة إلى انقطاع الرواية والنقل جعلت أصابع الاتهام تشير بقوة إلى أن ما ورد من هذا السجع كان منحولا على الجاهليين وبإتقان شديد من المقلدين.

لكن هذا التقليد ينبئنا أن شيئا من هذا السجع كان موجودا فى عصر التدوين ومن هنا حاكاه المقلدون صياغة وأداء، وبنفس طريقة الكهان ، وعلى منهجهم فى العصر الجاهلى. وهذا يوضح لنا أن الجاهليين قد عنوا بشعرهم ونثرهم أيما عناية، وأن من حاولوا محاكاتهم ونحل آثارهم لابد أن يكونوا مقاربين لهم فى الصياغة وقوة الأداء.

الخاتمة

وبعد: فهذه دراسة جادة لتاريخ الأدب الجاهلى وبعض قضاياه المهمة، وقفت فيها على معنى كلمة (الجاهلية) وعرضت فيها لآراء الدارسين كما وقفت على آرائهم فى تحديد المدة الزمنية لهذا العصر قبل مجئ الإسلام، وتناولت بالدراسة الأطوار التى مرت بها كلمة أدب من حيث المعنى اللغوى المتداول بين الجاهليين كما ورد فى شعرهم إلى أن كان المعنى العام والذى منه الشعر والنثر بالمعنى المتداول فى العصر الحديث.

ولما كان الخلاف محتدا بين الدارسين فى قضية الأولية بين الشعر والنثر الجاهليين أيهما أولا؟ فقد وقفت على هذه القضية ورجحت أن يكون النثر أولا، نظرا لمواكبة هذا الرأى للعقل والمنطق وسقت الأدلة المرجحة لذلك.

وكذلك لما كان الأمر شائكا بين النقاد والدارسين للأدب العربى فى عصوره المختلفة من حيث أن الضمير السائد فى الشعر الجاهلى كان جماعى النزعة وأن الشاعر يذوب فى قبيلته جسدا وروحا، لفظا ومعنى، بحيث لا ينفصل عن جماعته وقبيلته فى شىء، إذ أنه جزء لا يتجزأ منها ومن كيانها المتماسك، كان لابد أن أقف على هذه القضية

لأوضح أن الشاعر مهما كانت درجة التماسك بينه وبين قبيلته فهو لـــه كيانه وتفكيره ومزاجه الخاص، ولـــه أحاسيســـه ومشـــاعره وذاتيتـــه الخاصة، ولابد وأنه يعبر عن نفسه وعن أحاسيسه هو كما يعبر عـــن مشاعر قبيلته وعلى لسانها. ومن ثم فقد وقفت على هذة القضية وجليت آراء النقاد والدارسين فيها ٠

كذلك. وقفت على قضية الانتحال وهى قضية قديمة حديثة. خاض غمارها النقاد قديما وحـــديثا، وقـــد فجرهـــا فـــى العصـــر الحـــديث (مرجليوث) ومن بعده د/ طه حسين، وكثر فيها الأخذ والرد وكان لابد أن نعرض لها وندلى فيها برأينا ونذكر نماذج من الشعر الذى قيل عنه إنه منتحل، ووصلنا فيها إلى أن الشعر الجاهلى ليس صـــحيحا كلـــه، وليس منتحلا كله. بدليل أن الناحل لابد أن تكون له نماذج مـــن الأدب القديم شعرا ونثرا يقلدها تقليدا محكما ، وهذا ما حـــدث فعـــلا وســـقنا الأدلة على وجود شعر ونثر كثير غير منتحل٠

ثم عرضت لبعض الأغراض الشـــعرية فـــى العصـــر الجـــاهلى بالدراسة ومنها : الوصف والمدح والفخر والرثاء والهجاء والغزل٠

ثم وقفت بالدراسة على النثر الفنى ودواعيه وأغراضه فى العصر الجاهلى. وقسمنا النثر الفنى قسمين. أولا: الكتابة، وثانيـــا: المخاطبـــة الشفهية.

ووقفت فـــى المخاطبـــة الشـــفهية علـــى: الخطابـــة ودواعيهـــا وموضوعاتها وعلى عادات الخطباء فى العصر الجاهلى. كما وقفـــت على الوصايا والحكم والأمثال وسجع الكهان، بدراسة جادة ، نرجو أن تكون نافعة إن شاء الله تعالى .

نسأل الله تعالى أن ينفع بدراستنا هذه طـــلاب العلـــم والأدب وأن يجزينا عليها خير الجزاء .. اللهم آمين.

المؤلف

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١-	المقدمة	١
٢-	الجاهلية	٥
٣-	معنى الجاهلية	٥
٤-	تحديد العصر الجاهلى زمنيا	١٤
٥-	كلمة أدب ــ نشأتها وتطورها	١٧
٦-	قضية الأولية بين الشعر والنثر	٣٠
٧-	ضمير الجماعة وضمير الذات فى الشعر الجاهلى	٥٥
٨-	أولا : ضمير الجماعة	٥٦
٩-	ثانيا : ضمير الذات	٧٥
١٠-	ضمير الذات فى مقدمة القصيدة الجاهلية	٩٢
١١-	قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى	١١٩
١٢-	المعنى اللغوى	١١٩
١٣-	الوضع أو النحل فى رأى القدامى	١٢٣
١٤-	قضية الانتحال عند المحدثين	١٣٢

م	الموضوع	رقم الصفحة
١٥-	طه حسين وقضية الانتحال	١٣٥
١٦-	نماذج من انتحال الشعر الجاهلى	١٤٤
١٧-	الأغراض الشعرية	١٥١
١٨-	١ - الوصف	١٥٤
١٩-	٢ - المدح	١٦٧
٢٠-	٣ - الفخر	١٨٤
٢١-	٤ - الرثاء	١٩٦
٢٢-	٥ - الهجاء	٢١٠
٢٣-	٦ - الغزل	٢٢١
٢٤-	النثر الفنى فى العصر الجاهلى	٢٣١
٢٥-	دواعى النثر الفنى فى العصر الجاهلى والغرض منه	٢٣٤
٢٦-	أولا : الكتابة والتدوين فى العصر الجاهلى	٢٣٦
٢٧-	أدلة التدوين فى العصر الجاهلى	٢٤٨
٢٨-	ثانيا: المخاطبة الشفهية	٢٥٧
٢٩-	الخطابة	٢٦٦

م	الموضوع	رقم الصفحة
٣٠-	عادات العرب فى الخطابة	٢٨٠
٣١-	الوصايا	٢٩٣
٣٢-	الحكم والأمثال	٢٩٨
٣٣-	سجع الكهان	٣٠٥
٣٤-	الخاتمة	٣١٣
٣٥-	فهرست الموضوعات	٣١٦

((تم بحمد الله))


مهيب صبرى مهيب
للطباعة
الزقازيق - الحسينية
٠١٢٧٩١٣٦٢٩ - ٠١٢٤٥٥٠٥٥٢
٠٥٥/٢٢٣١٦٨٨